فلسفي إجتماعي

نبض القمة للترجمة

حروف تائهة

(في الإنسان والفكر والحياة)

محمود إسماعيل حلمي

حروف تائهة

كتاب	:	حروف تائهة
اسم المؤلف	:	محمود إسماعيل
نوع العمل	:	خواطر
عدد الصفحات	:	248صفحة
تصميم غلاف	:	أماني العيسوي
تدقيق لغوي	:	فريدة محمد
إخراج فني	:	مريم محمد سيد
رقم إيداع	:	2023/26725
ترقيم دولي I.S.B.N	:	978-977-8983-78-4

نبض القمة للترجمة

جمهورية مصر العربية – القاهرة

مدير الدار: أ/ وليد عاطف حسني

موبايل: 01116058384

الميل: nabdalqima@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة ©

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تجزئته في نطاق استعمال المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال المعروفة حاليا أو التي ترد مستقبلا دون إذن خطي مسبق من الناشر والمؤلف.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة على توجه دار نبض القمة للترجمة بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول وكل ما يحتويه الكتاب مسئولية المؤلف.

حروف تائهة

(حروفٌ تائهة في الإنسان والفِكر والحياة)

محمود إسماعيل

إهداء

إلى كل الأصدقاء الذين عَدّوني كاتبًا أصيلاً، وحسبوني كاتبًا مختبئًا بين ازدحام الحياة وضجيجها، وحثّوني على التأليف أُهدي إليكم مؤلفي الأول وأقول:

لولاكم ما تبلور لديَّ تجرؤ على النشر، ورغبة في أن أتواصل مع عالم الإنسان على نطاقٍ أوسع.

وإلى اللغة العربية، معشوقتي الساحرة الراقية: افرحي، فقد ظفرتُ من رضاكِ أول الرضا.

تمهيد:

أظن ما من الممكن أن يحدد هوية الإنسان يقع فيما يراه هو مرتبطًا بذاته إلى حد الاتصال والتناغم، لذلك عادةً ما أعرف نفسي بأَنَّ أحب العناصر الممارسة في هذا العالم إلى ذاتي تكمن في ثلاث: القراءة والموسيقى والقهوة. وعلى الرغم من اتصالي بالكتابة، فإنَّني لا أشملها ضمن الثلاثة؛ ولعلني أنحو في هذا النحو نحو تقديم القراءة عليها، لأنَّ الكتابة تنتفي إذا ما أُقصيَت القراءة. أحسب تلك السطور مهمة بالنسبة إليك، عزيزي القارئ، لأنني لا أريد أن أمهد لك هذا الكتاب بالتعبير عن أهمية الكتابة؛ ذلك لأَنَّ الأهم من هذا الأمر الإعراب عن فلسفتي في القراءة، ما جعلني أنتهي إلى هذا المؤلَف.

مما أعده واجبًا أخلاقيا تجاهك لإعلامك إياه، ومما أراه من المواقف المضحكة أيضا، أنني عندما أرسلت هذا المؤلَف إلى عدد من دور النشر، تعثرت في تصنيفه. مَنْ قَبِلَ منها نشر المؤلَف أو رفضه، جاءني منها رسالة مشتركة متكررة، ألا وهي: "تصنيف الكتاب: أقرب إلى فن الخواطر، لكنه ليس من الخواطر في شيء". والحق أن مؤلَفي لا ينتمي إلى باب الخواطر، ذلك إذا التمس المرء مكونات الخاطرة وشروطها، وإنما هو يتكئ على فلسفة في القراءة أفرزته وشكلت أبعاضه وأبعاده. تلك الفلسفة في القراءة يمكن تلخيصها في محاور كتابية على النحو التالي:

أولًا: أقرأ لأتعلم، لا لأتسلى.

ثانيًا: من الأهمية بمكان كتابة تعليقات طويلة أو قصيرة على كل النصوص التي أقرأها، وألزم نفسي بوضع أسئلة تنشيطية تقع من ذاتي موقع المحفز لقراءة نصوص أخرى.

ثالثًا: من المهم استخدام الكتابة في تدوين الفوائد الكبرى التي حصلتها من القراءة المتراكمة نفسها من وقت إلى آخر.

هذا المؤلَف هو مجموعة من الفوائد الكبرى، والتي يمكن وضعها تحت عنوان "حروف تائهة (حروف تائهة في الإنسان والفكر والحياة)، وهو كتاب أتعرض فيه إلى عرض عصارة فكري بطريقة مكثفة عميقة.

ملاحظات:

أولاً الاعترافات: تُعد المدخل الأول إلى عالمي، وهي تحتوي على نظرات شخصية عن شخصي، كما أنها تشير إلى فهمي عن موضوعات مختلفة أيضًا. لقد ميّزتها أن تكون استهلال الكتاب بعد المقدمة، كي أشارك القارئ ما أستطيع مشاركته عن نفسي، عساه أن يجد في ذاتي ما يبعث على فهم ذاته.

ثانيًا: ليس المقصود من "إشارات بطعم الدعابة" المِزاح فحسب؛ فمنها ما أدرجته في هذا الباب لاحتوائه لمسات في المزاح لغوية، غير إنَّ بعضها مؤداه دعابة الذي بلغته فعلاً من التعبير عنه، وبعضها جُعِلَ من الدعابة لأجل السخرية فقط.

ثالثًا: ليس المقصود من نقود الدرب الاجتماعي نقود سياقنا الاجتماعي في العالم العربي فحسب، بل بعض النقود لا تعدو سوى تساؤلات نقدية عن السياق الاجتماعي للبشرية جمعاء.

مقدمة المؤلِف:

ما قرأتُ كتابًا في غير الأدب إلّا وجدتُ له مقدمة؛ حيث يُعَرِّجُ المؤلف على منهجه في بحثه، ويشير إلى إشارات يراها تحمل شيئًا من اللبس عند القُراء، أو يحسبها غير مستوفاة من باب البحث أو اللغة أو نحوهما، ولكنني أرغب في أن أستهل مقدمة كتابي هذا بالإشارة إلى نقطة مفصلية، وهي: محاولة فهم الإنسان والإلمام بمضامينه، إذ لا بد من أنها قد احتلت ضمير الإنسان بالانشغال، لا سيما ضمير دارسي فنون الآداب المتباينة؛ فمنهم مَنْ يعتد بالأدب نقدًا وتأليفًا وأثرًا في دراسات الأدب المُقارن، أو أدب أمة من الأمم البشرية، ومنهم مَنْ يعْنى بمآلات الفلسفات الإنسانية وما تحوي من حركة الفكر الإنساني الضاربة بجذورها في مباحث المعقول العميقة، ومنهم مَنْ ينأى عن ذلك كله راغبًا في فهم الذات الإنسانية من باب نفسي محض وما يتخللها من اعتلالات من شأنها أن يكون لها الأثر على الإنسان فردًا وجماعة، ومنهم مَن يدرس المجتمعات ومداراتها وما يساهم في تغييرها إيجابًا كان أم سلبًا.. إلخ، وحاصل هذا الكتاب أنه يحاول أن يضع إرهاصات مدروسة في هذا الجانب، أي إرهاصات في فهم الإنسان عقلاً ونفسًا ومجتمعًا، وذلك عن طريق عدد كبير من الإشارات متفاوتة الطول، والتي تربو على شطر الألف من الإشارات، إلى جانب ثلاث عشرة مقالاً مختومًا بها الكتاب.. ويمكنني القولُ بأَنَّ هذا المؤلَف هو المؤشر البدائي لإبرام علاقتي بقارئي، وعلاقة القارئ بي، والتي أعدها أشرف وأنبل العلاقات الإنسانية قاطبةً؛ حيثُ

يلتمس في ثناياها القارئ والكاتب كلاهما محاولة رفع الغامض، وكشف المغمور، وضرب العقل في طريقٍ لا يسهل السير فيه ضرورةً، وعنوان المؤشر البُدائي يكمن في إبراز حاصل ما حصلته ذاتي من هذا العالم بطرقٍ شتى، وفي نواحي لا تنعزل عنه، ومباحث خلصت منها بما أعرض بطريقة هي أقرب إلى الاقتضاب والإيجاز منه إلى البسط والتفصيل.

أما عن المنهج المتبوع في بحث هذه الإشارات والمقالات، فالحق يقتضي الإقرار بأنَّ ليس ثمة من منهج بحثي أكاديمي متبوع، إذ إنَّ مقولات الكتاب ليست إلا حاصل ما حصلته ذاتي بين عالم الإنسان من فكرٍ خلال عقدين من الدهر، وذلك بوجود أحداس يحدّها فهمي ووعيي الحاضران بحقيقتها من جانب، وتحدّها ثقافتي المُقَيَّدة من جانب آخر، والتفصيل في بلوغ النتائج منهجيًّا أراه يُحَمِّل الكتاب ما لا يطيق، وعلى الرغم من إمكانية تغيّري كامل التغيّر إلى منظور يضاد منظوري الحالي بنسب متفاوتة، فإنَّ جملة الكتاب يعدو عُصارة فكري في موضوعات شتى بالنظر إلى الوقت الراهن؛ فهو يحتوي على إشارات تكتظ بالتكثيف العميق حول أمور متباينة، خلصتُ منها بتحليل القراءات المتراكمة ومقاربتها واستقراء أحوال الإنسان فيها، ومنها: العلاقات الاجتماعية ونقودها، والحالة الإنسانية الجمعية ومضامينها، والمعرفة والوعي، والفكر والفلسفة والحياة برمّتها.. قد لا أزيد في القول إن قُلتُ بأَنَّ من الممكن أن تكون قراءة هذا الكتاب صعبة؛ ذلك لأَنَّها تتطلب ذهنًا نشطًا يقظًا، يفكر في مضامين المقولات ما استطاع إلى ذلك من العمق والتعمق، وليس المرور عليها

مرور الكِرام بحركة العين فحسب.. وبناءً على ما تقدم، فإنَّ هذا الكتاب يبدو صغير الحجم، بِيد إنه يحوي ما قد يستفز المرء للبحث، وما قد يثير حفيظة القارئ للنقد والنقض، وما قد يلفت انتباهه إلى أمور يقف منها موقف الحائر أو التائه.

لقد عنونتُ الكتاب ب"حروف تائهة" وهي تائهة، كي أشارك القارئ حروفي التي ما زالت تائهة في هذا العالم والتي تُشَكِّل عالمي، وعالمي الذي لم أنتهِ بعدُ من محاولاتي بناء أركانه في هذا العالم، ولم يفرغ هو أيضًا بعدُ من محاولاته بناء أركاني كذلك؛ عسى القارئ أن يجد في إشراكه حروفي ما يبث في نفسه شيئًا لم يكن ليعيه لولا هذه المشاركة.. وهي تائهة كذلك؛ لأَنَّ جزءًا من هذا المؤلَف -في الأصل- كان كتابات مبعثرة، وما كان مني إلّا أن أضفت إليه أجزاءه الأخرى وتخيّرت من كتابات الجزء المبعثر أجودها وأقرب إلى نفسي أن يطالعَهُ الناس مطالعة يجتمع عندها حاصل ذاتي في هذه السن، لا سيما أَنَّ هذا المؤلَف هو مؤلفي الأول.. وهو مؤلَف تحدّه الحروف؛ لأَنَّ القلم هو الوسيلة الوحيدة التي تجعلني أعبر عنه، ولأنني لا أجد في نفسي حرجًا من الإعراب عن تبجيل الكتابة وأداتها واضح الإعراب من خلال عنوان الكتاب؛ فالكتابة عندي بديلٌ عن الانتحار، والقراءة الجادة عندي هي الجريمة الوحيدة التي يرغب القانون عن معاقبة مرتكبيها.

يتألف المؤلَف من أربعة أبواب، يقع الثلاثة الأولى في ثلاثة فصول لكل باب، وخصصتُ الرابع بالمقالات المنشطرة إلى فصلين،

إذ منها ما كان محله الفكر والفلسفة والإصلاح الاجتماعي، ومنها ما كان ذاتيًّا.. ولأنني طالما أعتد بحركة الفكر الإنساني، ومحاولة التقاط جوانبها، وتحليل ما أعنى به عظيم العناية؛ فلا أظن أن ثمّة ريبًا بأَنَّ الفكر والتفكير يقعان من جنس صديقنا الإنسان موقع ما هو في جوهر ذاته متغلغل، لذلك يحوي الباب الأخير عددًا من المقالات التي أنحو بها هذا النحو، آملاً أن تجد في سبيلها مَنْ يختلف فيما تعرضه قبل أن تجد مَنْ يتفق فيما تُقرّه، وهذا الباب فصلان: فصلٌ للفكر والتفكير وما يتعلق بهما من متصلات، وآخر أشاطر به القارئ ذاتي، غير إنَّ ما أشاركه لا يخرج عن مدار الفكر أيضًا.

لا أسأل القارئ أن يتفق معي فيما جاء بين طيّات هذا الكتاب اتفاقًا كليًّا، ولا أسأله أن يختلف معي اختلافًا تامًّا كذلك، وإنما أسأله أن يقرأهُ من جانبيْنِ، أولهما: قراءة مَنْ يرغب في أن يتعرف على تجربة إنسانية وحاصلها في أمورٍ شتى، والتي من الممكن أن تضيف إلى تجربته الإنسانية شيئًا، وثانيهما: أن يقف من الكتاب موقف الناقد المحلل؛ بحيثُ يجد فيه ما يتفق معه اتفاقًا جزئيًّا، وما لا يعرف من نفسه فيه رأيًّا واضحًا، وما يحتاج منه إلى بحثٍ لتقرير رأيٍ فيه، وما يراه ضربًا من ضروب الخبل، وما يظنه واجب الاختلاف في شأنه والمجادلة، وما يثير حفيظته فيقف منه موقف الحائر أو الغاضب.. إلخ، والأمر الذي ينبغي الإشارة إليه أنني لا أوجه هذا المؤلَف إلّا إلى ذوي العقول اليقظة؛ فمَن يُقبِل عليه دون أن يرى في نقده حقًا حين تقليب صفحاته والوقوف المتأمل عند بعضها، فلا أجد في نفسي حرجًا من أن أنصحه بأن يهدر طاقته في فعل شيء آخر من ممارسة

الأنشطة المختلفة في عالم الإنسان، إذ إنَّ القراءة المحكوم عليها بالعزوف المسبق عن النقد لا تعدو سوى نمط مستتر من أنماط التلقين.. وليعلم، قارئي الكريم، بأَنَّ تأييدَهُ ما أطرح لا يعدو غير إضافة عدد المؤيدين، أما نقده فيضيف إلى الرؤية التي أتمثلها رؤى أخرى، تتضح بإظهار المميزات مرة وبإظهار المعايب تارة أخرى، وبإنتاج رؤية مضادة كامل التضاد ثالثةً.

الباب الأول: مدخل إلى العالم

الفصل الأول: اعترافات (80 اعترافًا):

(1) أظن أصعب الشعور في تجربتي الذاتية شعور الغُربة المصحوب بالضيق! مسألة أن تنشغل الذات بأمر جلل لا ينشغل به سوى القلة عادةً أمرٌ يدخل عليها شيئًا من التحسر الباعث على الألم! ويزداد الأمرُ سوءًا عندما يكون الطريق واضحًا بالنسبة إلى الذات، غير أَنَّ مضامينه يحمل صعوبات عظيمة؛ لتحيا الذات نفسها بين جانب من الضيق من ناحية، وجانب من الصراع الطويل في مسارات الحياة من ناحية أخرى.

(2) ثمة أوقاتٌ لا أحب عندها فعل شيء سوى التوقف عن فعل كل شيء، وقد يكون عدم فعل شيء مرادفًا معنى الملاحظة، أن ألاحظ وأطيل في الملاحظة هو أفضل ما أستطيع فعله، وإن كان ذلك -في الأصل- فعلاً سلبيًّا، أي ينفي كل الأفعال الأخرى سواه.

(3) كُتِبَ في الثاني والعشرين من يونيه من عام 2023 م:

وعلى الرغم من إصرار الحياة على المعاندة في كل مرة، فإنني لا أستطيع أن أجد نفسي ضعيفًا في كل مرة، ويُخَيَّلُ إليَّ المعادلة من زاويتي وضعتها منذ زمن بعيد، منذ زمن ولَّى عن ذكرياتنا وانقضى، زمن كتبتُ فيه على نفسي أن أتنازل عن كل شيء، وأي شيء في سبيل أن أتعلم، وهي المعادلة التي لم أقوى قَطُ على إسقاط أحد

طرفيها؛ لأَنَّ المعادلة هذه لا تتألف إلا من طرف واحد، طرف واحد أكبر من مجموع أطراف أخرى عديدة، وهي تأبى أن تكون متباينة رياضية أيضًا.

لقد كنتُ، وما زلتُ، مستعدًا لبذل ذاتي جوهرًا وعرضًا في سبيل أن أتعلم، فقط في سبيل هذا السبيل؛ وعلى الرغم من صعوبة هذه المرة، فيبدو أنني ما زلتُ مُصِرًّا على نفس السبيل، تباينت طرق المثابرة، وكائنها واحدُ؛ فالعزمُ -إن شئتَ- ملَّني.. إنَّ من سخرية القدر أن أجد نفسي ساخرًا من نفسي هذه المرة؛ ربما لالتحام الأزمات كلها في لوحة باهتة مقرفة موضوعة أمامي، وكنتُ أظن الانتصار عليها ممكنًا.. والحقُ أنني إنسان أَلِفَ المشقة، لكنني لم أنتبه إلى أنني آلفت كل صنفٍ على حدة من المشقة، ما مؤداه أنني ما زلتُ غير قادر على إجادة التعامل مع صنوف الشقاء مجتمعة.

هذه هي الحياة: لطالما تفضي إلينا دروسها عن جرأة عجيبة وتأفف واشمئزاز، وما علينا سوى أن نُتقِنَ تراهاتها الساقطة في نظري. ولعلَّ في المحن منحًا، أو -إن شئت- قُل: لعل في هذه المرة ما يدفعني إلى التقاط معاني أخرى من نواحي تراهات حياتنا.

(4) لستُ بصديق الكتاب على الدوام، وإِنَّما أنا مَنْ يصادقه؛ إذ متى أبذل قصارى جهدي في استيعاب أسراره والتعمق فيها، أجده لا يحرك ساكنًا مفضلاً الكتمان والسرية في كثير من الأحيان، وذلك يعاكس ما بين الأصدقاء، مع أنني أبوحُ إليه بما لا أستطيع البوح به إلى سواه.

(5). لا يتوقع أحد أن أجيب عن سؤاله إجابة قطعية؛ لأنني رجل سؤال قبل أن أكون رجل إجابة، ورجل شك قبل أن أكون رجل يقين، ورجل تغير قبل أن أكون رجل ثبوت وسكون، ورجل لا يرى في الحياة شيئًا واحدًا غير قابل للنقد.. هناك كثير من الناس يقومون بما لا أريد القيام به، ولا أقول عدم القدرة على القيام به، أولئكَ الذين لا يتكبدون عناء البحث كثيرون، وأولئك الذين يعتقدون بأَنَّ طرحهم حقيقة مُطلقة كثيرون، وأولئك الذين عندهم لكل سؤال جواب كثيرون، وأولئكَ الذين يتعصبون لأفكارهم كثيرون، وأولئكَ الذين لا يعرفون الشك كثيرون، وأولئكَ الذين هم متفرغون لاحتقار الآخرين وأفكارهم كثيرون.

إنَّ مما تعلمته على مدار عقديْن من مكوثي بين عالم الإنسان:

التأصيل المنهجي للمعرفة دور من أدوار الفلاسفة.

التحقق من العلم واقعيًّا دور من أدوار العلماء.

بناء التعليم ووضعه في سياق مؤسسي دور من أدوار العلماء على اختلاف درجات علمهم.

إصلاح شؤون التعليم المؤسسي في المجتمعات دور يتبادله العلماء والمصلحون.

التعلم دور من أدوار الإنسان.

لا يستخفَنَّ أحدٌ بعظيم الأدوار الموكولة إلى أناس ذوي طابع معرفي ضروري، فقط علينا أن نلتمس السعي إلى التعلم باعتباره دورًا

مشتركًا بين الجنس البشري كله، والذي لا يتطلب مستوى معرفيًا معينًا لأدائه؛ ذلك لأَنَّهُ هو العنصر الأوّلي للمعرفة نفسها على اختلاف مستوياتها وأنماطها، بل هو العنصر الأوّلي المُكَوِّن لصناعة الحضارة الإنسانية نفسها، وليس فقط الصنوف المتقدمة من الناس المُشار إليهم في ثنايا تلك الكلمات.

(6) أكثرُ ما في الدنيا إيلامًا أن يُحال بين الإنسان والسبيل التي فيها يمضي؛ فتنهال سيوف الحياة واحدًا تلو الآخر دون استئذان من قبل مُعلن، أكثرُ ما في هذه المنكوبة إيلامًا أن يُحجَزُ بين القارئ الناهم والكتب، الكتب التي هي مناط المعرفة الجادة ذات الريح النورانية التي تحرك العقل وتُنير النفس، مَرضي الراهن يُحتم عليَّ أن أسوق نصيحة إلى القارئين الناهمين: إياكم أن تطرحوا الكتب جانبًا، فأحمق مَنْ ترك النور وتعلّق بالظلام.. وأخرى للذين لا يسلكون إليها سبيلاً: أيها الخاسرون، أنتم على شفا حفرة من خطر عظيم، فأفيقوا قبل أن يباغتكم الزمن وتعصف بكم الدنيا شر ما عندها.

(7) لاحظ أحد أصدقائي الازدواجية المُفرطة التي أتمثلها إذا ما سألني عن أفضل أبيات الشعر بالنسبة إليَّ؛ إذ إنَّني أقول تارة قول المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعتْ كلماتي مَنْ به صَمَمُ،

وأخرى أقول قول أبي العلاء:

تعبٌ كلها الحياة فما أعجب إلَّا مَن راغب في ازديادِ ... إنَّ حزنًا في ساعة الموتِ أضعافُ سرورٍ في ساعة الميلادِ.

أحب الأول عندما أكون في ذروة الفخر بذاتي، والثاني وقت انغماسي في التشاؤم وكل ذلك تتمثله شخصيتي؛ فأنا المُتشائم ذلك التشاؤم الذي لا يُذيبه لهيب نار ولا يحد منه ريح عاتية، وأنا الواثق بنفسي ذلك الوثوق الذي يبدو جليًّا إبان تحقيق ما إليه أرنو.

(8) كان قلمي صديقي طوال عمري، لكنه خانني أمس.

لم أفق بعدُ من صدمتي فيه، ولا أعرف كيف يكون مصير أعماق ذاتي التي نجح في اختلاسها مني! وهل هناك من صديق أوفى من قلمي؟! لا أظن، وإن كان قلمي اكتسب صفة الخيانة.. غريب! أوفى الأصدقاء خائن!

(9) طالما أتأمل أحوال الناس حين يشكو الجميع الجميع، ويحتل نفسي سؤال واحد:

بما أَنَّ الجميع يشكو، فأين يعيش السيئون في هذا العالم؟! لكنني أنتهي إلى أَنَّ العالم لا يمتلئ بالسيئين، وإنما بظواهر السيئين فحسب.

(10) وأحيانًا أحتسي فنجانًا من القهوة، ولا أرى في هذا العالم شيئًا يبعث على السعادة سواه.

(11) في كل نكبة أخوضها في الحياة أقبل خسران كل شيء يمكن تصوره، إلّا احتياجي إلى أن أتعلم.

(12) كان أحدهم يقول لي، وتكاد ذاته تملأ الأرض بسمًا من إثر الغبطة: "قصتك تستحق التدريس". صدقوني، يا أصدقائي إن علم أحدكم دقائقها، لأصابه نوعٌ نادر من الاكتئاب.

(13) إذا سألتني عشرة أسئلة، أجهل غالبًا الجواب عن خمسة، ولا أتيقن من الجواب عن أربعة، وأنسى الأخير.

(14) أنا لا أميل إلى المرأة التي تريدني سيدًا عليها، إذ يكفيني أن أكون شريك امرأة، لا شريكَ أَمة.

(15) عادةً ما أشك في أنني إنسان ذكي، لكنني لا أشك في أنني لستُ غبيًا.

(16) إنَّ أكره شيءٍ إليَّ هو ما عليه أكثر الناس: تبنيهم أمورًا كبرى عن غير دراسة، وامتلاكهم عقولاً لا تقوى على الحكم، وحبهم اللهو الكثير، وانشغالهم بما لا أعدّه غير سفه وتفاهة، وشجارهم على أمورٍ هي - في الأصل - محل نزاع طويل أعمق بين كبرى عقليات الإنسانية.

(17) إنَّ من جملة ما أصابني بصدمة في هذا العالم أن أجد أستاذًا جامعيًّا لا يستطيع أن يفرق بين المنهج العلمي والمنهج الديني، ولا يتمكن من ضرب الفصل بينهما في محاضرة يُلقيها على طلابه في مكانٍ حيث لا اعتناء بما يعتقد من دين أو نحوه، إنَّ أيّ طالب علمٍ

جاد، أو أدنى من ذلك قليلاً، يعلم بأَنَّ المناهج النسقية المعرفية ضرورة تتباين بين العلم والدين، وأنه لمن الأسف أن يكون من حملة رسالة الدكتوراه أن يجهل ذلك من حيثُ كونه أستاذًا في الجامعة، لا الجامع.

(18) والحق أنني أوثر عمق العلاقات، وإن كان نادرًا على سطحيتها وإن كانت كثيرة.

(19) أهم درس تعلمته إلى الآن أن أُقر بجهلي؛ فأنصت إلى مَنْ يعرف ما لا أعرف، وأتوقف فيما لا أعرف، وأتجاهل مَن يتحدث فيما لا يعرف.. ليسَ في عمر الإنسان وقتٌ يهدره في زعم المعرفة بالجهالة، وليس فيه متسع أن يستنكف أن يتعلم، وليس ثمّة واقع من ضرورة أن يبني المرء رأيًّا في أي شيء.

(20) كلما أتعلم، أكتشف أنني لم أتعلم قَط.

(21) التفاؤل والتشاؤم.. الإيجابية والسلبية.. السعادة والتعاسة.. كلها عندي ألفاظ خالية من المعنى الدقيق الذي يصلح عنده البحث المجرد.

(22) إنني لا أعرف لماذا الإنسان هنا على وجه التحقيق، لكنني أُقصي التلهي واللعب من المعادلة.

(23) أنا إنسان عنيد، وإنسان عزيز النفس، وويلٌ لمَن يضطرني إلى إظهار منتهى هاتين السمتين معًا، إذ أعدّهما جوهر ذاتي الإنسانية.

(24) والحقُ أنني رقيقٌ مع العالم بأسره إلّا مع ذاتي.

(25) ما قرأتُ كتابًا قط له تأثير عظيم في حياتي، إلّا أثار في نفسي شيئًا من آيات الغضب أو الحيرة.

(26) لقد أرغمتني الحياة في غير مرة على التوقف عن القراءة، وقدرتُ على الحياة حينها، لكنني لم أقوى قَطُ على العيش بدون كتابة، وإن كانَ للحياة يدُ إرغام.. لا حُرِمْتُ أفضالَكَ أيها القلم الصديق! ليست الكتابة بأداة تعبير، بل هي وسيلةُ حياة.

(27) كلما تعمقَ فهمي لمشكلات الإنسان وقضاياه، علمتُ بأَنَّ سبعة أعشار مشكلاته تستحق تساؤلات حول إذا ما كانت مشكلات حقًا أم أشباه مشكلات، وعلمتُ بأَنَّ عُشرَ مشكلاته يقتسمه آل الفلسفة والعلم، وبأَنَّ العُشريْنِ الآخرين يبدوان بسبب الخوف من المجهول.

(28) الكتب -في الأصل- أفضل من الناس، مع أَنَّها تنبثق عن عالمهم وتتولد عنه ضرورةً.

(29) إنني أتعلم دائمًا، غير أنَّ أهم درس تعلمته هو أنني جاهل، ولقد تلقيتُ هذا الدرس وحلقي ملآن بالغصص؛ لأنني علمتُ أَنَّني كلما تعلمت، ازداد يقيني بأني حقًا جاهل.

(30) أحبني وأنا غاضب! إذ أسلك مسلك الأطفال: أُخاصم العالم، واضعًا ذاتي في كثافةٍ عجيبة تحت وسادة صغيرة الحجم داخل حجرتي، ويعتريني اليقين بأَنَّ العالم كله سيُبادر بإيقاف

خصامي الطفولي الهزلي هذا، وأنتَ لا تعلم حين اكتشافي أَنَّ العالم كله لا يعلم بأني خاصمته! إنني لا أعرف حينها التمييز بين الضدين؛ هل أُنهي خصامي هذا لطول انتظار الصلح، أم أزعم بأنني لم أعلن الخصام قط!

(31) إِنَّ أكثر الأحلام عصيًّا على التحقيق أكثرها إليَّ حاجةً، وهو أنني أريدُ أن أتحدث إلى إنسان من هذا العالم، إنسان واحد فقط أستطيع معه أن أتكلم ويكأنني أفضي إليه صدى ذاتي.

(32) إِنَّ لي عالمًا خاصًا.. عالمًا من غير هذا العالم كوّنته في هذا العالم.. عالمًا أقف منه موقف الإجلال والإكبار والألفة والوئام.. عالمًا لا أودُ أن يتركني أو أتركه.. عالمًا يقع داخل نفسي وأقع داخله.

(33) وإن أصبحتُ أستاذًا يومًا ما، فدوري الجوهري سوف يقتصر على تعليم طلابي كيف ينتقدونني وما أعلمهم إيّاه بحدة وصرامة منهجية، وإلّا فقيمتي تكمن في عدد من الأوراق التي أتقاضاها، أوراق اتفق عليها الجنس البشري لاستخدامها الضمني في التبادل التجاري.

(34) وكلما يتقدم بي العمر، أستصغرُ أمورًا كنتُ بالأمسِ القريبِ أستعظِمُ! تُرى هل تلكمُ من آياتِ النضجِ أم التطيشِ؟!

(35) والحمد لله الذي ركب فيَّ جسدًا فاسدًا في عقل ما زال ينضب بالحيوية.. ونفس ما زالت تحتفظ بالسخرية.. ولسان يداعب الدنيا بدعابة صفراء، أو ربما توشك أن تكون كذلك.

(36) لا أخاف أحدًا من البشر إلا الفظ الغليظ؛ فللسطحية العقلية دواء، أما الغلظة فلا أظن.

(37) أنا لا أقرأ لأعلم، إنما أقرأ لأُعمق معرفتي بأني لا أعلم.

(38) لا أرى نفسي الأفضل، بل لا أرغب في أن أكون كذلك! يكفيني أن أكون الأفضل من نسختي، والتي على إثرها يتجدد ويتضح معنى الأفضلية، يكفيني أن أتعلم باستمرار، وأخلص للتعلم.. يكفيني ألّا أؤذي أحدًا، وأن أساهم في الحد من ألم الآخرين، لا الإسهام في تعميقه.. يكفيني أن أرجو للإنسانية الخير، وألّا أُساهم فيما هو دون ذلك.

(39) إذا كنتَ باحثًا في مجال معين، فعُدَ نفسك لي قدوةً؛ فالقدوة عندي لا شخص لها، ولا مكان لها، ولا تمثيل لها غير البحث.

(40) كم هو من الجميل بمكان أن ترتبط ذاتي بذوات إنسانية لا أعرف عنها سوى تراثها المُدون؛ فلم يتسنَ لي سماع أصواتهم أو ملامسة أيديهم! وكم هو من الجميل بمكان أن ترتبط ذاتي بآخرين بعيدين عن موطن مكوثي الجسدي حيث يتشكل لنفسي بعض المكنون المادي، غير أني لا ألحظ في نفوسهم من الماديات سوى أصواتهم! وكم هو من الجميل بمكان أن أمكث وحيدًا؛ لألحظ ما أقوى على ملاحظته من جوانب الإنسان الجوهرية، لا السطحية الظاهرية.

(41) معشر الإنسان، عشتُ بين أعضائك ما يربو على عقدين من الدهر، فوجدتُ شجاراتك على زعوماتك الكثيرة، ولما أن قررتُ

أفحص مناهج الإدعاءات، وجدتُ قلةً من البشرية مهتمين بالمناهج حقا! فبِتُّ أسأل: لماذا الشجارات أصلاً؟ ألهذا مدلول سوى الحمق؟

(42) لا أدافع عن الأفكار التي أتبناها، ولا أهاجم التي أعارضها، إنما أنا إنسان يعي أنَّ الذي لا تتغير أفكاره يقع بين أحد أمرين: إما الحُمق وإمّا الموت.. إنَّ الذي أتبناه لموقوتٌ عندي ضرورةً، والذي لا أتبناه موقوتٌ كذلك.. وما لا أستطيع تبنّيه ودحضه سويًّا أعظم من الاثنين مجتمعين؛ فإن دافعتُ عن شيءٍ موقوت حتى الاستماتة، لغطيت دفائن نفسي عن الدليل والبرهان والحجة، وإن عارضتُ فكرةً حتى الاستماتة أو أقرب إليها، لغطيت نفسي عن الدليل والبرهان والحجة.. إنَّ أكره ما يفعله الإنسان على مر التاريخ هو المُناظَرة والمُحاججة؛ فلو أدرك الإنسان أَنَّ حججه موقوتة بمعطياته، لأراح واستراح.

(43) أهم درس تعلمته في حياتي أن أقر بكل وضوح وأقول: "لا أعرف" في أي مسألة لا أعرف عنها شيئًا، وتلك مسائل لا تُحصى حقيقةً.. ثاني أهم درس تعلمته في حياتي: أن أشك في عمق معرفتي بالأمور التي أعرف عنها شيئًا، فأُقر بوضوح وأقول: هذا ما أعرف حتى الآن، وقد أكون على خطأ كامل، ثالث أهم درس تعلمته في حياتي: أن أبتعد عن أيّ إنسان لم يتعلم الدرسين بعد.

(44) لا أعرف الكثير في الحياة، وقد لا أعرف القليل أيضًا.

(45) عشتُ بين الإنسانية ما يربو على عقدين من الدهر، لكنني ما وجدت فيها رفيقًا سوى الكتاب، وأحن على النفس من وردة، وأنيسًا يعين النفس على الحياة من سؤال يُرجى من طرحه بلوغ إجابة.

(46) نتعثر كما يتعثر الناس وأشد منهم في كثير من نواحي الحياة! يُصيبنا الإحباط عميقًا، واليأس كذلك، إلى جانب عظيم الكآبة.. لكننا مع كل ذلك لا ننسى ضرورة وعظم غايتنا الكلية التي يحول بينها منوط تلك المآزق والمتاعب والمصاعب ونحوه. لا نريد الحياة سهلة، لكننا كنا نرغبها أدنى صعوبة، ومع ذلك، فلا يكون ما تقدم من تغايرات في مضامين المُضي في الحياة والتعاطي معها عونًا لنا على تناسي ما نرغبه فعلاً!

(47) تعلمتُ من أحوالي في الحياة أَنَّ كل الناس يتعثرون، وذلك قانون من قوانين الحياة لا مجال لتفصيله، لكن الأهم من إدراك التعثر والوعي بضروريته القانونية في الحياة هو الحفاظ على ما لا يجعل لهذا القانون سيطرة عميقة على مساعي الإنسان.

(48) نحتاج إلى أن نستسلم، لكننا لا نرغب وإن أردنا، فشيءٌ في دفائن نفسنا يمنعنا.. نعم، إنَّ عزة نفسنا وكبريائنا يحولُ.

(49) كانَ الماضي قاسيًّا فتحمّلناه، أو -إن شئت- قُل: تجاوزناه، وضربنا على كثيرٍ منه عددًا من الانتصارات، ما في جوهرها تصرخ بعظيم قدرتنا على امتلاك الحياة امتلاكًا، ونزوعنا نحو تبجيل كبريائنا الذي أخذناه عن الحياة أخذًا، وميلنا إلى قولبة الحياة قولبة السخرية والسخافة.. أما الحاضر، فهو أشد قسوة على نفسنا، وأجدر أن يبارك

حياتنا باللعنة، وأبعث على الثخن فيها، غير أَنَّ الاحتفاظ بجوهر ذاتنا ما زال يُزاحم الحياة ومآسيها؛ ويكأنَّ النفس قد أَلِفَت ذلك القالب الماضوي، القريب منه والبعيد. أما عن المستقبل، فيبدو أَنَّ طبيعته سوف تلتزم الزيادة المعهودة في الغِلظة كذلك، كما كان الماضي والحاضر، ونرجو أن تقوى أعماق ذاتنا على الاحتفاظ بنفسها حينئذٍ، وما تشتمل عليه من أنفة.

(50) شيءٌ مَهيب أن أستعد لزيارة "رامتان"، منزل ومتحف أستاذي الكبير الدكتور طه حسين، بإعادة قراءة كتاب "معك" بقلم زوجته السيدة سوزان، لا بإعادة قراءة سيرته الذاتية: كتاب الأيام!

قد أرى في ذلك صنفًا من إعادة قراءة مَنظور مَنْ أخذَتْ بتلابيب حياته، وأكبرت إلّا أن تأخذ بيديه عن هذا العالم المُظلم غير المرئي له، وآمنت بأنوار عقله على ما أصابها من معارضات في سبيل التماسه زوجًا، أو -إن شئتَ- قُل شريكًا للحياة. لعلَ في قراءة هذا المنظور لوئامًا مع الرجل عينه؛ فمعلومٌ عندي كم بذلَ في حياته الكثير، واطلخَمَّ نضالُهُ في الدنيا، وبورِكَ ذكرُه ضمير الساحة الأدبية والفكرية! معلومٌ عندي جمعُهُ بين الإلمام المتفحص للقديم ووضعه في مساحة، واختباره الحداثة ووضعه في مساحة، والجمع بين العروبة التراثية الأصيلة ومساعيه نحو الوعي بحضارة الغربيين من نظرٍ في شأن كبارهم ووضع ذلك الجمع في مساحة. كذا، معلومٌ عندي اعتداده بالمؤثرين البارزين من مفكري هذا الجنس البشري ومجدديه وواضعي مناهجَ منضبطة، بغض النظر عن جغرافيا منشأهم؛ فاهتم

باليونانيين وأخذ منهم وكتب فيهم، وتأثر بالمتنبي وأبي العلاء وابن خلدون ومسكَ في أمورهم قلمًا، وكتب كذلك في شأن بعض المحاور الإسلامية، وراح يبحث في شأن بعض الفرنسيين وناشد ببعضِ ما لامس عقله عنهم! ومع ذلك، فإنَّ قراءتَكَ لمَن تعرف عنه أمورَ حياته، وعمق مساعيه، ومشاركة ضميره، لمن أبرك وألذ ما يمكن أن يتوجه به المرء في هذا المحل؛ كي يستعد للقاء ما كان ماديًّا من حياته، بإعادة قراءة "معك".

(51) في العشرين من ديسمبر من عام 2022: زيارة مهيبة، أو - إن شئتَ- قُل: المضيف مُهيب!

لعلَ قدميَّ اليوم لامست أحد آثار قدميه! وعسى يداي لامست شيئًا من نَفَسِه وريحه! وربما لاحظت عينايَّ المقفولتان شيئًا لم أحسه من جملة ما للرجل من أمتعة مادية مرئية! دخلتُ غرفة نومه، ولمستُ كرسيَّهُ بيديَّ، وتحسستُ فراشه..

إلى الأستاذ الأديب الكبير، أحد أهم المفكرين العرب في القرن العشرين، إن لم يكن الأهم مطلقًا، عميد الأدب العربي، صاحب "التعليم كالماء والهواء" قاهر الظلام، الدكتور طه حسين أشير.

تشرفتُ بزيارة بيتكم ومتحفكم الثقافي اليوم، سيدي ولستُ أعلم مَنْ أنا فيكم، كي أقدم على هذه الخطوة! لعلّني كنتُ ضيفًا غير ثقيل عليكم، أستاذي الكريم! لكنني رغبتُ في أن أختتم هذا العام بالاحتفال الذي لا أوفيه حقه بزيارتكم، وددتُ اختتام العام باحتفال، ليس هو بانتهاء عام وقدوم آخر، وإنما بميلاد عقل عربي

ثمين، ما زال أثره حيًّا في نفسي. لعلَّ زيارتي اليوم أسعدتكم، كما أسعدتني. أستاذي العظيم، وددتُ لو أتتلمذ تحت يديكم، لكنكم تعرفون أن ليس كل الطلاب يقابلون معلميهم!

(52) يعبر كثير منهم عن حبهم روح دعابتي، أو -إن شئتَ- قُل: سخريتي.. قُل ذلك ما انتهيتُ إليه من رفع للتكلف بين الإنسان والحياة عامة، ورفع للتكلف بينه وبين أقرانه كذلك.

(53) إنَّ حق كل إنسان تربطه بي علاقة، سطحية كانت أم عميقة، أن أحجب عنه الأذى والألم والحزن ونحو ذلك؛ بحيث أبذل أقصى جهدي في محو آثار ما تسبب في تكوينها غيري، لكن ليس من مسؤولياتي، أو مما أستطيع ضرب الضمان فيه، أن أُدخِل عليه السعادة والغبطة ونحوهما. إنَّ حق البشر عليَّ يكمن في تخلية حيواتهم من الشعور بالأذى والألم ونحوهما، وذلك أمرٌ أضمنه لجميع علاقاتي المحدودة؛ ذلك لأنني أعتني بشعورهم حين أزماتهم، وإن كان صنفُ أزماتهم ينتمي إلى عالم الإنسان نفسه ليخلقها غيري خلقا. وأحاول أن أُدخِلَ السعادة والغبطة على نفوسهم، غير أَنني لا أضمن نجاحي الدائم مع كل علاقاتي المحدودة؛ ذلك لتعقد التركيب الإنساني: من سياق اجتماعي بيئي، ومستوى عقلي إدراكي، ورؤى كليّة للحياة، وتقييم للتجربة الشخصية، وتباين في الأعراض الثقافية داخل الثقافات البشرية والثقافات المتباينة داخل الثقافة الواحدة، وعوامل أخرى جزئية يتوقف عليها هذا الدور ويرتكز، وليس كلُ الأمر موقوفًا على مكنوني الذاتي.

(54) إنَّني لا أخاف الموت، بل لا أجد في نفسي حرجًا من تضييفه عند مجيئه، لكنني دائمًا أخشى المرض؛ فإنَّهُ ألمٌ للجسد، وعلقم للشعور، وعادةً ما يكون عقبة في تطور العقل ونموه.. الموتُ إيذانٌ بفناء حياة الإنسان، أمّا المرض فإعلان عن توقف حياة الإنسان قليلاً أو كثيرًا بدرجات متفاوتة.

(55) ما قرأتُ كتابًا في حياتي إلّا حصلتُ منه فائدة؛ حتى الكتب التافهة التي سطّرها مؤلفون ذو عقول سطحية، أضافت إلى عقلي صورًا أخرى للتفاهة والسطحية، ما كنتُ أدركها لولا تفاهة التافهين.

(56) إذا مَيزَّتُ امرأة على سائر النسوة، وذلك صعب لا حد لمنتهى تعقيده، فسوف أعلن تمييزي إيّاها على مرأى ومسمع أكبر عدد من التجمعات البشرية، لأَنَّ هذا التمييز هو عين الحب.

(57) إذا جرحتني وقُمت بإيذائي عن غير قصد، فلك مني تفهم الظروف التي أرغمتك على ذلك، وإذا جرحتني وقُمت بإيذائي عن عمد، فلك مني تفهم الظروف التي جعلت لك قوة ورغبة في إيذائي، ليس هناك داعٍ حقيقي للكره والبغض؛ إنما عقول البشر وسلوكياتهم تدور في فلكٍ ينبغي على المستوعب محاولة التقاطه.. لا تهدروا طاقاتكم الذهنية والشعورية في البغض؛ إذا لم تستطيعوا الحب في كل حالات علاقاتكم، فحسبكم العزوف والتخلي عنها، ونفوسكم ملآنة بالصفاء والرحمة، وعقولكم يغمرها الانشغال بالثمين في هذه الحياة.

(58) لقد اعتدتُ ألّا أحتقر أحدًا؛ فكلٌ صنيعة ظروفه، وكل الظروف مقبولة إدراكًا ما لم تخرج عن دائرة الفاهمة البشرية.

(59) باستقراء حياتي الغابرة، يمكن القول بأَنَّ كلَ تحدي فيها يتأتى على تدرج من الحدة؛ فتحديات أول أمس تقف من القسوة موقف الطفولة بالقياس إلى أمس، واليوم من أمس موقف التنين ولا شك عندي بأَنَّ اليوم بالقياس إلى الغد لا يُذكَر.

(60) تعلمتُ من الحياة، أو -إن شئتَ- قُل علّمتني الحياة، بأَنَّ الحكم على النكبات لا بد له من قياس؛ فمَنْ يحكم على نكبته بأَنَّها عُظمى النكبات مطلقًا، فذلك عين الخبل.

(61) ويبدو أَنَّ خواطري لا يجب أن تدور إلَّا في خاطري.

(62) أحلك أوقاتي ظلامًا تلك التي لا أجدُ في ثناياها أحدًا يعي جيدًا ما أطرح سوى الموتى، الذين لا يربطني بهم غير إرثهم، وهنا تصح العزلة.

(63) ثلاثٌ لا أستطيع الاستغناء عنها: القراءة والموسيقى والقهوة.

(64) قبل استئصال عيني اليُمنى في منتصف عام 2021، كنتُ أتداوى عند الأستاذة الدكتورة أسماء أشرف، وهي طبيبة تعمل بقسم الرمد في مستشفى الجوي التخصصي، وكانَتْ هذه الطبيبة من أفضل الأطباء الذين عندهم تداويت، إذ فاق دورها الأمر الطبي اللازم؛ فكانت تتحدث معي في أمور محض شخصية في خضم دورها الطبي

المعهود، كانَتْ إذا أجرت لي جلسات ليزر في محاولات جادة لتخفيض ضغط العين، تُسامرني في أمور الثقافة، وكانتْ صَديقتُنا إذا سألتني عن أفضل أبيات الشعر العربي عندي، ذكرتُ لها صاحب الرسالة، أي رسالة الغفران، فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة رهين المحبسين أبو العلاء المعري قوله:

تعبٌ كلها الحياة فما أعجب إِلَّا مَنْ راغب في ازديادِ ... إِنَّ حزنًا في ساعة الموتِ أضعافُ سرورٍ في ساعةِ الميلادِ.

وكنتُ أقولُ لها بأَنني أحبُ المتنبي قولَه بيتَ شعر له لإجماله فيه الكثير، إذ قال:

ذو العقلِ يشقى في النعيمِ بعقلِه ... وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

ومِن حينها وهي تناديني بالشاب الكئيب.

عزيزي الطبيب/عزيزتي الطبيبة، إنَّ الطب لا يتألف من دواء وطبيب ومريض ومال يُتقاضى لإتمام هذه العملية الحياتية، بل هو - في جوهره - محاولة التخفيف من حدة آلام الإنسان قدر الإمكان؛ فلا تجعل عملَكَ مقصورًا على ما يتألف منه الطب من أمور محض عملية.. كنتُ أعاني معاناة حقيقية من آلام عظيمة داخلية عميقة في العين، كانت حدة الألم تنجرف إلى حيث أتى قليلاً حين تواسيني صديقتُنا الدكتورة أثناء جلسات الليزر الطبية التي لم تؤثر في الشفاء إلى أن أجريتُ الجراحة الكُبرى، كنتُ ساعتَها أشعرُ بضياع حياتي؛ فكنتُ متحسسًا تحسسًا شديدًا من الصوت بشتى ألوانه، ما أدى إلى

خلق عالم من الإعاقات بيني وبين عالم القراءة بأكمله، كنتُ أخشى أَلَّا أقدرُ على القراءة تارة أخرى، كنتُ أستغيثُ ببعض الشعر الذي أحفظه وأتسلى به عن القراءة، ولولا أن ساهمت صديقتُنا بدور محض إنساني إلى جانب ما كانَ طبيًّا، لكنتُ من الذينَ لا يتعافون بسهولة نتيجة لما تركه المرض في نفسي من وجع.

عزيزي الطبيب/عزيزتي الطبيبة، هناك لذة عارمة تنجم عن اعتناء الطبيب بمريضه، فانتبه.

(65) وما استمتعتُ بشيءٍ في الحياة استمتاعي بالسخرية من الحياة نفسها؛ فاسخروا أيها السادة؛ عساكم تسعدون بما به أسعد.

(66) كنتُ في القديم أحسِبُ إنَّ انحدار التعاطي مع طبيعة المكفوفين ناجم عن عدم وعي بهذا العالم الذي يحمل في طياته عوالم عديدة. لكنني الآن لا أعتقد في مسألة ضياع الوعي هذه؛ إذ القضية تتصل اتصالاً عظيمًا بالتعامل مع الآخر فضلاً عن درجات الوعي. وعليه: فإنَّ مجتمعَنا مثل سائر المجتمعات يشترك في التعجب من الآخر المختلف وكيفية التعامل معه، لكنَّهُ يشذُّ بتأخره العقلي الحضاري عن استعداده لفهم الآخر. إنَّها قضية لا تنعزل عن واقعنا المؤسف العام؛ فكلما ازداد العقل الجمعي انغلاقًا على نفسه، وتخلفًا في جوانب الحضارة، ولعنًا للمخالف والاحتماء بالمشابه، كان ذلك أوقع أن يجعل الاستعداد أضعف وأقل متانة وصلابة. القضية ليست بقضية وعي بدرجاته، بل هي قضية استعداد لتلقي الوعي نفسه، وثمة فرق.

(67) ولقدْ كتبتُ بقلمي الخيال، وبعقلي التأمل، وبعزتي الكرامة، وبقلبي الحب، وبنفسي السخرية، كلَّ شيء كتبتُ حتى رأيتُني أنا الأخر مكتوبًا.

(68) ولا أقول إنَّ العربية بالضاد تميّزت، بل إنَّ الضاد بالعربية تميزَ.

(69) أنا أُعادي ثلاثًا: الازدحام والسطحية والألقاب.

(70) لستُ مِمَن يحب المزح؛ ليس لأنني لا أعرف كيف أمزح، وإنما لأنني لا أعرف ما يستحق المزح أصلاً.

(71) وإذا سألتني عشرة أسئلة، غالبًا ما أجهل الجواب عن خمسة، وأتشكك في أربعة، ولا أذكر الأخير.

(72) إنَّ أولئك الذين تعرّفوا على ملمح من حياتي، فعاشوا مرحلة من مراحلها إلى جانبي، أو أفضت إليهم حديثًا شفهيًا عن ذاتي، أو تمثّلوا احتواء بعض مشاعري لقربهم منها، أو علموا نقطة من نقاط عميقة أرنو إليها أو أحياها أو عرفوا ذاتي عن بعد، وأخبروني بأَنَّ قصتي تستحق التدريس، لا يعرفون نقطةً مفصلية من هذه الحياة البئيسة، وهي: أَنَّ كل مرة تواجهني فيها الحياة، أفقد ذاتي كلها إلا فضولي.. بلى، إنَّ ذاتي -في الأصل- ذاتُ شقاء، لكنها لا تقوى على تجاوز الشقاء إلا بقدر ما حوت من فضول محموم ضارب بجذوره في أعماقها.. الحقُ أنني لا شيء، لا قيمة، لا فكرة، لا جسد، لا راحة أو

أزمة، لا سمة أو خصيصة، الحقُ أنني لا أستطيع أن أفضي إليكَ شيئًا قدر الفضول؛ لأنَّ هذا ما أتيقن من احتوائه ذاتي.

(73) كُتِبَ في الخامس من أغسطس من عام 2022 ميلاديًا، إجابة عن سؤال زميل: لماذا لا تتحدث إلا قليلاً؟

كنتُ في الثانوية المدرسية لا أتحدث بغير الصمت، وازداد تحدثي بالصمت في الجامعة، ليحتل بذلك نفسي في المجالس الأكاديمية والاجتماعية؛ فلا أستجيب إلى الكلام إلّا عند الحاجة. إنَّني إذا تحدثتُ، وأسهبتُ في الحديث، فلا أقوى على إدلاء الرأي بغير منهج موضوعي لا انحيازي. وإنَّني إذا تحدثت في غير إسهاب، فسأدلي برأي لا يقوى معظم الناس على استيعابه استيعابًا مجردًا؛ ذلك لأنَّ أكثر الناس لا يعون لغة المناهج الاستدلالية الجافة، فكيفَ يُطلَبُ مني أن أحادثهم بما هو عندهم واقع غير قابل للتأصيل المنهجي. وأنا في عامي الحادي والعشرين، أعبر عن حزني العميق؛ إذ لم أكتشف إنَّ القاعدة العريضة من البشر لا منهجيون، بل يخضعون في أفكارهم وسلوكياتهم إلى أساليب عديدة، كلها خارجة عن مدار تفكيرهم الذاتي. اكتشفتُ تدريجيًّا أَنَّ القاعدة العريضة من البشر لا يهتمون في أحكامهم على الأفكار، إيجابًا أو سلبًا، بالتأصيل المنهجي. وحتى لا أحيد عن قضايا مجتمعنا، من السهل أن تسأل الدعاة إلى العلمانية أو رافضيها عن إذا ما اطلعوا على التأصيلات الفلسفية المنهجية لها؛ لتكتشفَ أَنَّ تبنيها أو رفضها وازعه الوسط الاجتماعي مع بعض الرؤى السطحية غير المنهجية لها. اكتشفتُ تدريجيًّا أَنَّ المسلم العربي

واللاديني الصيني والمسيحي الأمريكي ليسوا مختلفين إلى هذا الحد المعهود؛ إذ معظمهم يتبنى اعتقادًا في الوجود عن تلقين والديه ومجتمعه، وأغلبهم لا يستطيعون تأصيل أفكارهم الوجودية. اكتشفتُ تدريجيًّا أَنَّ التأصيل المنهجي، تحديدًّا في عالم الأفكار، ليسَ مطلوبًا من معظم البشر، بل يُعَدُ صاحبه غريبًا، أو -إن شئتَ- قل شاذًا بينهم. اكتشفتُ تدريجيًّا أن قولة أحد زملائي لي "خاطب الناس على قدر عقولهم" قولة صحيحة، لكنها صادمة لي بعض الشيء؛ لأَنَّني أعي أنَّ الإدراكات البشرية متفاوتة، لكنني ما كنتُ أعتقد بأَنَّها غير منهجية. اكتشفتُ تدريجيًّا أَنَّ الثقافة الجمعية لكل مجتمع بشري توجّه تفكير الفرد في اتجاهات سياقية معينة، أو -إن شئتَ- قُل تشل من تفكيره، والخواص فقط مَنْ يستطيعون التفكير المنهجي الذي يجعل من ثقافات مجتمعاتهم محل استيعاب لا قيود فكرية. اكتشفتُ تدريجيًّا الكثير، لذا أنا لا أحب الكلام، وأوثر العزلة الذاتية؛ حيث القراءة لمَنْ يُعَدُ في البشر خواصًا.

(74). ربما كان مفهوم القدوة أحد أهم المفاهيم التي ألحظ تغيّرها في حياتي من باب نظري محض وعملي كذلك.. لَما أن كنتُ طفلاً، كانت تشوبني حالة من القلق عند سؤالي: مَنْ قدوتُكَ؟ عرفتُ في الإعدادية تقريبًا السبب الدقيق من ذلك القلق، وهو أَنَّني لا أعرف أصلاً ماذا يقصد الناس بدقة من هذه اللفظة؛ فإذا كان المقصود الرغبة في المماثلة، فهل هناك إنسان يشبه الأخر إلى حد المماثلة؟ وإذا كان المقصود الاحترام، فهل الشخصية التي أذكرها وحدها

تستحق الاحترام؟ لا أعرف، لكن يبدو أنَّني لم أتفاعل مع هذه اللفظة نظريًا، وامتنعتُ عن التساؤل عن مقصودها الاجتماعي؛ إذ ما وجدتُ أحدًا مِن أقراني يتساءل عن هذا الصدد، ما جعلني أتيقن بأنَّ المشكلة عندي.

أعتقد أنَّ قدوتي في الإبتدائية تمحورت حول الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين، ولا أعرف حينها سببًا حثّني على اعتبار الرجل قدوة غير إشارة الناس إلى اسمه بتبجيل، مما جعلني أستحسنه قدوة ساعتها، وفي بعض السياقات كنتُ أُشبَه به من قِبَل بعض الناس، الأمر الذي بثَّ في نفسي فخرًا بالرجل على إثر التشبيه.. عندما أخذتُ أقرأ الدكتور طه خلال الإعدادية، والثانوية تحديدًا، عرفتُ الرجل حقًا من أعماله وتشكل احترامي له عن وعي حقيقي، وانتفى عندي ما كانوا يشبهونني به؛ لأنَّني أدركتُ أنَّ هناك صورتين للدكتور طه حسين: صورة شعبية وصورة أكاديمية.

في المرحلة الثانوية تحديدًا، أُتيح لي أدوات جعلتني قارئًا ناهمًا حينها، وزاد النهم لتطور الأدوات نفسها.. ربما حينها أضفتُ إلى ما يُطلَق عليه القدوة الأديب الروسي فيودور دوستويفسكي، بالإضافة إلى الدكتور طه حسين، ورأيتُ أنَّ هذا الرجل ليس أديبًا في المقام الأول، بل هو أحد علماء النفس الإنسانية الذين يغوصون في أعماق الإنسان. وأضفتُ أيضًا كبير الفلاسفة وفيلسوف السلام الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط، تحديدًا بعد أن قرأت كتابه المهم "نقد العقل المحض" دون أن أفهم معظمه، وأعتقد أنَّ هذا الوقت جعلني أعاني

عظيم المعاناة؛ فإنني تعرفتُ على المعاناة البدنية والنفسية والمالية والاجتماعية، لكن لم أقف قط من مقروئ قبل هذا الكتاب دون أن أتيقن من فهمه، أو بمعنى أدق دون أن أتيقن من تكوين فهم ما تجاهه، ربما هدأ شعوري بالخزي والألم والغضب بعد أن علمت أَنَّ المجتمع الفلسفي يعتبر "نقد العقل المحض" من بين أهم الكتب الفلسفية في تاريخ الفلسفة، في هذه اللحظة اكتسبتُ قيمة شخصية تتعلق بمسألة القدوة، وهي أَنَّني أجعل من مؤلفين محددين قدوة عند تحقق أمرين، أحدهما صعوبة الفهم عند القراءة لهم، وثانيهما تقديم رؤى جديدة لم أكن أعرفها.

إذا أضفتُ إلى قائمة القدوة هذه من زمن منتصف الصف الثاني الثانوي إلى هذه اللحظة، فربما أُضيف عددًا كبيرًا؛ ذلك لأَنَّني اكتشفتُ منذ ما يقرب من عامين أَنَّ فهمي القدوة ليس منضبطًا، بل لا أبالغ إذا ما أقررت باستشعار الحمق إلى حد ما.. اكتشفتُ أَنَّ القدوة عندي ليس الذين أقف منهم موقف التبجيل، وليس الذين يلفتون نظري إلى ما لا أعرفه أو ما لا أنتبه إليه، اكتشفتُ سبب القلق الذي جعلني أرتاب أثناء طفولتي المبكرة والمتأخرة، اكتشفتُ أَنَّ المشكلة تتمثل في صيغة السؤال؛ فالناس يسألون بأداة الاستفهام "مَنْ" فيريدون إجابة تتمثل في شخصية معروفة لها تأثيرها المحلي أو الإقليمي أو الإنساني، وأنا كنتُ أتمنى أن يسألوني بالأداة "ما" لأقصي الكينون الشخصي من الإجابة، وأستبدل الأشخاص بقيم أكثر شمولية، إذ إِنَّ تقديم الشخصيات قد يؤثر بالسلب على القيم الكلية، لا سيما إذا كان محدودية الشخص في التعرف على الشخصيات

الإنسانية أمرًا لازمًا بالضرورة، وهم أيضًا سألوا بالمفرد فقالوا: مَنْ قدوتك؟ ولم يقولوا مَنْ قدواتك؟ وهذه مشكلة تنبثق عن الأولى.

وفي هذا المحل، ليس عندي إجابة منذ وقتٍ عن سؤال "مَنْ قدوتك؟" لكن عندي إجابة عن سؤال "ما أنفس ما في حياة الإنسان، وهي على النحو التالي:

أولاً البحث: وأعني أوليات الكلمة من رغبة في البحث وسعي إليه. بالإضافة إلى ذلك، البحث الذي يؤدي إلى نقد منهج موجود بين البشر أو بناء آخر، أو البحث الذي يجري في نطاق منهج معين.. وهنا فلا يعنيني مجال البحث؛ فكل مجال ينشأ بين البشر يحتاجون إليه بالضرورة.

ثانيًا الفلسفة والمنطق والرياضيات: وذلك لأَنَّ الثلاثة تتداخل مع دواخل كل منها في سياقات معينة كتداخل الفلسفة مع المنطق والرياضيات في فلسفة التحليل، وتداخل المنطق والرياضيات في الرياضيات البحتة، بالإضافة إلى تداخل المنطق مع الفلسفة بالضرورة، إضافة إلى ذلك يمثل الثلاثة عصب الإنسانية، لاشتمال المنطق والرياضيات على بعض المناهج الفكرية الأولية، وتأثير الفلسفة في بناء مناهج كاملة من أمثال المنهج العلمي وتأثيرها في المجتمعات البشرية على نحو جماعي، وذلك عن طريق تغلغل تطبيقات الفلسفة العملية فيها.

ثالثًا الكتابة: وأعني الكتابة بشتى صنوفها: كتابة الخواطر.. كتابة المقال.. كتابة الأدب.. كتابة الفلسفة.. كتابة البحوث العلمية..

إلخ، غير أَن أقيم صنوف الكتابة قاتبة هي الكتابة التي تقدم ما كان ناتجًا عن منهج دقيق.

وإذا كان من الأهمية بمكان الإجابة على نحو يحوي شخصيات، فكل مَن يمتلك نزوعًا نحو البحث هم لي قدوة.

(75). ولم أعد أرغب في نقاش أحد، بل لم أعد مهتمًّا بأن أجادل الأحياء؛ فحسبي مصاحبة الموتى، وقراءة أعمالهم، والإلمام الكامل بفهمها، والتماس مقاربات بين رؤى كبار الإنسانية، لم يعد يهمني كثيرًا أن أنافح عن رأيي، الذي عادةً ما يخرج عن مدار العقل الجمعي وإدراكه، ولم يعد لديَّ تلك الطاقة التي تجعلني أضيع وقتًا طويلاً في تصحيح المفاهيم، وتوسيع الدائرة الإدراكية للناس.

الآن أحيا حالة استيعابية للتنازع الاجتماعي الفكري في مجتمعنا، بل أحيا حالة استيعابية للتنازع الإنساني بأسره، لكنني لم أعد أقوى على بدء الإدلاء برأيي إلَّا إذا تأكدتُ من وجود تجرد كامل عند المُخاطَب، وقابلية لفهم الأخر، تمامًا كما أحاول بكل ما أوتيت من قوة.

لم أعد أقر بوجود مكان لتضمين رأيي غير عقلي حيث يتشكل وينمو وتبرز فيه منهجية واضحة بمرور الوقت، والكتابة حيثُ الإدراكات المختلفة، والنقاش الموضوعي للذي ينتقد، بالإضافة إلى التدوين الشخصي المحفوظ، أصبحتُ أرى في اعتزال عوام الناس فضلاً ينبغي تحصيله قدر الإمكان؛ ليس من باب الحفاظ على الوقت فحسب، بل من باب الحفاظ على نموي العقلي أيضًا؛ فهمومي تتباين

بشكل ملحوظ عن أكثر الناس، بل وألتمس طريقة تختلف إجمالاً عن كثير من البشر وكان ذلك كله مما لم أقوى على تفسيره لزمن امتدَّ إلى نصف عِقد تقريباً.

(76) إنَّني أحترم وأُعلي من شأن الإمام أحمد بن حنبل عندما صمدَ في وجه المعتزلة، وثبت على رأيه بأَنَّ القرآن الكريم قديم، ما أدى إلى قتله لوجود حاكم في الحكم معتزلي العقيدة لكن لا يلزم عن احترامي ابن حنبل بأني حنبلي العقيدة وحديثي المذهب بالضرورة.

إنَّني أحترم شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وأُعلي من شأنه، لصموده في وجه المغول، وتحمله السجن أكثر من مرة بسبب آرائه السياسية، التي كان مآلها الإعلاء من شأن الإسلام ديناً وأحكامه، فوق الخضوع لذوي السلطة.

لكن لا يلزم عن هذا أَنَّني تيمي العقيدة وسلفي المذهب بالضرورة.

إنَّني أحترم سقراط وأُعلي من شأنه عندما صمد أمام اليونانيين وما اتهموه به من تهم ثلاثة، وتجرعه السم في سبيل ما يراه صحيحًا لكن لا يلزم عن احترامي سقراط وإعلائي من شأنه تبني فلسفته بالضرورة.

أحترم أوغستينوس وتوما الأكويني، ولا يعني ذلك أني مسيحي الديانة.. أحترم الغزالي والفخر الرازي، وليس لازم ذلك أني أشعري المذهب.. أحترم أينشتاين، وليسَ لازم ذلك أني فيزيائي المجال الدراسي أو ربوبي العقيدة.. أحترم هيوم وليس لازمه أَني تجريبي

المدرسة المعرفية.. أحترم ابن عربي والتبريزي وابن الرومي، وليسَ لازمه أَني صوفي.. أحترم أبيقور وليسَ لازمه أني ملحد العقيدة.. أحترم الجاحظ والزمخشري وأبا حسام البصري، وليس لازمه أني معتزلي المذهب... ألخ.

تعلمتُ كثيرًا الفصل الواضح بين الشخوص وبين أفكارهم؛ فلا يلزم عن مخالفة الناس فكريًّا عدم تقدير إخلاصهم لأفكارهم بالضرورة، لا سيما إذا كان إخلاصهم قد بلغ حد الموت في سبيلها، إضافة إلى ذلك لا يلزم عن اتفاقي الفكري مع شخص ما احترام شخصه بالضرورة، وذلك إذا كان لا يحترم الأفكار المختلفة في جو الأفكار المتناحر. هناكَ خيطٌ دقيق جدًا بين احترام الإنسان ذاتًا إنسانية، وبين ما تحمله من أفكار تؤيدها.

إنَّ تعظيمي بعض البشر إجمالاً ليسَ لازمه الاتفاق الفكري معهم، وعدم تعظيمي آخرين ليسَ لازمه الاختلاف الفكري معهم، كُبرى عقليات الإنسانية كبارٌ بإضافاتهم وجهودهم الفلسفية والعلمية والدينية والإنسانية إلى التجربة الإنسانية، وهم بهذا المعنى كِبارٌ وإن لم أكبرهم لا يصح احترام أحد فقط للموافقة الفكرية، ولا الاحتقار من شأن آخر للخلاف معه؛ فذلك معيار يضيق بصاحبه، ويحرمه من إدراك جادة المعيارية.

(77) أنا إنسان يزعم بأَنَّه لا يستطيع أن يتعامل مع الجنس البشري كله بغير تجرد، لا أدعو أحدًا إلى أن ينتهج المنهج العلمي، أو دينًا من الأديان أو مذهب من مذاهبه، أو أن ينظر في الفنون

ومناهجها، أو أن يؤثر حضارة على أخواتها، أو أن يلتزم ثقافة على أخرى، أو أن يعلي من شأن فكرة ويحقر من أخرى.

أعتقد أَنَّ ما تقدم عبء يقع على الإنسان الفرد؛ بحيث إِنَّهُ عبء مآله إلى بحث كل إنسان يحمل لواء البحث، وليس عبئًا ينبغي الدعوة إلى أجزائه من قِبَل أحد، ولأَنَّ الثقافات الإنسانية عامة تساعد المرء في تكوين انحيازاته بدون بحث، فأنا أعاني صدقًا مع كثير من الناس في هذا الشأن؛ إذ من السهل أن تجد إنسانًا يتبنى أو ينبذ أيدولوجيات ومناهج وثقافات كاملة بغير قدرة على توضيح البعد الفكري وراء التبني أو النبذ. أعتقد أَنَّ الأمر الوحيد المشترك بين أكثر البشر المستحق للدعوة هو الدعوة إلى التفكير المجرد؛ ذلك لأَنَّ المهم في تبني المواقف تجاه الأمور السابقة أن يبلغها الإنسان عن فكره الذاتي، لا القيل والقال من تلقينات ثقافته.

كنتُ أتمنى أن أجد المتشبث بالمنهج العلمي واعيا به أصلاًّ، وكنت أتمنى أن يكون الرافض له كذلك. كنت أتمنى أن يتدين الإنسان ويهب دينه عقله وحياته بعد بحث منهجي، لا ذلك التدين الذي لا أعرف لأكثره غير التقليد والتلقين والكسل، وهو لا يختلف كثيرًا عن تلقين الإنسان اللاديني في البيئات التي تعزز من اللادينية في نسق جماعي، وهكذا.

تلك هي القيمة الفكرية التي أستطيع تقديمها لعلاقاتي المحدودة أما ما دون ذلك، فانشغالي بمباحث أخرى لها ضبطها الأرحب مما تقدم يجعلني أستنكف، أو -إن شئتَ- قُل: أشعر بالخزي إذا ما

دعوت وناديت بما يسجن فكر الإنسان ويشل منه، تمامًا كما تساهم في ذلك تلقينات ثقافته.

أؤكد على هذا المعنى من حين لآخر؛ كي يعلم القارئ أَنَّ تنميطي بشيء معين شيء من المحال أن أحاول الإشارة إليه، فضلاً عن أن يسعى القارئ نفسه إلى تقليبي في قالب معين.. ومَنْ يُرِد أن يرحل إلى الأفكار الجاهزة تلك، فكثير من البشر مؤهلون لتقديمها بشكل تعصبي مقيت، ومنهم كثيرون ينطقون بلغة العرب، غير إني أشفق عليهم لاستخفافهم بأنفسهم وأفكارهم ومَنْ يقرأ لهم. إنَّما الأفكار بالنسبة إليَّ ليست تلك التي بأَولى أن يُهدر في سبيلها الإنسان حياته القصيرة، بالقياس إلى أمور أخرى قد تبدو ذات تشابه.

(78) أحسبني أقرأ وفق أنماط معينة ودوائر لها مدارات عقلية دقيقة، ومِنْ هذه الأنماط والدوائر أنني أرى عالم القراءة كله لازمًا من لوازم التحديات الفكرية، والتحديات الفكرية عندي متعددة الصنوف والألوان؛ بمعنى أنَّ هناك تحديات فكرية محفزها التساؤل، وتحديات أخرى محفزها العبور إلى عقل الآخر... إلخ.

وربما أراني لا أستطيع أن أعيش دون أن أُعَرِّضَ نفسي إلى تحديات فكرية يتغذى عليها عقلي ومدار إدراكي في ثنايا هذه الحياة. ولعلَّ أدنى محفزات التحديات الفكرية وأيسرها في عالم القراءة تتآتى عندما أتبنى فكرة يكاد يقترب من الإطلاق الكلي؛ إذ حينها أقرر قراءة مؤلفات تحاول أن تعرض سياقات جدلية لذلك التبني الفكري حيثُ انغمس إدراكي، وعادةً أقوم بتلك الفَعلة بوازع الوقوف على ما

يَدين إدراكي؛ ذلك لأَنَّني أرى البشر جميعهم قد اختلفوا على كل شيء، وما أدرك تلك الحقيقة غير مَن توقف قليلاً عن تقييم مجموعات التشابهات الاتفاقية معه من البشر أنفسهم.

وعلى الرغم من أَنَّ القراءة وفق النمط المُشار إليه قراءة تتطلب اتساعًا في الانفتاح العقلي، فإِنَّها في المقابل تجعلني أشتبك مع الآخر المختلف؛ فالتبني الجديد لا يتمثل في إدراكي إِلّا بعد ضربة واشتباك مع أطروحات المخالف نفسه، والوقوف على الحياد لا يكون إلا بعد تقييم أطروحات الجميع والخروج منه بقدر التساوي تقريبًا. والانتقال إلى عدم تبني التبني القديم لا يكون إِلا بعد نقد ونقض أطروحات التبني القديم، بغض الطرف عن عواقب هذا النمط المتباينة، فإِنَّهُ يضمن لي أَلّا أعيش في عالم حيث أقف من إدراكي موقف الصحة المطلقة. والعجيب أَنَّني أقرأ وفق هذا النمط بتجدد؛ بمعنى أَنَّني إذا أدركتُ رؤية المخالف وانتقلتُ إليها فعلاً، أو دحضتُ ما تدور في ثناياه رؤيته، أو وقفتُ على الحياد، فإِنَّ إعادة النظر في موضوع الفكرة يكون عندي هامًا إذا كان لموقفي الفكري طول مكث.

ما أنصح به على طول الخط أَلّا يكون القارئ سجين قراءاته، بحيث ينبغي عليه إعادة قراءة ما قرأه في مراحل مختلفة من حياته، ونقض مدارات قراءاته حتى وإن كان يتبناها، وأن يسعى دائمًا إلى إدراك ما هو غائب عنه من نقود لما يقرأ بالفعل. غير إني أحيانًا أحذر من السير في هذا النمط إذا كان لموضوع الفكرة منهج بحثي معين،

هنا لا يصح الانجراف وراء الانفتاح الفكري دون أن يهضم القارئ الآليات والمناهج التي تُمكنه من تقييم الرؤى المختلفة في هذا السياق، حتى لا يُهدَر وقتُه وجهده وإدراكه سدى. وإذا ما كان الحديث عن التبني والنقد والفكر والإدحاض ونحوه، فنحن بالضرورة أمام مناهج بحثية تسير في جوّها رؤى متباينة لكل مجال أكاديمي نظري أو تطبيقي أو هو مزيج من الاثنين كليهما.

ولعلَّ من أهم ما يجعلني أقف من هذا النمط موقف الإجلال هو البحث عن الموضوعية، حيث إنَّ عالم القراءة، فضلاً عن الإنسان بأكمله، لا يحوي غير انحيازات في معظمه إذ يكثر تشويه رؤى الآخر، أو الانفراد برؤية انحيازية دون عرض للآخر، أو تصوير رؤى انحيازية باعتبارها المُثلى والأصح والخالية من مدارات التخطيئ، وهذا تقييمي لحدود ما اطلعت عليه من هذا العالم، وقد أكون مخطئًا.

(79) أحيانًا أضطرُ إلى إدخال الشك البشع على مَن يحاورني في رأيه رغم اتفاقي معه؛ فقط لأنني أجده يُسَلِّم به إلى حد أَنَّهُ لا يرى غيره. ليس كل ما أجادل فيه يتصل بالتبني والدعم والتأييد الفكري، بل لا أجد في نفسي حرجًا من أن أبرز براهين مخالفيَّ في الفكر؛ فقط لأَنَّني أعلي من شأن الحالة الفكرية العقلية، لا الأفكار نفسها. إنَّني على أتم الاستعداد لأدافع عن فكرتين متضادتين تمامًا في آنٍ واحد، فقط لإثراء العقل ونبذ الانغلاق والتعصب والرؤى الوحدوية. إنَّ الأثمن والأَولى في هذه الحياة القصيرة أن يُعنى به، ويُبحَث في شأنه، ويُعلَم قدرته على بلوغ الحقيقة الموضوعية، لهي المناهج العقلية الكُبرى، لا

الأفكار والأديان والفلسفات والمذاهب والأيدولوجيات المختلفة التي هي من منتوجاتها، وتلك أولوية لا يتجاهلها عوام الناس فحسب، بل تجاهلها بعض الفلاسفة والمفكرين.

(80) إنَّ جانبًا عظيمًا من هويتي لا يتصل بلساني أو ثقافتي أو مسقط رأسي أو ما أستحسنه وأستقبحه من ممارسات وسلوكيات، أو إلى غير ذلك مما تفرضه العوامل البيئية بدرجة عظيمة، وإنما يتكئ الجانب العظيم في تشكيل ركائز هويتي على رغبتي في طرح السؤال، وعدم الخوف من التماس القدرة على الاحتفاظ بالسؤال والخوف من تجاهله، والرغبة الصادقة الخالصة في البحث عن إجابة لما أطرحه من أسئلة أو تصور.. قد يكون ذلك عمق ذاتي الإنسانية وجوهرها؛ ما مؤداه تجديدي الدائم رغبتي المستمرة في طلب الفهم، وعدم الخوف من المصاعب والعوائق، ما لم أفقد شغفي تُجاه طرح الأسئلة والرغبة في البحث كليهما.

الفصل الثاني: إشارات بطعم الدعابة (50 إشارة)

(1). مَن ذا الذي يبحث عن نكات ليُضحك بها الناس! الدنيا ذاتها هي النكتة الأكثر إضحاكًا في هذا العالم.

(2). ظهر جفاف المشاعر وجفاؤها في البيوت لأول مرة مذ أن قرر الزوج أن تكون زوجته والدته فناداها ماما، فسرعان ما قررت الزوجة أن يكون زوجها والدها فنادته بابا.

(3). تنتقل غالبًا السفاهة في مجتمعنا بالعدوى، فيتلقّاها صديق عن صديقه مرة، وأخرى أخ عن أخيه، بيد إنَّني أراها أحيانًا بالوراثة تنتقل؛ حيث يولد الجِدُّ وارثًا عن جِدِّه الأكبر، حتى يرثها الحفيد من الاثنين بصدر رحب يتوسطهما أبوه وأمه المصونان، فيُخلَق جيلٌ يبلغ من السفاهة أقصاها، يخضع ويركن ولا يريد أن يريد.

(4). أنت تزعم أَنَّكَ حرٌ ولا تقوى على العزلة، وأنا أزعم أَنَّكَ كاذب، لأَنَّ القدرة على العزلة بداية الحرية.

(5). ما اعتدتُ السخرية من أحد، وحدها نفسي التي أسخر منها.

(6). لا عجب أن يتم أدلجة العقول في أيّ مجتمع، إذ العجب أن تكون هذه العملية تحت إشراف المدرسة.

(7). سيدتي، كوني مثقفةً، عاقلة وذكية، هذا أكثر السبل إجهادًا نحو ضمان العزوبية.

(8). وأحدهم يداعب العربية والفلسفة معًا فسأل: لماذا تاء الحياة مغلقة وتاء الموت مفتوحة؟

(9). من النِكات التي أريد أن أعلمكموها: هناك من عالم الإنسان كُتابٌ عاشوا فقراء وماتوا أفقر.

(10). لا أعرف أحدًا يكره الفلسفة، ولا يعي لها جدوى، إلا ووجدته -وأسفاه- ضيق العقل.

(11). وإن لم يكن للإنسان في إرادته حرية، كان لزامًا عليه أن يخلقها.

(12). وما السعادة سوى حالة بين حزنيْن.

(13). ولا أعرفُ حمقًا أشد حمقًا من حمق فقير شديد الفقر، يتزوج من فقيرة شديدة الفقر، ويُصرّ كلاهما على الإنجاب.

(14). فَكِّر بحرية ومنهجية حتى تفهم.. لا تفكر بحرية ومنهجية؛ لأَنَّ الفهم يقسو غالبًا. إنني أشفق على الإنسان في الحالتين!

(15). اسمعوا يا سادة، فأنا شيخٌ كبير يحدثكم.. اعلموا أَنَّ الحياةَ مفروضة عليكم، وأَنَّ الحكمةَ لا تُنهي متاعبها وآلامها، وأَنَّ العلمَ أداةٌ لفهم ظواهرها لا تفسير وجودها. اعلموا -يا أبنائي- بأَنَّكم لم تختاروا حياتكم كما لم أستطيع أنا اختيارها، لكنني أتعامل معها أمرًا واقعًا لا مفر منه، وأنتم تريدون صنفًا من الحياة لا وجود له في غير أذهانكم. يا أبنائي هل تفهمون نصيحتي؟

(16). إيّاك واستساغة طفلك الرد عليك بكلمة "آه" لأَنَّ كثيرًا من معتادي هذه الكلمة ينهقون فعلاً.

(17). يقولون بأَنَّ زمن الرق قد وَلّى.. تقريبًا لا يلحظون أَنَّ التوظيف استرقاق العصر.

(18). علينا أن نقول كما يقولون بالتأكيد؛ فالمرأة جوهرة، وقد يكون الرجل قطعة حديدية يغمرها صدأ قاتم.

(19). إِنَّ الحياة كلها أدب، ألا تعلم بأَنَّها مسرحية؟!

(20). عجبًا لأولئك الذين يتزوجون وهم في غير حاجة إليه، وعجبًا لأولئك الذين يتزوجون دون أن يقرأوا شيئًا في الدراسات النوعية، وعجبًا لأولئك الذين يقررون الإنجاب وهم لم يدرسوا شيئًا في علم نفس الطفل.. عجبًا لكل أولئك جميعًا؛ لأنهم يمثلون خطرًا على البشر، قبل أن يمثلوا خطرًا على أنفسهم.

(21). سمعتهم يقولون: تحدث قليلاً واسمع كثيرًا؛ لأَنَّ الأذن في جسدنا اثنتان، في حين أَنَّ الفم نسخة واحدة. سألتُ متعجبًا: وهل نسير كثيرًا ونتخلى عن القلب قليلاً؛ فالقدم في جسدنا اثنتان والقلب نسخة واحدة؟! قد نتجادل في النتيجة، أي الكلام القليل والإنصات الكثير، لكن ماذا عن العوار الاستدلالي؟! يحدثكم من مكان بعيد أحد أكثر المستمعين وأقلهم كلامًا.

(22). المادة الوحيدة التي يتجاوز اختبارها كل الناس بغير استثناء، وإن لم يدرسوها في المدارس والجامعات، هي مادة أكل الطعام، فهنيئًا للجميع.

(23). نقول كثيرًا لمدح المرأة: "دي ست ب 100 رجل" ولا نقول لمدح الرجل: "دا رجل ب100 ست!" اقتراحي: غيّروا العدد مائة.

(24). لقد أنتَجَ لنا عوام الناس، وأحيانًا بعض العقليات العربية الأكاديمية، نظرية أرى وجوب تسجيلها ضمن أهم التسجيلات العلمية، ألا وهي نظرية المؤامرة.

(25). أصبح الناس متخصصين في التعليم، وذوي رؤى لإصلاح شئون التعليم في مصر، وذلك فور إقالة طارق شوقي.. يُذكرني هذا المشهد بأَنَّ الناس أيضًا علماء في الأحياء، وذلك إذا ما سمعوا بنظرية التطور أو لمحة عنها، ويذكرني أيضًا بأَنَّ الكل عنده رؤية سياسية واضحة لتقدم البلاد عندما مررنا بثورتين، لا يفصل بينهما عظيم وقت.. كم أنتَ غريب يا بلدي!

(26). إذا قتلتَ إنسانًا فتستحق القتل، إذا قتلتَ غنمًا فتستحق أكله، إذا قتلت صرصورًا فأنتَ بطل، إذا قتلتَ فراشة فأنتَ قاسٍ، إذا قتلتَ في الحرب فأنت وطني.

(27). إنَّ جوجل مثل معظم الناس سطحي؛ كتبتُ له "كيف يفكر الإنسان؟" فأظهر لي مقالات طبية تتناول مراكز الدماغ المختلفة.

(28) إذا كانَ التعليم في مجتمعنا مجانيًّا، فإنَّ التجهيل في نفس المجتمع باهظ الثمن.

والعجب، كل العجب، أنَّ التجهيل في كثير من الأحيان يُلَبَسُ به على العلم، وذلك أنكى وأمر؛ لأَنَّ الناس يدفعون ثمن تجهيلهم بأثمن ما عندهم. كانَ لزومًا على المصلحين أن يزيحوا طريق التجهيل المُبرمَج في المجتمع أولاً، وأعني التجهيل المنهجي قبل أن يكون الحديث عن فساد النظام التعليمي وإصلاحه.

(29). أشهر كلمتين في مواقع التواصل الاجتماعي هما: منقول وأحسنت.

(30). حتى جيوش البشر -يا سيدي- قائمة على غير العقلانية؛ إذ لا يقاتِلُ الجُندي أخاهُ المقابل له في الحربِ عن عداوة حقيقية، بل يحاربُهُ لأمرِ سيدِه الزعيم الذي له عليه سلطة.

(31). علينا أن نقر بأَنَّ وراء كل عظيم امرأة، كما قال فرنسيس بيكون إن لم تخدعني ذاكرتي، لكن من الأهمية بمكان أن نتأمل تلك المقولة بعناية لاستخلاص ما تحوي من دقيق؛ فهل المقصود منها الإعلاء من شأن المرأة بطريقة حدسية؟ إذا كان ذلك كذلك، فهل

يصح أن نقول بأَنَّ وراء كل عظيمة رجل أيضًا، أم ربما كانت العبارة لانتفاء العظمة النسائية عند قائلها؟

(32). أتيقن من وجود البشر على ظهر الكرة الأرضية لبعض الوقت، لكن بدون غباء وحماقة.. لا أظن.

(33). سوف يقوى البشر على علاج كل الأمراض المستعصية عاجلاً أم آجلاً إلّا الغباء، فذلك هو الداء الذي لا خلاص منه.

(34). كل تصور إنساني يتعاطى مع الحالة الإنسانية هو -في الأصل- تصور يساعد الإنسان على تحمل الحياة للمكث فيها دون ضرر قدر الاستطاعة، وليس بالضرورة يفسر الحياة حق التفسير.

(35). إنما السعادة والوعي لا يجتمعان؛ وإذا كان العلم نورًا، فالجهل -لا شك- أنور. بائع الفول أسعد من فيلسوف، والغبي أقدر على العيش دون غصص بقدر يفوق عالم في الطبيعيات مثلاً؛ ذلك لأَنَّ كلما قويَ الإنسان بفاهمته على استيعاب الوجود استيعابًا رحبًا، تبين له نقوده التي تحجب ما قد يُسمى "حقيقة" بدرجة ما.

(36). مصر ليست "أوضة وصالة" الحياة كلها أضيق من "أوضة وصالة".

37). الجميع ينصح الجميع، وهذا شيء جيد؛ لأَنَّ إدلاء النصح بالمجان، في حين قد يكون تطبيقه مكلفًا.

(38). حصول طالب على شهادة البكالوريوس أو الليسانس لا يضمن له ضرورة تعلمه، وحصول طالب على شهادة الدكتوراه لا

يضمن نبوغه، ويبدو أَنَّ القاعدة الأساسية في هذا الصدد تكمن في أَنَّ عملية التعلم حيوية ليست مقرونة بفترة أو شهادة، ويبدو أَنَّ الذكاء أيضًا كذلك.. وبناءً على ذلك، من السهل أن تجد حاصلاً على الدكتوراه أحمق، ومن السهل أن تجد حاصلاً على البكالوريوس جاهلاً.

(39). الطحالب والفطريات تعبد الله حق العبادة بشكل أعمق من الإنسان؛ فحسب الفطريات والطحالب أنها كائنات لا تتصارع فيما بينها باسمه.

(40). إِنَّ الإنسان مستمرٌ في التصارع مع ابن جنسه، مع أَنَّهُ لا يأمن ما تحته من تصارع النيران الملتهبة، ولا يأمن ما فوقه أن يُصيبه فينهيه عن بكرة أبيه.. لكننا علينا أن نقر للإنسان بالذكاء، وتصارعه مع ابن جنسه خير برهان على ذلك.

(41). حتى يكون الإنسان إنسانًا حق الإنسانية، لا يحتاج إلى أن يكون عاقلاً، ذكيًّا وحرًا، بل يحتاج إلى أن يكون تافهًّا.. التفاهة سمة إنسانية خالصة في جنسنا البشري؛ فعلينا -نحن البشر- الإقرار بها، بل وعلينا أن نفخر بها عظيم الفخر.. أجل، إننا تافهون وليس ثمة من أحد هو أتفه منا بالسليقة.

(42). عند ميلاد الإنسان يبكي، ويبدو أَنَّ في بكائه آيةً على خوفه من هذا العالم، وتعبيرًا منه مستترًا عن شعوره بالأمان داخل رحم أمه. وأظن الطفل مصيبًا في شعوره الأول، وليس كذلك في الثاني، أو ليس من الثاني يُستنبَط الأول.

(43). من الصعب في هذا العالم أن يبلغ الإنسان قدرًا عظيمًا من العظمة إلا إذا سلك مسلكًا طويلاً من الحزن والمعاناة.

(44). الغربة عن الوطن لا تبدأ بركوب الطائرة، بل برغبة الراغب في مغادرة بلده وهو ما زال فيه، وإذا تقصّينا هذا المعنى، فمن الممكن أن توجد أوطان لا تحوي غير الغرباء عنها.

(45). حب المال لا يرتبط بالعملات الورقية هذه التي بين أيدينا، وإنما يرتبط بقدرتها على أن تجلب إلينا ما يُغذي في نفوسنا شيئًا من الاحتياجات أو الرغبات. العجيب أَنَّ ما تشتريه الأموال من عمل الإنسان تمامًا كما الأموال نفسها!

(46). ثمة آباء لا يورثون أبناءهم سوى الغباء، وثمة آباء لا ينجبون أبناءهم إلا لأجل توريث الغباء عينه.

(46). أحلامنا في النوم أحلامنا التي عجزنا عن تحقيقها في اليقظة.

(47). الناس -في الأصل- غرباء، لكنهم يحاولون محو الغربة، لا الإقرار بها ابتداءً.

(48). إنما العزلة أهم مدرسة للعبقرية أو للاكتئاب، وأحيانًا للعبقرية والاكتئاب مجتمعيْن.

(49). ما كان صادقًا ذلك الذي قال إنَّ الحياة صعبة، لأنَّ التعبير الأدق أنها سخيفة.

(50). الضحك بدون سبب قلة حيلة، لا قلة أدب.

الفصل الثالث: إشارات بطعم الأدب (30 إشارة)

(1). وإنَّ احتضانًا من جواهر يديها الناعمتين يشيع في دفائن نفسي ما من باعثه يديَّ رفقًا! فإذا ما انقضى سنا النهار وغيّمت شمسُه، كانَ لوئام ما بين أصابعها راحةً واطمئنانًا! هَب أَنَّ الكون قد أقفل عن الإشراق، ودموعه باتت تنهمر، هل تستشرف تلك اللحظات النادية ما تقرره نسائمُ الأيدي وما تحتوي عليها من حنان، يكاد لو ينقشر لولا أَنَّها تحمله؟! ها هي الأيام تمضي، وها هي أيضًا لا تمضي في غير نوادي الحب المتلألأة في سماء الرِقة. وإذا ما انخلع ذلك الجو الحميمي الكاشف للنعيم والنعمة، لما كان في نفس العالم من حضن يحويه، ومشارق تنبثق عنه، وغِلظة يُضرَب عليها بالإخماد والإجهاض.. أواه! ها هو العالم بين تلك اللمسات الحانية يسقط، ودموعه تتوقف، ويأخذ يبتسم.

(2). وكل الناس لأرواحهم مالكون سواي، فلقد هربت من بين جنبي نفسي روحي لتنال الراحة بين ضلوع صدركِ الوضاء وقلبكِ النقي.. فما من لحظة مرّت وأخرى تمضي إلا ورنتُ مفاتن بسمكِ الضحاك وقمطر حسنكِ المُغلف بنفسكِ التي كادت تفتك بقلبي وتمزق عقلي.. وعجبت لكِ ولأثركِ البليغ في أعماق نفسي، فمن أيّ مادة خُلِقْتِ؟! أمن عيون الجمال أم من مفاتن السحر؟! يا مَن له صوت متى تحسسته انتشيت فرحًا.. يا ضعفي الذي به أتقوى وعجزي الذي أمتشق به سيوف العزة يا من لغيره لا أطمئن، فبكِ يصير الألم بلسمًا والشقاء سعادةً والنقمة نعمةً، ولكم سعيت في

الأرض لأجل ضحكة من عينيكِ اللتين يرسمان للكون شعاع الشمس! فبدونهما يصبح الأفق سرمديًّا حالكًا.. قطعتِ في نفسي وما بال خدينِ أحمريْن قد امتلأ بهما فخر جميلة الجميلات، إذ إنهما قد زُينا بفم لا تجد من التسبيح بحمد خالقه مفرًا، وضحكة كالرصاص لا أكاد أستمتع بها حتى أموت متى توقفت.. فلكم أزالت عندي هذه الضحكات غمًا ما كنت أرى إلى الخلاص منه سبيلاً إلا بكِ، لكنني أعود تارة أخرى إليه فور انتهائها ويكأنكِ تضحكين لتُمتعي نفسك التي ليست في حاجة للمتعة بل إنها المتعة نفسها، فضحكاتك وقود لمُتعتي ورحالتي من التعاسة إلى السعادة وما من امرأة تعلو على جمالكِ قيد أنملة، فهن قد حاولن استمداد ما يكفيهن منكِ من جمال، فما حاز منهن من أحد من ألوان الجمال ومنابع الإثارة ما حُبيتِ. ثم إنني غير راغب في وصفك طويلاً مدققًا النظر في جسدك حريري الملمس مُرهف الحس والشعور، فقلمي عاجز عن وصف نهر محاسنكِ وبحر سحركِ الفاتن، وما زلت في حيرة من أمري وسؤال لا أرى له جوابًا أستبين من خلاله سر أثركِ العميق في ذاتي، مما قد وصل بي إلى الهوس بكِ والنضال من أجلك؛ فلقد آليت على نفسي الذب عنكِ ضد السفهاء الأغبياء الذين يحاولون النيل منكِ، ولكم كفكفت عن عيني أنهارًا من الدموع المنهمرة كي يكون في مقدوري مخاطبتكِ بالذي أستحقه والذي تستحقينه، وإنني لا زلت متسائلاً: كيف امتلكتِ إنسانًا يصعب على البشر امتلاكه؟! كيف دبرتِ لغزو تفكيري وحسّي إلى هذه الدرجة؟! ومن المثير للاندهاش حبي واستمتاعي بكِ وبما انتهيتِ إليه، فإنني لكِ بكل ما وُهِبْتُ من

عقل وقلب وجسد وروح، فانشطارك عني يعني موتي لأنني بكل ما تقدم آثرت المكوث في طيات حشاياكِ؛ فكرهت نفسي وانخلعت منها فارًّا إليكِ، فهل من رضا أناله هذه المرة؟!

(3). في حب العربية:

في ليلةِ شتاءٍ قارصٍ سألتني العربيةُ وقد أنشأت تبكي: لماذا أعيشُ في أهلي وضيعةً ذليلةً وقد فُضِّلَ عَلَيَّ كلُّ مَنْ لا يَرتَقي ليكونَ مِثلِي؟! فأجَبتُ وقد تَساقَطَ مِنْ نَفسي انكِسارُ المُنهَزِمِ ذي الدفاعِ عن قَضيةٍ عظيمةٍ قائلاً: كَفْكِفي دُموعَكِ فإنها ذَهَبٌ قَدْ سُيِّلَتْ قَطراتٍ لا يتذوقُ مرارَها غيرُ كلِ مَنْ لَهُ قَلبٌ يَشِعُ في الكونِ أنوار حُبِكِ! إنكِ لعاليةُ القدر لا حدّ لسموه، لكن أهلَكِ يدفعون ضَريبةَ التخلفِ والتَخاذُلِ الذَيْنِ هم فيهما واقعونَ. اعذري أمةً قد لا يستطيعُ أستاذٌ جامعيٌّ منتمٍ إليها أن يبنيَ جملةً عربيةً فصيحةً سليمةَ المعنى والمَبنى.. اعذري أمةً تحوي نماذجَ حقيرةً مِمَّنْ جعلوا غَيرَكِ كالإنكليزيةِ والفَرنسيةِ والألمانيةِ محلَ فَخرٍ وعزةٍ تمامًا كما يراها أهلُها، ويا لَيْتَهُمْ جاروا عليكِ بالافتخار بغيرِكِ بدلاً من اعتبارها قنواتٍ للتواصل فحسب، بل إنهم يُسفِّهونَ من قيمتكِ حتى إبان تواصلَهم مع بعضهم بعضًا! ألم يُخبركِ أحد أفراد ذلك الجيل القديم السافل أنه يبالي أشد الحرص بتنشئة أطفاله على اكتساب وتحسين الأعجمي من اللغات لكنه في نفس الآن قد تَرَكَ ذلكَ الاهتمام إذا ما كانَ مُتعلِقًا بِكِ؟! اعذري أمةً ليسَ لها من أختِها مماثلةٍ فهيَ أمةٌ مَشطورةٌ نصفان: نصف يُحبُكِ ولا يريدُ أن يتعلَمَ غيرَكِ وأولئك هم المنغلِقون

حقًّا، والنصف الأخر يبذلُ كلَ ما أوتيَ من قوةٍ في سبيلِ تجاهُلكِ؛ ليرضيَ وهمًا في نفسِهِ، إذ إنه يَوَدُ أن يظهرَ في صورةِ المُتحضرِ المتقدِمِ وإنني أرى كلا الصِنفينِ شراذِمَ أهل الأرض، فالأول لا يرغب في التعرفِ على ثقافة الآخرينَ، أما الثاني فيبدو أنهم قد رأوا في الاعتزاز بسواكِ دربًا من سبلِ المجد، لذا هم سَفلةٌ لا حَد لِسَفالَتِهِم، فلو نظروا إلى لغتِهِم بقدر ما ينظُرُ مَن هم بهم مُفتونون لأراحوا واستراحوا. ولو وعوا الحاكومَ والناسوخَ والمِرناةَ وغيرها من جهود علماء اللغة وتعلقوا بالنحو والصرف والأدب لسلكوا غير تلك السبيل، ولو أنهم فتّشوا عن العللِ التي لولاها ما أُسِروا فقرأوا وطالعوا من بطون الكتب ما تحوي تأصيلاً للوضع المنكوب لبَكَوا بحورًا من دماء جروحِهِم، لا نستَحِقُ التصاقَنا بِكِ ما دمنا عن مياهِ عينيكِ غافلين.

(4). ما سلكتُ إلى قلبها من سبيل إِلَّا مُعتليًا موسيقاه، التي به تعزفُ في حشايا نفسي نَظمًا يبثُ فيها الحياة بعد أن كادتْ تموت، غير أنَّها أقفلت شَعرَها عن الإظهار الناعم، وحجبت لسانَها عن نَظمِ شِعرها المِضياء، وأبتْ شفتاها اللتانِ أنبتا العذوبة إِلَّا الصمت؛ لأعيشَ بين فكي رَحَى، فلا سَكينة ولا أمنًا أنال، بل ما أنا خارج موطن قلبِها عن الخوفِ ببعيد.. أواه! فالعشقُ نيرانٌ يرقص لهيبُه وَسْطَ أشواكٍ من دموعٍ في الفؤاد تنهمرُ.. وَحسرتاه! إذ يُشرِقُ نورُ الظلامِ تلوَ تعاركِ الطيورِ تَحفها الشطآنُ التي تئنُ رثاءً حياتَها، ثم تشربُ أنينَها كمدًا.

(4). كَفكِفْ عن أنهارِ الدموعِ نفسَكَ، فالحياةُ مجنونٌ يهوى المجونَ، واستبِقْ إلى الحياةِ خيرها دون احتضان ما إليه ترنو؛ إذ إنَّ المتمسك بعظيمها حقير.. انسَ لوعة الشوقِ إلى الدنيا وما فيها ومَن فيها؛ لأَنَّ البعد عن ذلكم شرفُ تلك نصائحُ في الدنا شقيقاتها، فاسلك إلى تطبيقها أُولى السبلِ.

(5). أيتها الفتاة الحنون، لبّي نداء عاشق مجنون.. أيتها اللغة الشقراء، ابتلعيني في تلك الليلة الحمراء؛ كي أتلذذ بتلمس ما في حشاياكِ من سمو وعطاء الله! آهٍ وأواه منك ومن فتنتكِ الطاغية في صدري، التي تكاد تُميتني عزوفًا عن سائر الورى سواكِ. ما أحن الحنان وأنتِ تحويه، ما أسعد السعادة وأنتِ وقودها! كم من عناقٍ منكِ بثَّ في مماتي حياتي، وكم من ضلوعٍ تلتهب في غيابكِ عني، انفرد كلُ حبيبٍ بمحبوبته سوى حبيبِكِ الذي يغازلكِ علنًا؛ إرضاء لكبريائكِ واعترافًا بفضولكِ.

(6). سئلَتْ مومس: ألم يأنِ لَكِ أن يكف فرجُكِ عن ملاحقة دناسة العاشقين، فأجابت مفتخرة: أيُّ دناسة وأنا في الطُهرِ أنغمسُ! قيل لجاهلٍ من الجهلة: لماذا لا تتعلم؟ فقال ساخرًا: فاقد الشيء لا يسأل عنه غيره، قيل للدنيا: هلَّا كففتِ أسواط آلامك عن المتمردين، فأجابت في صمت: وهل سواي متمرد؟!

(7). الدنيا مسرحية يجري حوارها مجموعة من البُكْم، إليهم ينصت مجموعة من الصُم، فيهم يُدقق النظر آخرون من العميان، ثم يحلل تلك المسرحية السقيمة حمقى من النقاد الذين لا يعونها ولا

يرغبون في أن يفهموها قيد أنملة، أو إن شئت فقُل: يريدون أن يعجزوا عن إدراكها.

(8). وكثيرًا ما أدركُها حمقاءَ ساذَجَةً إذ إنها تغُضُّ طرفَها عني ويكأنني مجرمٌ لا حدَ لما أحمِلهُ في طيّاتِ نفسي من عظيمِ خطرٍ، ويكأنني لا أبذلُ ما في وسعي اعتناءً بكل ما يفرشُ لها من سبلِ السعادةِ مدَّ البصرِ، لذا أحيانًا أتحدثُ إلى نفسي لها مُهينًا قائلاً: لعلكِ هَوْجاءُ الفِكْرِ متغطرِسةٌ لا حد لعمقِ تغطرسكِ، ولِمَ لا أراها حمقاءَ ساذَجَةً؟ أوليست هي مَنْ يحمِلُ بينَ صدرِها قلبًا لا يُفكِرُ وعقلاً لا يَشعُرُ؟ بلى إنها كذلكَ في الأرذلينَ الأسفلينَ جيفةٌ مُتَّسِخَةٌ تبثُ في نفسي ما لا أطيقُ ولا أتحملُ، لكنني في نفس الآن تحسَستُ أحدَ ثدييها فما وَجدتُهُ غيرَ مَنبَعِ الحنانِ وطريقَ الرحمةِ وطُهرًا لا يُرى لهُ مِثلُ نَظيرٍ، فأخذَتني سِنَةٌ من النومِ وأخذتُ أخرى حتى تلذَّذتُ بقليلٍ مِما يتعطشُ إليهِ الظمآنُ وما يشتاقُ إليهِ كلُّ مَنْ لهُ في الحياةِ قَلبٌ يصوغُ لهُ معناها، فعَجِبتُ لحالي وحالِها: أهي حقًا منبعُ القسوةِ والجَفاءِ أم هي نهرُ من فيضِ حنانٍ متوقدٍ؟! فاستفهمتُها مِرارًا وتَكرارًا لكنها لم تُجِبْني بما يفهمُه الناس مما ينتمي إلى اللسانِ، بل شَكَّلت في نفسي إجابةً لا تحوي سوى علقمِ الدهورِ.

(9). عندما رغبتْ في معانقتي، غضبت قائلاً: احضني إحساسكِ وَحْدَكِ؛ إذ أنَّكِ عشتارُ الزمان، التي إلى شعورها لا أطمئنُ.. شفتاكِ الحمراوتان بالعشق فيهما تلعثمٌ؛ فاضطرب كلُ ما تحويه من مشاعرٍ خداعة، وجسد بريء فيه حنين متدفق وحنان متأجج!

فعلى الرغم من أنَّكِ شمطاء ثائرة بشقكِ الذي تظهرينه لي باهرًا، وكعابتك التي بسببها تحسبينني أشتهيكِ، فإنَّني غير مطمئن إليكِ.

(10). وللطبيعة حُضْنٌ يحوي أمان الخِداع، ورُمْحٌ يُوجَّهُ إلى مَنْ لهم أحضانٌ تضم خداع الأمان علَّ شظايا الحياة منها رُكِّبَتْ، على نفسها وسواها اطرخمَّتْ، لكنها تنسجُ ما بالأضداد لا يُدرَكُ، فتنة وقبح، مجون وجنون، تأوه واضطراب، ضوضاء وخناق؛ فهي عذوبة يملؤها المالح، وأفراح تغمرها أتراحها، ونسيم عابر يسبح في الريح العاتية، وبدر هاج فافرنقع عن ذاته وأصبح مطلخمًا بغير إرادته العليلة.

(11). والناس في حيواتهم يهرولون؛ طالبينَ الدنيا، إليها ساعينَ، بها راضينَ عليها غير ناقمينَ، عَلَّ الأخيرة أكثر ما يثير حفيظتي، فكيفَ لا يتمردون عليها وهي رجلٌ أعمى يقودهم عن غير قصد دون إذن منهم؟! كم من أناسٍ غرق في ثقتهم بذلك الرجل الذي لا ينبعث من ظله السجين سوى ما يثني العقل عن الإدراك، والقلب عن الشعور، والجسد عن التحرك؛ فيصبح الإنسان دمعة قاتمة وسط أنوار ماجنة أضاءت لتظلم، ثم أظلمت لتشيع أنوار الظلام، ألا سحقًا لهم ولها ولي أيضًا!

(12). أحب العربية عشقًا إلى درجةٍ عظيمةٍ ألتمسُ في ثناياها شرف عناقها في أثناء مغازلتها بكلماتٍ طويلة عريضة في يوم الحب نفسه، بالإضافة إلى يومها الشائق الماتع، ولا شك أنا أهواها، حقًا

أهيم فيها، ولا أستطيع أن أُخفي عن الورى مَنْ يمتلك من ذاتي ذلك الشعور العميق الضارب بجذوره في نفسي.

سألتُها منذ قليل: لماذا أقف منكِ موقف العاشق معشوقتَه؟ لكنني لا أعرف كيف يكون ردها!

(13). أرغب في أن تضحك لي الدنيا، تمامًا كما تضحكين أنتِ! أرغب في دنيا لها قبسٌ منكِ، هل تفهمينني؟

(14). يا رفيقتي، لماذا تتحدثين، وصوتُكِ موسيقى!

غَني! فخلطُ الموسيقيْن مزيد إبداع، كَلّا! صوتُكِ ذات الموسيقى، والموسيقى كلها له تنصاع!

يا رفيقتي، إني أحبك.. يا رفيقتي، أخشى أن أعرب عن حبك.. يا رفيقتي، إنَّ الزمانَ مجنونٌ، وأنتِ مثله!

(15). أتريدين أن تصحبيني في رحلة الحياة؟! كَلّا لقد اشتد عودي، وما زلتِ أنتِ زهرة توشك أن تنضر في جو الربيع الساحر، وما بالك تتحدثين بهذه النبرة القوية شديدة الثقة، عالية الوثوق، وأنتِ لا تتصورين ما تخفيه تلك التجربة الوضاءة، والخبرة المسموح لها بالحرية والانطلاق، والمعسور عليها غير الشقاء؟! ابعدي، ألا ابعدي، فالورود محلها البساتين، وأنا محلي النيران.. ابعدي، فنيراني حارقة لغير الذين لم يعرفوها أمثال الورود! ثم إنَّكِ ماذا تقصدين ب "رحلة الحياة"؟ وما هي الحياة وما هي الرحلة؟ وما هي حروف الرحلة وحروف الحياة؟ كَلّا! لقد ضللتِ الطريق يا رفيقتي، وأضللتني معكِ

في جو مسحورٍ بالسحر، ومفتونٍ بالجمال، وله في الحياة عذوبة لا يمكن تصورها.

(16). سألَت ويا ليتها لم تسأل؛ فضريبةُ جواب سؤالها موتها.. نعم، رحلت عن هنا دون أن يشعر بها غير الذي ذبح في صدرها شيئًا كان يُجيب سؤالها، وماتت ولا أحد يعلم عن السؤال جوابًا.

(17). ورِقَتُكِ طاغيةٌ على ذاتي، حتى إنني عاجزٌ عن التحدث في الفلسفة معكِ؛ ربما لأَنَّها خدشٌ لرقتِكِ.

(18). هَبَّ الظلامُ على غرفتها الوديعة، وساءها شبحٌ مرعبٌ لا يكاد ينجلي حتى فَزِعَت من هول بشاعته.. قال لها في صوتٍ متقطع يكاد يكون مرتفعًا، يحجبه عن الرقة رخامة:

لم أكن قطُ لآتي إلى هنا إلا أنَّكِ مطلوبةٌ عند سيدي الأكبر الأشبح، العظيم الأجلْ، صاحب الملكوت الأكبر، والسلطان الأقوم.. عليكِ الخضوع، فإنَّ الوقوعَ عليكِ! وانتبهي؛ فليس عندنا من وقتٍ ننظر فيه أمرَكِ.

سبحت دمعاتها اللامعة في بحر عينيها الجميلتين، وخرّت تكشف عن سحابة رمشها من هول ما رأت وسمعت، وهبّت تقول في توجع وتألم:

- ما أنتَ سوى حقير وما سواكَ غير أحقر.. كلكم لا عِرفان لكم ولا سلطة.. كلكم مجانين في أبحر العقول اللا متناهية.. أنتم حثالةُ الحثالة..

انتهى كل شيء قبل أن يبدأ.. وأخذت سلوى تنظر في وقتها حتى حان ضياعها.

(19). لا تقولي إنَّكِ من جنس البشر الغليظ.. كَلّا! إنَّ جسدَكِ فقط من هنا، يشبههم في الهيئة، وينفرط عنهم ويفترق ذاتُكِ في جوهره.

(20). لم يضمها إلى صدره قَط وهو الآن يقرر أن يشعل في صدرِها اللهيبَ! كانت تضمه إلى صدرها في صمت والآن تبكي همومًا جديدة.

أواه! بدّلتها بالآه فتجمدت.. وآهٍ! بدّلتها بالوجع فتألمت.

(21). وإلى تلك اللحظة، هي في غفلةٍ عن أَنَّ الزهرة الحمراء أحيانًا تكون دمًّا.

(22). ومن عجيب موسيقى الحياة أن ترى وجه الوردة شاحبًا، وأن تلحظ في صوت امرأة شحوبًا كذلك.

(23). إنَّ الطبيعة كلها موسيقى؛ ألا تجد في شدو العصافير رنينًا هادئًا يشبه في عمقه نغمات البيانو؟! ألا تجدُ في صوت الإنسان نغمات موسيقية متلألأة تختلف بتباين انفعالاته؟! كَلَّا إنَّ الموسيقى الآلية صورة انعكاسية لموسيقى الطبيعة الحقيقية، التي تظهر جليًّا في هدير البحر وهديل الحمام وزئير الأسد وبكاء الإنسان وضحكه.

(24). ما أجملك صوتَ الإنسان! تهذي كالطير في السماء فتحن، وتزأر كالأسد في التهامه فتُجَن، وتعبثُ في الحياة فتئن، وتنوح

بجنبيك عن غيرك فتركن، وتشمئز بنفسك عن شيء فتصمت، وعندئذٍ يتساءل الصوت عن صمتك.

(25). أيها الليل، تعلّمتُ من هدوئكَ التأمل، ومن طولِكَ الفلسفة، ومن نسيمِكَ الخيال، ومن ورودِكَ الأدب.. أيها الليل، تمنيتُ على الشمس الغياب، وأمسكتُ فيكَ القلم، وخِلتُكَ -يا صديقي- حسنَ المآل؛ ففيكَ عزلتي وشَكوتي ونهضتي.

(26). إنَّ الشمسَ تشرق في الصباح أملاً في الارتقاء ببعض كائنات هذا الكوكب البئيس، وتغادر حياتهم في المغرب خجلاً من فظاظتهم، وتترك لهم أنوار قمرها إشفاقًا على أحوالهم.

(27). لو صيغ بدني في زهرة لامع مظهرها زكيّة رائحتها، لكنتُ أفيد للورى وأنفع.

(28). يا مَنْ تُحرمون الموسيقى، ألَا فلتحرموا هدير البحر الهادئ حين يطل برقته على هذا الكوكب، ولتحرموا هديل الحمام الحنون حين ينادي الغِلاظ فيرقق مشاعرهم.

(29). هم وشاة (في غزل العربية):

في ليلة من الليالي فرَّقَ بيني وبين العربية مجموعة من الوشاة؛ إذ أخذوا يقنعونها بأنَّني أخونها لميلي إلى شقيقاتها، المصيبة الكبرى أنَّها أخذت تصدقهم؛ فخاصمتني طويلاً طويلاً، ولم تعد تتحدث معي كما كنا نفعل.. لقد اعتدتُ منها أن تَقُصَّ عليَّ كل ما في نفسها من شعور وعاطفة، وأي شيء في حياتها كنتُ أعرفه قبل

أن يفضي لسانها إلى آذاني، لَكِنَّها الآن نسيتني وتركتني وحيدًا، على الرغم من أنَّني أعلن عشقي لها في كل صوب وناحية، بل أمام الدنا والعلا، فإنَّها تتهمني دائمًا بعدم الحب والميل إلى ما سواها.. لا أعرف ماذا أفعل! تنتابني حالة من اليأس والبؤس؛ إذ أنَّ الحنان الذي أستوطنه صار قاسيًا كالبشر الغِلاظ، والوطن الذي أسكنه يطردني.. ما بكِ؟ كيفَ أرضيكِ؟

لا أنسى تلك الليلة التي نمت في قلبها -آهٍ من قلبها- وحيدًا متربعًا أشتمُّ كل ضحكة يخرجها فمها الوردي المحفوف بشفتيها الحمراوتين، تلك الضحكات التي كانت تحثني على الحياة وقبولها، لكنها حرمتني الحياة لغضبها وذعرها، لذا أشعر بالخناق يحيطني، وحبال الموت تزورني.. لم أستطع تحسس قلبها فضلاً عن الجلوس بداخله كما كانت ترضى من قبل، لم تعد تتحدث معي كما اعتدت منها، نسيتني ورحلت عني مع تمسكي بها.

ألم أقل لَكِ من قبل أنَّكِ مصدر جمال النسا، وهن لَكِ رجالٌ وليسوا نساء بغير صَبِّكِ عليهن بعض جمالِكِ؟! ألم تعلمي بأنَّكِ مصدر حياتي التي تنتعش برضاكِ، وتنهمر من البكاء لغضبكِ! ما بِكِ؟ كل البشر يختارون حبيبة من معشر الإنسان؛ كي يغازل بعضهم بعضًا في عيد الحب، أمَّا أنا فأعيش معكِ أنتِ فحسب، ولمْ بل لن أختار إحداهن يا نسيمي الغضوب ودمعتي الضاحكة.

إنَّني آتيكِ ولن أبالي بما ستفعلينه؛ لأنَّني محتاجٌ إلى صوتكِ الذي يفرش لآذاني سبيلاً من الطهر، ذلك الصوت الذي طالما ناديته؛ فيأخذني إلى طريق لا يكونُ فيها غيره، لا لأنَّهُ صوت العذوبة

فحسب، بل لأنَّه صوت حبيبتي الحنون.. لقد اشتقتُ إلى معانقتكِ، والتسلل إلى دفء رائحتَكِ التي لا تحوي عطور النسوة المصنوعة، بل تحوي نوركِ الباهي الزاهي الذي أستشعر بعضه مع غضبك مني، إنَّني راغبٌ في أن أعيشَ سجينًا في عيونكِ؛ لأحيا حياتي حرًا داخلها كم هو جميل أن تُغمضي عينيكِ على عينيَّ؛ لأنال راحتي التي تمتلكينها.. اسقطي دموعكِ على دموعي فإنَّ دموعي لا تحظى بالعشق بغير انخراطها في دموعكِ.. إنَّني أشعرُ بقربكِ الشديد مني، وأريد أن ألمس أصابعكِ واحدًا تلو الآخر، أرغب في أن يلمس جلدي جلدَكِ، أرغب في أن أموتَ داخل ثدييكِ الذين من خلالهما تضعين حنانك في نفسي.. كفاكِ عذابًا لي، وصدّقي إخلاصي يا أمنيتي العظمى، ورقيقتي التي لا ترضى لي الجفاء! لا تكوني لي كما يكونون هم لبعضهم؛ فلا تقسي عليَّ وتُثنيني عن الحياة الحقيقية معكِ!

(30). لم تكن لتدرك أن قد كشفت عيناها عن هذا الهراء! قالت في توجس يوشك أن تصحبه شجاعة:

- وما الذي أتيتَ به من ذلك العالم الخفيّ عن معالمنا؟ أأنتَ رعديدٌ يزعم النبل، أم سفيه يدعي الحكمة، أم ربما سافل أُخذَ من سفالته عظائم السفالة، فباتت تتوزع على نتانة العوالم الأخرى؟

هان في نفسها فأهانته في نفسه، ثم ماذا بعد؟ سقطت الورود من فوق الشجر باكية تتحسر في حزن وألم، وهطل المطر يسقيهما من دموعه المنهمرة، واطلخمَّت مضامين الموقف، حتى خرَّ العالم كله جميعًا يتأوه مسموعًا أنينه إلى جانب الذي سال من جروحه. أواه! أهذه هي النهاية؟ قالتها رحاب والضيق يضيق بداخلها..

الباب الثاني: مَن أنتَ أيها الإنسان؟

الفصل الأول: إشارات في درب الاجتماع البشري (65 إشارة)

(1). ليس ثمة سر معين في العلاقات الإنسانية بين البشر؛ كل ما أعرفه أنَّها مُدركات عقلية تتجاذب وتتنافر.. احتياجات تتلاقى وتُشبَع أو تتلاقى فيحول بينها حائل، العلاقات الإنسانية جميعها تستحق الإشفاق؛ لأنها تمضي بقانون أسميه "الأسر".. كل الناس أسرى الرغبة والاحتياج والثقافة والمدركات وحاصل تجاربهم.. حتى في نظري وتصوري هذا صنفٌ من الأسر، ولا شك.

(2). متى تحاول أن تعيش وسط عدد أقل من البشر، تكتشف أَنَّ الأكثرية ما هم إلّا عبء عليك، تنوء ذاتك بأمراضهم النفسية وتشوهاتهم العقلية السطحية وتبولاتهم الثقافية غير المنضبطة عندهم، لكنكَّ متى تحاول أن تعيش وسط جنبي ذاتك فحسب، فسيكون لديك فرصة عظيمة لتمحيص نفسك وفهمها، واكتشاف القلة والكثرة بدقة وعمق.

(3). هناك أناس ينيرون حياتنا إذا دخلوها، كما أن هناك كُثرًا ينيرون حياتنا عند خروجهم منها.

(4). وَلِصياغَةِ الكَلِمِ دَورٌ غَيرُ مَنقوصٍ في إبرازِ مُتَضاداتِ المَعاني ومَدلولِ اللفظِ، فقد يُعَّبِرُ المَرْءُ عَنْ الكُرْهِ غير مُتعمِدٍ إذَا مَاْ قطعَ شَوطًا كبيرًا مِنْ عَدَم المُبالاةِ بالصورةِ اللغويةِ التي يَصوغها، فتشبيهُ المَرأةِ -على سَبيلِ المِثالِ- بالرجلِ تعبيرًا عَنْ صمودها وقوةِ عَزمِها فيه ذَمٌّ وإهانةٌ لأنوثتها، فجُملةُ القَولِ تَتلَخَصُ في قولِ ابنِ الرومي:

في زُخْرُفِ القَوْلِ تَرْجيحٌ لِقائلِهِ ... والحَقُّ قد يعتريه بعضُ تَغييرِ

تَقولُ هذا مُجاجُ النحلِ تَمدحهُ ... وإن تَعِبْ قُلت ذا قَيْءِ الزَنابيرِ

مَدحًا وذمًا وما جاوزتَ وصفهما ... سِحر البيانِ يُري الظَلماءَ كالنورِ

(5). والطيب هو مَن يتنازل عن قوته للضعيف بعد إظهار قوته، والساذج هو ذلك الأحمق الذي لا يعرف لنفسه قوة حتى يقرر التنازل عنها.

(6). أولئك الذين يجعلون للرجل على المرأة درجة، وأولئك الذين يجعلون للمرأة على الرجل درجات، لم يختاروا نوعهم أصلاً.

(7). احذر اثنين: العشق والتعصب؛ فالأول يغلق شعورك، والثاني يغلق عقلك.

(8). إنَّ التفكير القطيعي يضمن للقطيع أفكارًا جاهزة، كما أنه يضمن لهم -وبنفس القدر- سعادةً جاهزة.

(9). الأصل في البشرية أن يُقيَّد عقلُ الإنسان بحاصل ثقافته وزمنه، والخروج عن ذلك هو الاستثناء.

(10). يُخيل إليَّ أَنَّ أكثر المشكلات الناشئة عن العلاقات الاجتماعية بين الناس يُسألُ فيها صاحب المشكلة نفسه! إذا شكوتَ من إحدى علاقاتك فلُمْ نفسك؛ لأَنَّكَ الذي اخترتهم.. وعن أولئك الذين فُرِضوا عليكَ فرضًا، لم تضع معهم حدودًا واضحة. هذه هي الحقيقة التي ترغب في أن تنأى عن تحمل عواقبها.

(11). إنَّ حدود الأخر معي أضعها، كما أَنَّ حدودي معه يضعها، إنني لا أرى أي مشكلة في العلاقات الإنسانية خارجة عن خلل في تطبيق عبارتي هذه، والعجيب أَنَّ الجميع يلوم الجميع.

(12). ليس كل شيء يُنطَق، وليس كل ما يُنطَق يُقال لأي أحد؛ فهناك أمورٌ تُقال للناس جميعهم، وأخرى لبعضهم، وثالثة لا تُقال لأحد.

(13). وربما يكون الابتسام عند الغضب مفيدًا؛ سخريةً من حيثيات الغضب، وليس تجاهلاً لشعور الغضب نفسه.

(14). إنَّ الديمقراطية نظامٌ للحكم السياسي، يضمن فقط سيادة الشعب في الدولة، لكنه لا يعصم الاستبداد من أيدي المستبدين، ولا الجهل من غباء الجهال، ولا الحمق من طيش الحمقى؛ فقد يوافق الشعب على كل ما تقدم، وهو يهذي فرحًا، تغمره حالةٌ من نشوة السكران في حانة السياسة.

(15). لا أعرف كيف يستطيع أولئك الذين يضيفون إلى انشغالهم بأنفسهم انشغالاً بتفاصيل حياة غيرهم، يبدو أنهم لا يضيفون انشغالات إلى انشغالهم، بل هم لا ينشغلون بأنفسهم أصلاً.

(16). الثروة شطران: أحدهما الأمل، وثانيهما العمل.. والفقر نصفان: أولهما الكسل، وثانيهما اليأس.. مَنْ كانَ عمله باليأس جنى الفقر، ومَن تكاسل بلا يأس حصده أيضًا؛ ذلك لأَنَّ شطرا الثروة لا ينشطران ابتداءً.

(17). وما وجدتُ وسطَ الحمقى غير السعادة، ولا أعرفها عند الأذكياء إلّا قليلاً.

(18). قد أدرك انشغال الرجل بالمرأة، واهتمامه بمحاولة فهمها، بقدرٍ ما يعادل انشغال المرأة بالرجل واهتمامها بأن تحاول فهمه.

(19). إنَّ الإنسان جوهره خَيِّر؛ فذلك الأذى الذي تلحظونه في العلاقات الإنسانية في الأصل تنافر، لا أذى.. هو تنافر بين المدركات العقلية، والأحداس الثقافية، والذكاءات المتفاوتة، والبواعث الشعورية.. إلخ، كل هذا يستتر داخل صورة كلية تسمونها "أذى".

(20). أجمل ما في القطيع أَنَّه يتألف من أفراد كُثر، يشتركون في نسخة واحدة، ويزعمون أَنَّهم شخوص مستقلة منفصلة. ليس هذا بجميل أصلاً، وإنما هو من باب السخرية ينبغي التعجب منه والوقوف عنده، القطيع يعقد عقدًا واحدًا، ركّبه لهم فيلسوف

واحد، وهم وقعوه بأفهام مختلفة لا تخرج عن تركيب فيلسوف العقد، وهذا ما لا يمكن أن يعيه القطيع.

(21). ليس أحدٌ بضعيف! أنتَ تراهُ ضعيفًا لأنَّكَ أقوى منه، وأخر يراك ضعيفًا لأَنَّهُ أقوى منك، تذكر أَنَّكَ قصير إلى مَن أطول منك، وأنتَ طويل إلى القصير إليك، ليس هناك مطلقات في الأحكام، فانتبه!

(22). لا تحب المرأة إلا إذا أمنت، ولا تكره إلّا إذا صُدِمَتْ، ولا تخضع إلّا إذا هانت وإنني تجولتُ بين الأدب والفلسفة، وما عرفتُ أحدًا يعرف المرأة حقَ المعرفة، وذلك ما يُخدَع به الرجل.

(23). لا تشتكِ في بداية أي علاقة إنسانية، بغض النظر عن صنف العلاقة، فالانطباع الأول يدوم عند أكثر البشرية.. وفضلاً عن ذلك، سوف تشكوان كلاكما مجرد أن تدركا بعض العمق في حيوات بعضكما، فلا تتعجل.

(24). كلنا أسرى تجاربنا الإنسانية.. كلنا أسرى مدركاتنا العقلية، وبواعثنا النفسية، ومحفزاتنا الثقافية، ومساعينا في الحياة.. يا أخَ الإنسانية، ما يؤذيكَ المؤذي حين يؤذيك وهو يدرك أَنَّهُ يؤذيك، إنما هي مُدركات عنده تعارضت مع مدركاتك، فأصابك الحزن والهم! يا أخَ الإنسانية، إنَّ الذي يحبك لا يحبك حين تقريره حبك، إنما هي احتياجات تلاقت، وونس اجتمع، وصحبة تآلفت، وذلك بالقياسات العقلية صعب تصورها، أو تصبيغها في إطار معين منطقي. يا أخَ الإنسانية أشفق على نفسك والناس جميعهم؛ فما

الإنسان يريد شيئًا في حياته من علاقاته كلها غير الشعور بالعطف والحنان، وما تراه في الحياة من خير أو شر لا يعدو غير تجلٍ لهذه الحقيقة الجوهرية.

(25). ما أسعد القطيع وما أتعس الأفراد! فنمو القطيع ثابت هنيئ، يحركه أفرادٌ تعساء.

(26). كلما كان الإنسان منعزلاً، زاد شعوره رِقةً ورفقًا وحنانًا؛ إنَّ القلوب المنعزلة عنكم أرق منكم، وأبعد عن غلظتكم.

(26). لم تعد ظاهرة الأخلاق ظاهرة في الإنسانية غامضة كما كانت من ذي قبل. هناك تفسيرات في علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأعصاب ونظرية اللعبة، إلى جانب النظريات العقلية الضاربة في التفلسف، الدين لا يؤسس الظاهرة الأخلاقية في الإنسان، بل يبني قوامًا معينًا في استيعابها.. ويمكننا القول أَنَّ الدين هو الذي يقوم على الأخلاق، لا الضد.

(27). إنما الفنُ إحدى صيحات الإنسان تعبيرًا عن ضميره الأصيل، لا واقعه المتغير.

(28). أولئك الذين تكتظ ضمائرهم بالتمييز بين البشر لا يستطيعون أن يروا المساواة غير ظلم.

(29). أولئك الذين لا يتغيرون داخلون في إحدى دائرتيْن: إما الحمق وإما الموت. والدائرة الأولى في الأصل عقلية محضة، والثانية ما هوية الكينون الإنساني للفرد بما تشتمل عليها من مكونات.

(29). مواقع التواصل الاجتماعي أخصب المنصات الحديثة لجعل السفهاء عظماء، وجعل العظماء سفهاء؛ حيث لا توجد قوانين لأيّ شيء في هذا الباب.. قُل ما شئتَ واكتب ما تريد.. ادعُ إلى ما تشاء، وامتنع عمّا لا تريد. بجِّل السفيه وسَفِّه غيره، فلا تجد أحدًا يعارضك أو ينتقدك أبدًا.. شارك كلمة من هنا وأخرى من هناك.. اكتب في صباح أو في ليل.. أظهِر العلمَ جهلاً، والجهل علمًا.. نعم، افعل ما تشاء.

(30). أظنُ العمى يستحق من قِبَل العميان إدراجه ضمن المدائح، كما يدرج آلُ البصر بصرهم؛ فكما أَنَّ هناك أمورًا يُمدَح لها إبصار المبصر إيّاها، ثمة أمور في الحياة يُمدَح لها عجز لأعمى عن إبصاره إيّاها كذلك.

(31). إذا كنتَ لا تجيد السباحة، ورغبت جديًّا في إتقانها، فانسَ وجود شيء اسمه "شاطئ".

(32). لا تستنكف أن تقول رأيًّا غريبًا ما لم تَره أنت غريبًا، فما عليك سوى أن تعطيهم الوقت الكافي والحِس الشعبي، وسوف يرونه كما تراه تمامًا، كما باقي الآراء الغريبة السابقة.

(33). ليس كل مَنْ يتركنا في الحياة يكرهنا؛ ذلك لأَنَّ بعضهم يخافوننا فقط.

(34). إنَّ أولئك الذين يفشلون بطريقة مميزة لهم التقدير عندي يفوق هؤلاء الناجحين في التقليد.. إذا رغبتَ أن تنجح، فانجح بتميز

وإذا وقعتَ في الفشل، وذلك محتوم لا محالة، فاسعد به إذا كان مميزًا كذلك، الغريب أَنَّ الناس لا يبالون بهذا أو ذاك؛ إذ إنَّهم يستمدون مقاييس النجاح والفشل من بيئاتهم ومجتمعاتهم، ويكأَنَّ السطحية هي الملاذ العقلي الكلي عندهم.

(35). متى تقع في أزمة، فارحل إلى صديق يعي دقائق نفسك، لكن لا تختزل الصديق في إنسان متحدث؛ إذ قد تتحدث إلى صديق يقوى على مشاركتك همومك حق المشاركة من الجوانب كافة، وقد تتحدث إلى صديق قد رحل عن الحياة ولا تعرف عن الاتصال به غير أحد كتبه أو بعضها، وقد يكون الصديق لوحة فنية تنقشها وتدقق النظر فيها بتأمل عميق، وقد يكون الصديق قلمًا تبث إليه حزنك، وقد يكون مقطوعة موسيقية تستخرج من مضامينها معاني شعورية تخفف من ألم ما تعانيه.. إلخ.

(36). السعي إلى إدخال السعادة على نفس إنسان حب، لكنه يتحول إلى أنانية فور أن تُقرَن السعادة بوجود الساعي إلى جانب المحبوب، واعتبار ذلك الوجود شرطًا لازمًا لمعنى الحب.. سيدي، اعلم أن ليس كل سعادة نتمناها لأحبائنا مقرونة بنا، وترك تلك السعادة لغيرنا هو الحب عينه.

(37). الحب يُحَس، إذن: لا يوصَف باللغة حق الوصف ومع ذلك، معظم إشكالات علاقات الحب الرومانسي تنبني على ركنين اثنين: شغف متسرع، وتعبير عن الحب من قِبَل طرف واحد، ولا أعرف حلاً مناسبًا لإشكالات أمثال تلك العلاقات غير إدراك أَنَّ

الشغف قد يكون في غير محله، أو أَنَّ التعبير عن الحب ينبغي أن يكونَ متبادلاً، وذلك أمرٌ لا يمكن للإنسان أن يفهمه عميقًا دون التمهل في فهم الأخر. جزءٌ مَهيب في الحب يتكئ على الخوف من الأخر أن يوقع النفس في ألم غير متوقع، مصحوب بشغف لمصادفة أمر مشترك بين الطرفين.

(38). وأكره ما من الممكن أن تبغضه نفسه أن يتحول الخطاب غير الرسمي بين الناس إلى خطاب رسمي، فور وجود سوء الأفهام وبروز ما يستدعي المبارزات الجدلية، ويكأَنَّ الإنسان يقاضي أخاه خطابًا لغويًّا معينًا مقابل تودده إليه!

(39). ولا أعرف كيف يطيق كثير من الرجال النساء الطائعات في غالب الأحيان! ولا أعرف كيف يطيق بعضهم النساء المتمردات في غالب الأحيان كذلك! إنما الأولى في الأصل خاضعة، والثانية في الأصل لا تجيد التفاوض، وكلتاهما حمقاء.

(40). متى أتحدث عن مفهوم "الشراكة" بين الرجل والمرأة، أبدو ويكأنني أشير إلى شراكة بين إنسانين من جنس واحد! سوف تبلغ مدارًا عميقًا من هذا الحديث عن الشراكة بين الرجل والمرأة بهذا المعنى فور تخليتك المسألة من الشهوة الجنسية وممارساتها، أو بمعنى أدق: عندما تنظر إلى هذا الجانب من الشراكة الإنسانية بين الرجل والمرأة باعتباره آخر الجوانب أولوية، ودونه أولويات يُبنى هو عليها، لا يؤثر هو في بنائها. ومعلومٌ أَنَّ الزواج في جوهره شكل من أشكال هذه الشراكة المُشار إليها.

(41). أسوأ الشخصيات الإنسانية وأبعثها على التخلف البشري أولئك الذين لا يكونون إلّا نسخًا من غيرهم، وهم عن ذلك في غفلة وسبات.

(42). كل شكل من أشكال التقدم الإنساني عادةً ما يُنبَذ في بداية ظهوره، ويكأنَّ البشر لا يتصورون تقدمًا يفوق ما هم عليه من واقع تطبيقي عملي.

(43). السعي إلى إسعاد الناس مُقدَم على إرضائهم.. ابذل جهدك في مساعدتهم، في إراحتهم، في التخفيف من حدة آلامهم ومصاعبهم، في أن تكون مصدر آمِن بالنسبة إليهم.. إلخ، أما عن إرضائهم فأضمن لك أَنَّكَ لن تناله بشكل كامل حتى وإن فعلتَ ما تقدم في سبيل هذه الغاية.

(44). يحرص كثيرٌ من الناس على تجنب الخطأ، مع أَنَّ الخطأ في ذاته نسبي، فضلاً عن أَنَّهُ مهم لإدراك الوجه الأخر منه، الصواب أعني.

(45). شخصان لا تضيع وقتًا معهما: شخص يحكم في مسألة دون أن يشك في علمه بحيثياتها ودقائقها، فيبني حكمًا مداره منقوص، وذلك يستحق التراحم، وشخص لا ينضبط عقله بمنهج واضح فيحكم بغوغائية، وذلك يستحق الشفقة.

(46). لا تهتم كثيرًا برأي الناس في شخصك: إذا كنتَ عاقلاً إلى حد الاشتغال بالرياضيات أو المنطق أو الفلسفة، فستجد مَنْ يراك

مجنونًا.. وإذا كنتَ لُغويًّا إلى حد الاشتغال بإنشاء مدرسة في أحد فروع اللغة، فستجد مَن يراك في اللغو منغمسًا، وإذا كنتَ متدينًا إلى حد أن أوجدتَ فهمًا منهجيًا في التعاطي مع الدين، فستجد مَنْ يراك زنديقًا، وإذا كنتَ رحيمًا إلى حد الصوفية، فستجد مَنْ يراك قاسيًا.

(47). ونحنُ لا نشيرُ إلى الصبر، ونحث عليه كثيرًا، إلّا عند الأزمات والشدائد، ويكأنَّ الإشارة إلى الصبر تحل محل الضعف.

(47). إنَّ دور الإنسان الفرد تجاه علاقاته أن يحيل بينهم وبين الألم، وليس بالضرورة إكسابهم اللذة.

(48). أثمن ما يمكن أن تناله يوم رحيلك حزنهم على فراقك لوقت قصير؛ كلما انقضى من قصره وقت، يعتادون على فراقك بلا حزن.

(49). نمطان من الشخصيات الإنسانية يمثلان خطرًا على مجتمعاتهم قبل ذواتهم، وكلاهما استثناء في التجربة الإنسانية: شديد الغباء ما دون مستوى الذكاء المتوسط، ومتقد الذكاء ما بعده؛ إذ يجر الأول مجتمعه إلى الخلف والأخر إلى الأمام، في حين يؤثر معظم الناس من ذوي الذكاء المتوسط السكون والثبات بطريقة أو بأخرى، فيُنبَذ شديد الغباء ويُساء إلى شديد الذكاء.

(50). أسعد الناس جهلاؤهم، أولئك الذين يتجرأون على الكلام في عظائم الأمور عن جهل بها بكل أريحية.

(51). يُقال للمرأة أنها صاحبة أنوثة إذا وضعت المساحيق وازينت وغيّرت في جمالها الطبيعي، ويُنزَع منها لقب الأنثى إذا

أغمضت أعينها عن الزينة، إذن: نحنُ في عالم يَقيس الأنوثة بما هو دخيل على المرأة، ويقيس عدم أنوثتها بعدم خضوعها لما هو دخيل على جمالها البدني الحقيقي.

(52). ينبغي علينا أن نتعلم من الطفل ونشهد له بالقوة، وإرادته في التغلب على الحياة؛ فهو لا يتعلم المشي إلَّا بعد أن يتذوق سقوطه في الفشل بتعثره في طريقه، في حين أنَّ كثيرًا من الناس يرفضون الفشل، لا على سبيل الممارسة فحسب، بل على سبيل التفكير أيضًا.

(53). إنَّهُ من المؤسف أنَّنا قد جعلنا لكل شيء عمرًا؛ فالحكمة مقصورة على الشيوخ، والبراءة على الأطفال، والأنوثة على مقاييس دقيقة يحددها العمر وفق كل ثقافة بشرية، وكل ذلك هُراء يساهم في تدمير جوهر الإنسان.

(54). الحبُ ليس حب الأجساد؛ لأَنَّها تتغير متأثرة بالمرض والهرم والعبور البيولوجي من مرحلة إلى أخرى، وليس الحب بعشق دين المحبوب أو عادات سلوكياته إذ أنَّها قد تتغير بمرور الوقت، وليسَ الحبُ بعشق أفكار المحبوب؛ فالأفكار قد تتغير منتقلاً بها المحبوب من فكرة إلى أختها. لذا أقولُ: الحب إعجاب بقدرة المحبوب على التغيّر عقلاً وسلوكًا وجسدًا؛ فعقد الحب يبدأ في تقديري بالمرونة وينفسخ بالانغلاق، والحب في هذا الإطار يوشك أن يكون ممتنعًا، إذ لا حب في هذه الأرض بلا نمط.

(55). إذا وجدتَ امرأة عِشرينية أو ثلاثينية تسب الرجال، وتراهم جميعًا يحاربون النساء ويتعصبون ضدهن، ويدافعون عن

عنصريتهم تجاههن مستدلة بحوادث القمع منهم إلى حد القتل المشهود علنًا في الآونة الأخيرة، فلا تناقشها من باب عقلي أبدًا؛ لأَنَّ إعلامَكَ إيّاها بأَنَّ التعميم نفسه مغالطة منطقية، وأَنَّ شعورَها هو المنطلق على هذا الحكم الجَلل، مدروك عندها بأَنَّكَ تُنقِص من عقلها، وتُكسِبها قيمة دنيا بالقياس إلى الرجل، بل إذا أخبرتها بأَنَّ الظلم الواقع على النساء تحديدًا في ثقافتنا، وفي ثقافات أخرى وفي بقاع العالم القديم امتدَّ إلى قرنين مضت سنواتهما، مآله إلى نظم اجتماعية معتبرة ومناهج فكرية ينبغي التمعن فيها، لنظرت إليكَ بعين قاتلة وعزمت تعنيفك.

إذا وجدتَ ابنًا منزعجًا من أبيه، ويشعر تُجاهه بغضب عظيم، وفي داخله مفاهيم إدراكية كاملة عنه تمثل عنده مُسَلمات، فلا داعيَ أن تحدثه عن مكانة الوالدين مطلقًا.

إذا وجدتَ امرأة طلّقها زوجها عن شِجار حاد بين الاثنين، وكانت المرأة رافضة الارتباط بعده، لما عند الرجال من خيانة وعنف وما إلى ذلك، فلا تُلِمْ عليها فعلتها من باب عقلي.

هناكَ مواقف يتبناها الناس دافعها شعوري محض ليس من الحكمة عندها العناية بالإدراكات نفسها، بل ينبغي العناية بالإنسان وحالته التي تسيطر عليه. عندها يجوز استيعاب المضمون العاطفي للشخص المُخاطَب دون الحوار الذي يتحدى ما أفرزه شعوره.

في هذا الصدد، نستطيع تفسير كثيرًا من السلوكيات الإنسانية التي تحكمها كل ثقافة تارة، والوجدان الإنساني عمومًا تارة أخرى..

هنا تتجلى الصوفية بأرحب ما فيها، تتجلى ملامحها بأوسع استيعاب أهلها، تتجلى نقاؤها في إطار التغاضي عن النزاعات ومحاولة التماس العلل وراءها، وكما أَنَّ الشعور كان له الغلبة في الحكم عند صديقنا الغضبان، فينبغي سيطرة الشعور في استيعابه عند صديقنا الأخر.

ثمة مواقف يحتاج فيها الإنسان إلى الإشفاق على ما يمر به وما أفرزه شعوره من أفكار، والتي إذا أدخلناها في مدار عقلي جاف تكون باطلة غوغائية لا معنى لها، لكن تلك هي الحالة الوحيدة التي أرى للعقل برمّته أن يُنحّى جانبًا؛ كي يكون عند الرَحِب عقلاً الاستيعاب الكامل لمجريات الأمور ودقائقها.

(56). ماذا لو استيقظَتْ الإنسانية ذات مرة، وقد مُحِيَتْ من ذاكرتها النصية كل الذي حَفِظتهُ من تراث فلسفي وأدبي وعلمي وما بين ذلك؟

تمثلَ هذا السؤال الجدلي الافتراضي مَحَلاً للنقاش بين طرفين، كنتُ أحدهما والأخر صديق مُقرَّب لي، إذ كان طرحه بمثابة الجدل حول أهمية التدوين من جانب، والقيم الحضارية الكُبرى للنوع الإنساني من جانب آخر.

قُلتُ: ما دام الطرح يفترض محو التُراث المُدوَّن للإنسانية، بما في ذلك ضياع أصول المكتوبات من مخطوطات وآثار كتابات قديمة، فسوف يكونُ من اللازم على الجنس البشري بأسره الإسراع في سؤال المختصين في كل فن بأن يسطروا من جديد مؤلفات مُكَثَّفة حول ما يجيدونه في هذا الإطار، بل وينبغي الاستعانة بدقائق

المتخصصين. فليكتب المتخصصون في الفلسفة مثلاً، لكن تُعطى الأولوية للاستعانة بالمتخصصين في كبرى عقليات الفلاسفة، لتدوين فلسفاتهم من جديد باعتبارها ذات أولوية لإنقاذ البشر من الأزمة، وذلك بالهرولة إلى عقد المنافسات الشرسة لإتمام ذلك ما استطاعت إليه الإنسانية سبيلاً، وليتم نفس المشروع في كل فن وتخصص على نفس المنوال.

غير إنّني رأيت في المشروع الذي اقترحته مشكلات لا بد للإنسانية أن تنظر فيها بعين الاعتبار ومنها:

أولاً: وقوع الإنسانية من فهم المتخصصين حينها موقع التسليم: وتلك مشكلة معاناتها تتجسد في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية بقدر يفوق العلوم التجريبية.. تخيل أنَّ المتخصصين في الغزالي مثلاً سوف يدونون رؤى الرجل وفكره من مجمل مؤلفاته، والتي يمكن قراءتها بطرق متباينة، فضلاً عن عدم القدرة على التحقق من أفهامهم لانقطاع الصلة بالمواد الأولية لها.

ثانيًا: ثمة أترثة كاملة من المحال استرجاعها، أو من الصعب على أدنى تقدير أن تعود إلى حاضنة البشر بالمعنى الحرفي للكلمة؛ وذلك لطبيعتها الفنية والإبداعية إذ يتكئ المتخصصون على وجود العمل الأصلي منها، ومن أهم تلك المجالات الأدب بلا شك.

ثالثًا: ربما تكون المشكلة العظمى في العلوم التجريبية تحديدًا إسقاط العناية من الأذهان بشخوص المكتشفين والمخترعين، على حساب إعادة تدوين جهودهم من جديد، وذلك في أهم الكشوفات

التخصصية في كل فن. أَمّا عن الكشوفات الصُغرى أو التي صارت هامشية، لبناء تراكمات علمية على جدرانها، فمن المتوقع عدم الورود إلى الذهن إدراجها من قبيل حساب الأولويات؛ مما يطرح العناية العامة بالجهود على حساب المجتهدين.

رابعًا: من المتوقع تأخر البشر بدرجة كبيرة على إثر فقدانهم المنصوصات؛ وذلك لوجود عوامل حقيقية فعالة بالسلب في العقل الجمعي الوعوي للبشر، ومنها: توقف الحركة التعليمية لعدة أجيال بسبب انشغال المتخصصين الكامل بالتأليف باعتبارها غاية ذات أولوية على نقل معارفهم إلى أخرى.. فقدان كم كبير من التراث الإنساني، مما يجعل الحراك الفكري نفسه راكدًا؛ وذلك تأثرًا بميزة التفكير على أبنية السابقين من البشر بنقد كلامهم وتخريج الجديد.. انتهاء أعمار المتخصصين، والذي يسمح بعدم التكافؤ من حيثُ عظم الأزمة وحدود الوقت عندهم... إلخ.

لكنني أرى ميزة من الممكن تحقيقها إبان تلك الأزمة المتخيلة وهي: اجتماع البشر جميعهم، ولأول مرة في تاريخهم الغابر على مهمة واحدة؛ مما قد يؤدي إلى تذويب الخلافات بينهم، وسيادة السلام بشتى تدرجاته لحين انتهاء الكارثة، والتكاتف الحقيقي لاستعادة ما فقدوه جميعًا من تراث إنساني من الجوانب كافة.

تخيّل هذه الكارثة حادثة، كيف تراها أنتَ أيضًا أيها القارئ؟

(57). على الرغم من تنوع ما يمكن إدراجه تحت باب "العقبة" أو "الحائل" أو "الأزمة" أو ما شابه، فلا أحسب الوجود الضروري

لمعيار معين يلتصق بماهية أمثال تلك المفاهيم بين البشر أجمعين أمرًا يمكن أن يدخل في باب الممكن أصلاً، وعِلة ذلك أَنَّ أمثال تلك المفاهيم تمثل الجمع العظيم بين التركيب المعقد للإنسان؛ بحيث يتعين إدراكه على الاختلاف بين أعضاء البشر في جوانب عدة منها: مستويات الإدراك المتباينة، والتي تختلف بالنظر الكلي إلى الحياة ومضمونها من معنى وغاية ونحو ذلك، ما يجعل الأولويات القيمية متباينة بينها، ومن عِلل ذلك أيضًا: الاستجابات العاطفية للحوادث ومجريات الحياة، والتي عادةً تتكئ على النظر الكلي وتحديد الأولويات.. ومن عِلل ذلك أيضًا: اختلاف البشر في الوعي بذواتهم أصلاً، ما يؤصل للاختلاف نفسه بينهم في تحديد أولوياتهم وعمق وجودها والسعي إليها، ومن عِلل ذلك أيضًا: الاستجابات الإدراكية الفكرية لما يدخل في باب "العقبة" والتي تتأثر عادةً بمدى شدة ما يعده الإنسان عقبة، وإلى أي حد يبلغ تمسكه بمدار أولوياته، وبأيّ شكل بلغ تأثره الشعوري بإدراك العقبة عقبة، هذا بالإضافة إلى اختلاف البشر في قدرتهم على التماس المرونة، التي من شأنها أن تعزز المعنى الدقيق للعقبة أصلاً، إلى غير ذلك من العِلل الكثيرة.

قد يكون العامل المعياري الوحيد، وهو معيار شعوري من الصعب قياسه قياسًا مجردًا لنسبيته، المشترك بين البشر أجمعين في هذا الشأن هو الشعور بالتوقف عن استكمال طريق ما كان يُظَن فيه إتمامه، والذي عادة يلحقه الشعور بالألم على تباين درجاته.

وبناءً على ما تقدم، فعلم الإنسان عن أخيه شعوره بالألم فحسب يمثل أمرًا كافيًّا لاستيعاب معنى العقبة عنده؛ وجداله في أسباب ومجريات ودقائق وعوامل بناء إدراك أحد الحوادث عقبة بُنيَ عليه شعوره بالألم باب من أبواب تضييع الوقت؛ لأَنَّ الاختلاف البشري من الجوانب كافة هو الذي ساهم في اختلافهم في هذا الشأن، وهنا أقول وأؤكد: ليس من الدور الأخلاقي اللازم امتثاله بين البشر بذل الجهد لتخطيئ المنظومة الكلية التي أثمرت هذا الاختلاف الإدراكي للتمييز بين العقبة وغيرها، بل بالأحرى ينبغي التخفيف من حدة الألم دون الدخول في عوامل لا يمكن تغييرها عند الآخر لما انبنت عليه ذاته وكوَّنته، بالإضافة إلى أَنَّ الثانية ليست بأولى من الأولى.. إنَّهما حقيقتان من الأهمية بمكان الاشتغال الأخلاقي على الوعي بهما، أولاهما: فهم التباين في المؤثرات والعِلل التي تكون عند الإنسان إدراكه معنى العقبة، وثانيهما: إنفاق الوقت في التخفيف من النتيجة المشتركة بين البشر كلهم، أي الشعور بالألم دون تضييع الوقت نفسه فيما لا يغير من حقيقة اختلاف العوامل أبدًا.

(58). في عمق كل علاقة إنسانية مدارات تتألف من الرغبات والاحتياجات، ولا يعزز من صلابتها سوى حفاظ أطرافها على تلك المدارات.

(59). لو عامل الناس بعضهم بعضًا كما تعاملهم الحياة، أي يرافق الجميع الجميع دون أن يتعلق الجميع بأحد، لأراحوا واستراحوا.

(60). لا ينبغي أن نترك الباب الذي تأتي منه الريح بل علينا مقاومته؛ عسى الريح أن تنقلنا إلى مكان أفضل.

(61). إيّاك والشعور السريع في حالتيه: المفروح والمحزون؛ فإنَّ التعجل في استجلاب الشعور الموقوت بوقت قصير مُنهكٌ للذات، ومُدخِلُها في أبواب الوهم المتباينة، سواء أكان الوهم بالفرح أو الحزن أو ما شابهما. لا تشعر إلا لعظيم فلا تفرح إلا لجليل، ولا تحزن لغير مصيبة، وما بين ذلك لا تبالي.

(62). إن لم يكن ما تريد، فلتُرد ما يكون.

(63). عامل الناس كما يحبون هم أن تعاملهم، لا كما تحب أنت أن يعاملوك.

(64). معرفة الناس غنيمة، وأحيانًا لا تعدو غير مصدر هام من مصادر القلق.

(65). يستطيع الفارغ عقلاً أن يقنع غيره بضد ذلك الفراغ، فقط إذا امتلك ذِمام اللغة؛ فما أكذب من قول سقراط: تحدث حتى أراك!

الفصل الثاني: نقود في الدرب الاجتماعي (25 نقدًا)

(1). يؤسفني عظيم الأسف أن يكونَ في تراثنا العربي الإسلامي شخصياتٌ مثل: الفخر الرازي والزمخشري والتفتازاني والجويني والجاحظ وغيرهم، ويكون الخطاب الديني الشعبوي في العصر الحالي خطابًا متخلفًا.

(2). والجاهل في مجتمعاتنا جاهل مميز؛ فهو عالم عظيم العلم بعلوم الأحافير والجينات والتشريح المقارن والأجنة إذا ما كان الحديث عن نظرية التطور، لكنه -وعلى صعيد آخر- يود لو يتعلم إذا ما كان مدار الحديث نظرية الخلية مثلاً.

(3). والزواج في مجتمعاتنا لا يُنظَر في شأنه إلّا بعين التقليد الاجتماعي المتجذر؛ فلا عجب في هذه الظروف الاقتصادية الحالكة أن نجدَ ثنائيًّا من البشر يؤثر شراء النيش ويُصر على وجوده، ونجد ركنًا عظيمًا مثل المكتبة لا يعتد به أحد.

(4). من السهل أن تقول بلهجة سمجة: كونوا عقلانيين، ومن المؤسف أنك لا تستطيع أن تعلمنا بمقصدك الدقيق من العقلانية.. صدقني إنَّنا نحيا عصر العنونة الفارغة، والتي يجيد لغتها السطحية أكثر الناس.

(5). طه حسين: عقلية من كبرى عقليات الفكر العربي، والتي أظن العرب ما قدّرتها حق تقدير، أو ما حاولت أن تنال منها منالات تغيّر من حالها الحضارية بين الأمم والشعوب.

(6). لقد حدّثوك وأطالوا في الحديث عن بر الوالدين وعقوقهما، لكنهم نسوا أو -إن شئتَ- قُل تناسوا، أن يحدثوك عن بر الأبناء وعقوقهم.

(7). علينا أن نجعلها صريحة، ونُقرها واضحًا، بأَنَّ أكثر الآباء لا يربون أطفالهم بل يلقِّنونهم حتى يجعلوا منهم نسخًا تماثلهم، وأنا أقول في هذا الشأن ساخرًا: لا داعي حقًا من وجودهم، فالأرض لا تتحمل مزيدَ نسخ.

(8). على مجتمعنا أن يدرك إدراكًا تامًا ويُقر إقرارًا واضحًا، بأنه لا يجيد التعامل مع ذوي الإعاقة، ليسَ من باب قانوني سياسي أكاديمي فحسب، بل من بابٍ إنساني اجتماعي محض.. على مجتمعنا أن يُقر بهذا إقرارًا صادقًا، قبل أن تمضيَ أوقاتٌ يُتمنى في المستقبلِ إيعادها.

(9). وإذا رغبتَ في أن تعلمهم أنَّكَ لا تنتمي إلى ثقافة القطيع تلك، فسيومئون برؤوسهم أي كلنا لا ننتمي إلى ثقافة القطيع أصلاً! وبِناءً على ذلك ستحاول أن تنشط عقولهم ليفكروا بأنفسهم، يفكروا باستقلالية مطلقة وبتجريد مُرهِق، لكنك ما تلبث أن تقوم بتلك الفعلة، حتى تجدهم يرقصون داخل صندوق القطيع، أو -إن شئتَ- قُل: يطردون كل مَنْ لا يريد أن يرقص معهم.. قُل: بئسَ الرقص هذا، وبئست الصناديق تلك، ولا تقل إلا ما يبث في نفسك ذاتها.

(10). أظنُ الحديثَ في تشييع بيئة من الثقافة بين الناس، وتطوير جودة التعليم وترميم مفاسده أمرًا غير مُجدي في وقت يحتاج فيه

المواطن إلى أن يتمتع بالذي يتحصل عليه قط في زقاق من احتياجات أولية.

(11). من أغرب ما أعدّه قسوة شعورية عند كثير من بني البشر قطفهم الزهور؛ تعبيرًا عن شعور الحب.. كيف يستطيع أولئك أن يقتلوا بقسوة ويزعموا أَنَّ ذلك في سبيل التعبير عن الحب، والذي هو أرقى وأنبل المشاعر الإنسانية؟!

(12). هناك ثلاثة مستويات للخطاب الديني:

أولاً خطاب الوعظ: وفي ثنايا هذا الخطاب، يقوم الواعظ بالوعظ، وعادة ما يكون داعموا هذا الخطاب الفوضوي عوام الناس، إذ لا منهج واضح للواعظ الذي يوجه حياتهم غير قال الله وقال رسوله، ما تأسرهم وتطمئن مشاعرهم.

ثانيًا الخطاب الفقهي التأصيلي: وهو خطاب البدايات التأصيلية لعلوم التعاطي مع النص المقدس الديني، وفي ثنايا هذا الخطاب يشرح الفقيه لتلاميذه المباحث التأصيلية للحكم الشرعي علمًا وقياسًا ومنهجًا، ويشرح الأستاذ المُحايد إشكاليات الخطاب الفقهي لكل مسألة، التي بدورها تجلب الخلاف بين أهل الفقه أنفسهم.

ثالثًا الخطاب الفلسفي: وفي هذا الخطاب، يقوم المتكلم المسلم أو اللاهوتي المسيحي بعرض البضاعة الفكرية لمنظومة الدين بالكلية، مأصِلاً بذلك التأصيل المنطقي الجاف المصحوب بالتفلسف.

في هذا الصدد، من العبث خلط الخطابات ودمجها والتعامل بها مع كل الناس؛ ذلك لأَنَّ درجات الوعي عند كل فئة مُخاطبة وما تحتاج إليه جد مختلفة. صراخ الصارخين من الواعظين في المساجد، واعتبار أنفسهم أهل قيمة علمية للناس، خطاب مناسب جدًا لطبقة العوام من الناس، لكنه منفر لأهل الخطاب الفقهي ويزيد النفور بالنسبة إلى أهل الخطاب الفلسفي.

في تقديري، إنَّ الدعوة إلى تجديد الخطاب الديني دعوة محض مُشَغِبة؛ لأَنَّ الخطابات المختلفة لا يصح تجديدها إلَّا في سياق توظيفها، وما يُعانيه مجتمعنا على وجه الدقة خلط الخطابات الثلاثة.

نعم، ينبغي تجديد الخطاب الوعظي مع العوام، لكن ما هو أثمن من ذلك التجديد المؤسسي نفسه للأزهر، ما مؤداه الإعلاء من شأن الخطابات الثلاثة في ثنايا بث الدين في الناس، من الأهمية بمكان أَلا تُطرَحَ التأصيلات الفقهية أمام العوام، وألَّا يُشَغِب الوعاظ على أهل الخطاب الفلسفي، وألّا يبالي أهل الخطاب الفلسفي بأهل الفقه والوعظ أصلاً.. إنَّها دائرة عزيزي القارئ، انتشر فيها خطاب ديني واحد لأسباب ثقافية وتعليمية معينة، فظنَّ المجتمع إنَّ الدين له طريقة واحدة، وما دونها يصير خارجه.

يوم أن كان للمسلمين شأن بين الأمم، غاصَ المتكلم المتصوف الأشعري الكبير أبو حامد الغزالي في الفلسفة اليونانية، واستخلص رأيه فيها بعد شك راوده، وكتب كتابه الشهير "تهافت الفلاسفة" والذي عرض فيه كفر القائل بثلاثة أمور وخطأ المتفلسفة في سبعة

عشر نقطة محتكمًا بذلك إلى الدين، ثم ردَّ عليه الفيلسوف ابن رشد في كتابه "تهافت التهافت" بعدئذٍ، ألف الغزالي كتابه الرائع "إلجام العوام عن علم الكلام" موضحًا خطر إقحام عوام الناس في تلك الجدالات الفلسفية العقلية، وأَنَّ ذلك يفسد عليهم أمرهم، ويُلَبِّس عليهم ما لا تقوى أفهامهم على إدراكه.

مجتمعنا يعاني من معضلة مشابهة لكن في صورة متخلفة بعض الشيء.. يعاني من وفرة الخطاب الوعظي اللامنهجي واختلاطه بالخطابات الأخرى؛ فالسادة الوُعاظ جعلوا لأنفسهم مكانة، هم لا يدركون أنَّها في عقول العوام فحسب.. وعلى صعيد أخر، نجد غوغائية الخطاب الفلسفي الذي لا منهج واضح له، والذي يخرج على العوام فيُلَبِّس عليهم أمرهم، والخطاب الفقهي ما بين ذلك وذلك يتأرجح؛ فتارة يُخاطَب به أهل الفلسفة الذين يستوعبونه ولا يقبلونه منهجًا، وتارة يُخاطَب به العامي فلا يقوى على إدراكه.

(13). المعضلة الكبرى التي تواجهها فئة "أهل الحديث" والمعروفة شعبيًا ب"السلفيون" تتمثل في أَنَّها فئة بمنهجها تنعزل عن الحوار والنقاش والجدل؛ ذلك لأنهم يحرمون دراسة المنطق وبعضهم يسمح بقدر قليل منه عند الضرورة، ويحرمون دراسة الفلسفة مُطلقًا حتى الإنتاج الفلسفي للمسلمين، إلى جانب الرجوع إلى غير منهجهم الغاشم الجامد في استقبال الدين وفهمه.

اضطرَّ ابن تيمية من قبل، وهو رجل عظيم عندي في المجمل، إلى أن ينفي العلاقة البينية بين المنطق وقدرة الإنسان العقلية؛ ليُذهِلَ أهل المنطق برأيه إنَّ المنطق لا ينفع البليد ولا يضر الذكي.

ليفرض التعجب نفسه على أطروحته: وما مقاييس الذكاء والبلادة العقلية غير التفاوت في استخدام المنطق بأنواعه وصنوفه!! بل وما تطور المهارات النقدية التحليلية غير نتاج عن التعمق في استخدام المنطق!!

أرادَتْ هذه الفئة من المسلمين أن تقدم النص الديني على العقل القاصر، على حسب تعبيرهم الدائم، لينسوا في اللحظة نفسها أَنَّ المنطق أكثر موضوعية من النص المقدس للدفاع عنه أمام المدارس العقدية الأخرى!! وبذلك دعت هذه الفئة في الظاهر والباطن إلى تسليم المخالف للنص الذي هو في عيون الآخرين مزعوم القدسية الإلهية؛ ففشلت في الحوار مع الآخر، وانعزلَتْ في كهفها المظلم، حيثُ لا قدرة لأهلها على التمتع بالمنطق لفحص ما عليه، وفحص ما عليه الآخرون بالضرورة.

وأنا أقول هذا؛ لأَنَّ بعضًا من النخبة المثقفة يتعجبون من قدرة هذه الفئة على الجموح والانتشار بين الناس.

هذه أقرب فئات المسلمين إلى الجهلاء من الناس، وأنتَ تعرف حال المجتمع بما فيه ومَنْ فيه، فلا أحد متفرغ عقله لفحص ما يدندن به كل واحد منهم، وأغلبهم مثلهم لا أدوات منطقية.

أكثرُ ما يثيرُ حفيظتي أنا على الصعيد الشخصي، أَنَّ هناك أساتذة كبارًا في السلم الأكاديمي وفقا لرسائلهم العلمية يتبعون هذه الفئة، والمصيبة الكُبرى عن غير إلمام للمنهج نفسه، ولا أنسى قول أحد الأساتذة لي وهو في جامعة غير التي أدرس فيها، بأَلّا أستخدم عقلي في أمور الدين. ولمَّا أن عرضتُ أسبابًا موضوعية لحتمية استخدام العقل في الأمر الديني، صمت أو ربما بُهِتَ الذي لا يقوى على المحاججة.

وخلاصة القول: لم أعد أتعجب من رؤية إنسان ناضج العقل في الرقعة الأكاديمية، ولا يستطيع أن يدافع عن منهجه؛ واكتشفتُ بعدئذٍ أن ذلك أمر طبيعي جدًا، فهو نتاج منهج أحمق.

نصيحة إلى هذه الفئة: اعلموا بأَنَّ حياتكم لا ينبغي أن تكون مع غير العوام؛ فإذا خرجتم من هذه الدائرة إلى عقلاء المسلمين فخروجكُمْ محكومٌ عليه بالخسارة؛ لأَنَّكم لا تمتلكون بل لا تقرون بما عندهم، فالمنهج عندكم يحجب عقولكم عن فهمهم، أما إذا خرجتم إلى غير المسلمين بالنقاش، فأنتم تشوهون الدين من داخله لعجزكم عن عرضه من منظور عقلي.

(14). متى كان الجزء الأكبر من أوروبا متخلفًا، كانت السلطة الدينية البابوية تطغى على ملوك أوروبا حينها؛ فالعلاقة الديكتاتورية انطلقت من الدين بمساندة السياسة. أما في الجزء المتخلف من الشرق في هذه الأيام، فالرؤساء والملوك هم المسيطرون على السلطات الدينية؛ فالعلاقة الديكتاتورية تنطلق من السياسة بمساندة الدين..

عزيزي رجل الدين في مجتمعنا، إذا كنتَ غير منتبه إلى دائرة القمع التي تدور في فلكها، فحبذا تعي هذا لأَنَّ النخبة لَنْ تؤيدك أبدًا ما دمتَ ساعيًّا في توسيعها. وعلى الأرجح أنتَ تعرف لماذا الرسالة يجب توجيهها إليك، وأقول السبب إذا كان غامضًا؛ لأَنَّ الوعي الأكبر لعوام الناس في المجتمع بتوجيهكم، إذ نحنُ ما زلنا في عصر لا يستطيع كثير من الأفراد الاعتماد على عقولهم بدرجة كافية، لذا أنتَ لهم عماد عقل.

(15). إنَّ البداية الحقيقية لمشروع اللحاق الحضاري للعرب بالأمم المتقدمة، والحجر الأساس لاستفاقة العرب عن سبات من التأخر الحضاري والانعزال العلمي والإنتاج الصناعي عن سائر أراضي الحياة لثمانية قرون تقريباً، يتمثل في بناء التعليم وإصلاح جوانبه إصلاحًا يجعل من العربي قادرًا على اتخاذ قراره بمحض إرادته، إصلاحًا تُرفَع به الوصاية العقلية على العربي الفرد، وتُنزَعُ من تحت ضروسه التبعية القطيعية للجماعة، إصلاحًا يستعيد به العربي ثقتَهُ بنفسه دون اليقين في فشله وغبائه وتقدم كل ناطق بغير العربية عليه. والإصلاح الذي أشّرتُ إليه يجب أن يسبق فيه العقلانية على العناية بالآليات المادية. إنَّ العرب لَنْ تتقدم ما دامت تعتقد بأَنَّ سبب تخلفها احتلال بدأ منذ قرنين فحسب! لَنْ تتذوق العرب رائحة تقدم ما دامت لا تقرر جديًّا اللحاق بركب الحضارة، لقد خرجت اليابان من تحت أنياب الحرب العالمية الثانية مُنهَكة خَرِبة، ومع ذلك هي كوكب اليابان! والأمثلة في رأسي تمتد بين نماذج دول تم احتلالها ونهضت، وأخرى أنهكتها الحرب والصراع وهي الآن في ركب الحضارة

الإنسانية تشارك بفاعلية فيها.. أقولُ: يجب أن تشتعل منظومة التعليم لا سيما الأساسي منها بنيران الإصلاح الملتهبة؛ لأَنَّ الوقت يمضي سريعًا وليسَ ثمة وقت كافٍ للتنطع وقذف عِلل التأخر على الآخر، وليعلم ذوي النظرة المؤامراتية بأَنَّ جامعة القاهرة كانت جنبًا إلى جنب بالقياس إلى هارفرد وكيمبردج وأوكسفرد في درجات التقييم التعليمي قبل

1952. م.

(15). في ثنايا المجتمع الحديث الذي يكتظ بالتكنولوجيا والحدود الرقمية الثقيلة والمكثفة، ثمة حمولات ثقافية عصرية تُضاف إلى صديقنا الإنسان؛ ليزداد عناؤه في هذه الحياة ويشتد ويعظم في التجربة الإنسانية جمعاء، يصبح ذلك الذي لا يمتلك حسابًا فيسبوكيًّا شاذًا في عصر تفوّقت في أحضانه العوالم الافتراضية على العوالم الواقعية. أخذ الإنسان أو -إن شئتَ- قُل أغلب الإنسان، يعنى بصورته الافتراضية على حساب صورته الحقيقية، كما أخذ يعنى بصورته الحقيقية على صورته العاطفية، كما تدرج الانهيار الإنساني إلى حد بلوغ العناية بالصورة العاطفية على حساب الصورة الثقافية والعقلية. أخذ صديقنا الإنسان أو -إن شئتَ- قُل أغلب الإنسان، يعنى بالمصطلح الجديد في العصر الجديد "trend"

وترجمته في لغة العرب "اتجاه" ليصير بالتدرج يشتت انتباهه وفكره وتركيزه، ويعتاد على القراءات السريعة الظاهرية، وتحريك

عينيه لتمرير أكبر عدد من المكتوبات التي يتفحصها، أو -إن شئتَ- قُل يستعرضها. أخذ صديقنا الإنسان أو -إن شئتَ- قُل أغلب الإنسان، يستقي موثوقية الطرح الاجتماعي من خلال مواقع التواصل الاجتماعي؛ ويكأنَّها مكتبات أو تكاد أرقى وأثمن وأندى وأعمق، بل ويرى في المكتوبات محلاً لتضييع الوقت ولفت الانتباه في المجمل العام.. ليس هذا فحسب، إذ يدعوك المجتمع الجديد في العصر الجديد إلى تلك الإضافات القيمية، التي لا محل لها من فهمي وإدراكي المحدودين، في أحضان العوالم الافتراضية، وبين طيّات ضغطات وأخرى؛ لتسود في الصين سياسات امتيازية لأصحاب العوالم الافتراضية مثلاً، ويُخلَق في الإدراكات غير الواعية لكثير من الناس النظر إلى الإنسان بعين تشوبها سطحية تقييم مدى مهاراته الاجتماعية في إطار هذه العوالم البعيدة.. رُبَّ باتت الشخصية الإنسانية في أحضان هذا العصر الرقمي محلاً للموت الحي، أو إن شئتَ قُل الحياة الميتة، إلَّا الذي انتبه واقتصد وذهب إلى ما تقدمَّ في غير إفراط وأنشد الجدوى الدقيقة منها.

(16). إذا أردتَ أن تقمع مجتمعًا، فأقمْ لهم في نظام تعليمهم إجابة نموذجية لكل سؤال. بذلك ستحفر في عقولهم نمط الفهم الوحدوي، والتعصب لذلك الفهم وانعدام التنوع في حياتهم بل رفضه.

(17). إنَّ الذين يسألون عن قانون "ازدراء الأديان" والاعتقالات السياسية ذات القمع، وصعوبة قبول الآخر في مجتمعاتنا، وانعدام

قبول الخلاف والاختلاف حتى في أدق الأمور، عليهم أن يدركوا بأَنَّ القضية هناك محفورة يوم أن كبت الوالدان أسئلة طفلهما فلقّناه إجابة واحدة، ورحل إلى المدرسة طفلهما فنشطوا عنده نمط الإجابة الواحدة.

ثم يكون التعجب من تصارع الأفكار الداخلية بهذا الشكل البشع داخل المجتمع الواحد، ثم يكون التعجب من الجهل الجمعي وسواد ثقافة القطيع!

(18). إصلاح التعليم وتعزيز وتصليب التفكير المنهجي في رواسخ العقل الجمعي خطوة لا بد منها، إذا رغب المصلحون في إيقاظ الضمير الحضاري في المنطقة العربية، لكن الخطوة الأهم والأسرع تكمن في تمكين كل إنسان يحمل آيات نبوغ في أيّ مجال ارتضته الإنسانية بين مؤسساتها الأكاديمية. إنَّ هجران العلماء والمفكرين أخطر على المنطقة من فساد التعليم؛ لأَنَّ تجاهل النابغين يُماثل فقدان مَنْ يقوى على إصلاح سيارة فاسدة في مكان ساد فيه ادعاء إتقان فن السيارات! احتضنوا علماء العرب ومفكريهم وفلاسفتهم ومصلحيهم المعاصرين، وعُضوا عليهم بالنواجز، فهم الأمل الوحيد الذي ينتفي إذا ما أصابهم الفزع والإحباط.

(19). وأكثرُ الناس يرون دينهم الموروث ذلك الدين الحق مدخلهم النعيم، ويجاهدون في الدفاع عنه حتى الموت، ولا يظنون في ذلك تخطئة أبدًا، غير أَنَّ هنا يجوز السؤال: أليست هذه صدفة عجيبة أن يولدُ المرءُ ظافرًا بالسبيل الإلهي الوحيد دينًا ومذهبًا،

ودقائقهما دون عناء بحث أو جهد، ويُلقي بنفس اللوم على غيره من أبناء الملل والنِحَل الأخرى؟! إنها حقًا صدفة عجيبة، صدفة أن يُجمَع للإنسان كل ما توفر له من راحةٍ في الحيوات كلها، دون أن يكون له في سبيلها مسعى غير الاعتقاد بأَنَّ موروثه يصادف نعمة واجب الوجود وموجده.

(20). ومن المؤسف في واقعنا العربي أَننا نقارن بين الطغاة دائمًا، فنتمنى أن يعود الأدنى طغيانًا، لا سيما في باب السياسة.

(21). تحليلي لأزمات العالم العربي المعاصرة تجعلني أقول إِنَّ من المحزن في السياق العربي أَنَّ البارزين من المثقفين يشكلون جزءًا من الأزمة؛ لأَنَّهم لا يستطيعون الخروج من السياق لرؤية جذور الأزمة، بل هم يتفاعلون معها على نحو داخلي جدًا. وتوضيح تلك الإشكالية يتطلب تفنيدًا ليس له بسط متسعه حاليًّا، لكن سأحاول عرض رؤوس الأقلام، التي أجمل بها إدراك تلك الإشكالية على هذا النحو.

أولًا: هناك حِقبة مهمة جدًا في التاريخ لا يمكن قراءة الحاضر بغير تحليل ما جرى فيها من أحداث، وهي حِقبة تُعرَف بعصر النهضة العربية، في ذلك العصر بدأ احتكاك الثقافة العربية بالثقافة الغربية إلى حد معين، وذلك ظهر في صور عديدة منها: دخول بعض معطيات الثقافة الغربية مثل الطباعة، التي أول مَن جلبها نابليون بونابرت، والتي تعرضت للرفض من قبل ذلك، ومن هذه الصور أيضًا ابتعاث العرب للدراسة في بعض الدول الغربية مثل: فرنسا وإيطاليا وبريطانيا، وذلك بشبه التزامن مع توتر الحالة السياسية حيث وجود

الاحتلالات المختلفة حينها للمناطق العربية في أراضي رجل أوربا المريض.

ثانيًا: كان ابتعاث النابهين إلى الدراسة في الدول الغربية أمرًا ذات تأثير على العقل العربي الجمعي حينها؛ وذلك بسبب كتابة بعضهم عن الثقافة الغربية باندهاش وانبهار مثل: رفاعة الطهطاوي، مما اقترن في العقل العربي التقليدي العلاقة بين الدراسة في الغرب وبين انتهاك خصوصية الثقافة العربية.. بالإضافة إلى ذلك، أعتقد أَنَّ من الأمور التي أكدت ذلك الاقتران وعمّقته حدوث بعض الشِجارات الفكرية والتطاحن فيها على أساس ذلك، وأمثلة ذلك أظنها كثيرة ومنها على سبيل المثال: كتابة الدكتور طه حسين عن ضرورة الفصل المطلق بين العلم والدين.. أزمة الشِعر الجاهلي التي سببت انقلابًا كبيرًا في الضمير العربي ساعتها إلى حد أن شارك فيها كثير من العقول العربية الأدبية حينها.. الكتابات الصادمة المشككة في عدد من الرواسخ والثوابت الدينية الصلبة لبعض الكتاب من أمثال عالم الاجتماع منصور فهمي، وذلك في فترة إلحاده، كأن كتب في ظلم الدين للمرأة وبطلان صحة كتاب البخاري وغير ذلك.

ثالثًا: مشكلة هذا الاقتران العقلي بين الدراسة في الغرب وبين انتهاك الدين وخصوصية المجتمع كان له الأثر البليغ في خلق فجوة بين إدراك العالم العربي للغرب، ما كان من محفزاته الصغرى وجود ممثلين للعالم الغربي نفسه في الأراضي العربية، وبناءً على ما تقدّم عاش العالم العربي خلال القرن العشرين تحديدًا النص الأول منه في

صراعات دامية كان تأسيسها على التعاطي مع هذه الفكرة ككل، وهي تشبه في جوهرها حركة الشعوبية قديمًا، وإن كان السياق مختلفًا.

رابعًا: من أهم التوجهات الفكرية التي نشأت منذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى هذه اللحظة توجهات تتعلق بالنظر إلى العلاقة بين العلم والدين.. توجهات تتعلق بالنظر إلى التراث العربي.. توجهات تتعلق بالنظر إلى وضع المرأة في المجتمع.. وتوجهات تتعلق بالدين والسياسة.. وكل صراع فكري عربي تعايشه المنطقة يمثل الشكل الأبشع لتيار كان موجودًا في هذه الحقبة، وإن كانت الدعوة إليه لها سياق مختلف بعض الشيء، وأمثلة ذلك كثيرة منها: الدعوة إلى النسوية أساسها الدعوة إلى حقوق المرأة على أيادي رواد التوجه من أمثال هدى شعراوي وقاسم أمين، والدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية تعود أول ما تعود في تلك الحقبة إلى الإخوان المسلمين بعد فترة من نشأة الجماعة عام 1928، والدعوة إلى التوفيق بين العلم والدين تؤول أول ما تؤول في تلك الفترة إلى الإمام محمد عبده.. إلخ.

خامسًا: هناك إشكاليات تطورت وتعقدت بمرور الوقت، إذا ما أردنا التفريق بين شكل الصراعات الفكرية الراهنة وبين الصراعات التي كانت في القرن المنصرم، وعلى سبيل المثال: كانت بداية الكلام في مسألة الخلافة الإسلامية متأثرة عظيم التأثر بحدث سياسي إسلامي وهو: سقوط الخلافة العثمانية واستقلال تركيا وإعلانها جمهورية برئاسة مصطفى كمال أتاتورك عام 1923 ميلاديًا. خطورة هذا

الحدث تتمثل في كونه صادمًا لكثير من العقول العربية حينها، لا سيما أَنَّ الأمر متصل بفهم طبيعة الإسلام في السياسة، إلى جانب التزامن مع وجود الاحتلال الفعلي لممثلي الغرب، ووجود الاقتران بين الدراسة في الغرب وبين انتهاك خصوصية المنطقة، والدعاوي التي ظهرت حينها من خلع للبرقع، والذي يقترن عند ذلك النمط العقلي من التفكير بالتأثر بالغرب.. لذا، أرى ذلك كافيًّا لتفسير الشدة البشعة والصرامة الغليظة التي تحدث بها سيد قطب في مشروعه، والتي على ما يبدو كانت مناسبة لحدة الصدمة التي أحاطت بمجريات الزمن نفسه. منذ ذلك الحين، بدأت حدة الخطاب تزداد بمرور حدث صادم لجوهر الثقافة العربية، تحديدًا إذا كان شكله سياسيًا ذات طابع خصوصي، وهناك تطورات في هذا الشأن عزّزت من زيادة حدة العنف الداخلي للإسلاميين المشتغلين بالسياسة تجاه الغرب ككل، ومنها: قضية فلسطين حينها، وموقف بعض السياسيين السلبي منهم كاغتيال أحد أعضاء الإخوان المسلمين النقراشي بعد إصدار قرار بحل الجماعة. تعقد الحالة الدينية حينها من تضاد مع توجهات أخرى أدى إلى ظهور الصحوة الإسلامية السلفية في منتصف الستينيات تقريبًا، التي كانت تناهض المجتمع في أبواب عديدة، والمشكلة في هذا الصدد أَنَّ ذلك النِهاض كان عنيفًا جدًا ويُراد له أن يبلغ غاياته سريعًا، كالدعوة إلى تحجيب النساء وأسلمة السينما المصرية حيث كان بها ما بها من مشكلات عريّ ونحوه. نظرًا إلى حدة الغضب عند الإسلاميين وعظم الغايات عندهم، فاختلفوا في درجات العنف حيث اكتفى بعضهم بالعنف الاجتماعي

والتسلط عليه، وتوجه آخرون إلى نزاع الاغتيالات التي انتشر بعد ذلك، وبدأت الحركات الإسلامية الجهادية المسلحة بدءًا من القاعدة وانتهاءً بداعش. وكما أشّرت إلى سياق الشق الإسلامي السياسي هناك أيضًا سياقات لتبلور التوجهات الحالية.

سادسًا: مشكلة السياق الراهن للمجتمع العربي أنَّه يحوي غوغائية في الطرح لا حد لمنتهى عمقها، لا سيما أنَّ الدور الثقافي لبعض المُشار إليهم بالمثقفين انزلق إلى أضيق مناط السياق الذي نتحدث عنه، وهناك أمثلة كثيرة لهذه القضية منها: نشأة حركة ثقافية نقدية مضادة لتوجه معين؛ بمعنى أنَّنا إذا نظرنا في مشروع إبراهيم عيسى من خلال كتبه ومكتوباته التي تستخدم في الفن وكثير من مساحاته التليفزيونية، فسنجد مشروعه يتمحور حول نقاط معينة وهي: نبذ الخطاب الإسلامي السلفي المحض في إطار اجتماعي وسياسي.. الدعوة إلى تطبيق العلمانية.. التوفيق المُطلق بين العلم والدين، وإذا نظرنا إلى مشروع إسلام البحيري فربما تجد مجمل مشروعه يتمحور حول نبذ الخطاب السلفي في شكل اجتماعي وسياسي.. الدعوة إلى العلمانية.. والتوفيق المطلق بين العلم والدين.. وفي هذا الصدد، إشكاليّتي مع أمثال تلك المشروعات الفكرية أنَّها لا تُسمن ولا تُغني من تقدم مجتمعاتنا المحتضنة تعقيدات وسياقات لها تراكيبها التي ينبغي تحليلها، وهي لا تُفيد لأنَّها مجرد حركة مضادة لتوجه آخر، فضلاً عن أن يكون مشروعًا منهجيًّا يمكن أن يُبنى عليه، وهو لا يقل منهجية عن مشروع الإسلام السياسي. وإشكالية تلك المشروعات أنها تصرخ بماهية العاطفة؛

فأنتَ تجد التهكم على ابن تيمية ونكران جهوده بالكلية يضاد تعظيم الخطاب الإسلامي السلفي في كل من الخطاب الاجتماعي والخطاب الجهادي، من السهل مثلاً أن تلحظ الدعوة إلى حقوق المرأة بإفراط يضاد تمامًا الخطاب السلفي الاجتماعي والمُسلح في إفراطه في التحقير من المرأة.. في هذا السياق، تُبنى بنايات فكرية ضبابية بعض الشيء، كأن يدعو أولئك إلى حقوق غير المتدينين وحقوق المثليين جنسيًا، بل وإخلاء خانة الدين من البطاقة الشخصية، ويكأَنَّ هناك ضيق استيعابي لخصوصية الثقافة العربية بل بعض واضعي الأفهام جعلوا من الدين كمنظومة العامل الباعث على كل الأزمات من أمثال: الشاعر السوري أدونيس والكاتبة النسوية نوال السعداوي والباحث في شأن مجاال الدين السياسي سيد القمني.. والسؤال المُخزي الذي يصح طرحه هنا: وماذا بعد؟

سابعًا: التطاحن الذي حدث بين ممثلي الخطاب السلفي والتيار المذكور أعلاه أثناء الصراعات الثورية وبعدها كان له التأثير العميق في الحالة الفكرية العامة تجاه الدين؛ فبعض الشباب قد أُصيبَ بصدمة في مَن يزعمون الدفاع عن الدين فتسرّعوا في ترك الدين، والبعض الآخر زاد تعصبه لهم على إثر رؤيتهم يُحاربون ويُهاجمون، فتسرعوا في رفع السلاح؛ الأمر الذي أدى إلى المشهد الديني الحالي المتطرف فنحن أمام أنماط مختلفة من التطرف العنيف، بعضها داخل الدين وبعضها خارجه.

وإن كانت معظم الإشارات إلى أحوال مصر، فإنَّ الوضع لا يختلف كثيرًا في المناطق العربية الأخرى عن هذا السياق العام.. في ظل هذا الجو الملتهب، هناك أناس من مختلف التوجهات ساهموا في تقديم رؤى استيعابية لهذه الحال بدلاً من الرؤى المضادة، من أمثال: طه حسين في القرن المنصرم ويوسف زيدان في القرن الحالي، وهناك شخصيات يشتغلون بالمجال الديني أحسبهم قادرين عقلاً على استيعاب المشهد برحابة من أمثال: أسامة الأزهري وسعيد فودة.

غير أَنَّ مرور العقل العربي بتلك الصراعات المكثفة خلقت في نفوس العرب شيئًا من الضيق الانحيازي تجاه ما يجري في الشارع الفكري العربي، وذلك مرصود من مختلف التيارات الفكرية مع الأسف.

أقول: لا بداية حقيقية يمكن أن يكون لها الفضل المبدئي في الإصلاح إلا بإصلاح التعليم نفسه.. مرورًا بضبط مجريات ودقائق الخلل المنهجي بين صراعات التوجهات الفكرية المختلفة.. وانتهاءً بترك المجال قليلاً لوضع القيم الكلية التي تناسب المجتمع بما يحوي من خصوصية.. شخصيًا، أرى التريث النظري في استيعاب المجتمع أمرًا هامًا، حتى لا يتم الضغط العام على أهله بشكل يفوق ما هو راهن من الجوانب كافة.

(22). إنَّ جزءًا من أقذر ما في التاريخ الإنساني هو تنازع الساسة وسفكهم الدماء، لكن من الخطر جعل أولئك الأوباش قادة، على الناس أن يتمثلوهم قدوة.

كانَ الأعلون في هذا النوع الإنساني مَنْ ساهمَ في إنتاج حضاراته، وشارك في تقدمه، وأضاف إلى فاهمته وعلومه.. أَمّا عن الأسفلين من مرتكبي الجريمة والداعين إليها في سبيل إجلاب مصالحهم الشخصية، فينبغي دراستهم من هذا الباب فحسب، إذ لا قدوة ولا اقتداء ولا عظمة ولا تعظيم.

لقد كانَ الإسكندر الأكبر تلميذًا لأرسطو، فأيُهما بَقي؟ إنَّهُ أرسطو معلم البشرية، ذلك الرجل الذي حَدَّ للبشرية قواعد المنطق، وأنزل فلسفة أستاذه أفلاطون المثالية إلى الواقع، وكتب في كل فن.. في هذا الصدد، من العبث دراسة الإسكندر وأمثاله من باب التعظيم على حساب أرسطو، بل هو ضرب من ضروب الجنون إذا كانَ له في نفوس الناس ما كان في نفوسهم تُجاه أرسطو، أو أدنى قليلاً.

من الأهمية بمكان أن يُدرَج هذا في الحُسبان إذا ما أشّرنا إلى إصلاح التعليم وضبط شؤونه، إذ من أهمية الإصلاح بذر القدوة في نفوس الطلبة وتدريس سيرهم بقدر ما، إنَّما نحن في أمس الحاجة إلى تدريس طلابنا النَزعات الإنسانية كلها في التراث العربي الإسلامي، نحتاج إلى أن نفتح أعينهم وعقولهم على النزعة العلمية عند البيروني والخوارزمي وابن النفيس وابن حيان مثلاً، والنزعة الفلسفية عند الفرابي والكندي مثلاً، والجمع بين التفلسف والتفقه في الدين عند

ابن رشد وابن تيمية مثلاً.. نحن في أمسّ الحاجة إلى تدريس طلابنا النزعة اللغوية عند المعرّي والجاحظ والزمخشري، والنزعة الفلسفية الكلامية والعلمية كما عند الجاحظ وإبراهيم النظام، والجمع بين التفلسف والتصوف كما عند الغزالي.

نحن في أمسّ الحاجة إلى تدريس طلابنا القادة الحقيقيين في تراثنا العربي الإسلامي، في أمسّ الحاجة إلى إقصاء قادة الدم قليلاً، في أمسّ الحاجة إلى تهميش النزاعات الهمجية في التراث.. واعلم -سيدي القارئ- بأَنَّ النزاعات الهمجية حادثة في كل أمة، لكن من الشاذ جعل قادة الدم عظماء يصح الافتخار بهم، وغرس ذلك في نفوس الطفل والمراهق الصغيرين، وبناء عقولهما على ذلك النحو.

(23). في تقديري الشخصي، لا يحتاج مجتمعنا إلى التشدق بمسألة الثوابت من أيّ جانب وطبيعة، لكن هو فقط في أمسّ الحاجة إلى أن يمتلك ناسه القدرة البرهانية على ما يعدّونه ثوابتَ، وهذا لا يعني بالضرورة التخلي عن الثوابت المزعومة؛ لكنه يضمن للإنسان فردًا وجماعة أن يُكَوِّنَ ثوابته ويجادل فيها غيره، ويدافع عنها ويجددها، وكل ذلك يحتضنه البرهان والعقل والجدل، لا التلقين المخبول والجمود المَقيت. وبهذا المعنى أحسبني لا أنكر حقيقة الاختلافات العقلية بين البشر، غير أنني أنكر على الإنسان أن يكون محض أُلعوبة يتقاذفها سياقه الاجتماعي، لا سيما إذا اتصل ذلك بمسائل العقل، وأظنُ ذلك حقًا من حقوق الإنسان.

(24). أخبروننا بأَنَّ الأسن منّا بيوم أعرف منّا بسنة، لكنهم نسوا أن يعلمونا ما مقصدهم الدقيق من المعرفة ووسائلها.

(25). ثمة معاناة يعانيها الابن لا يقوى الأب على محو حدّتها محوًا كاملاً، لكن كان في مقدوره ألّا يأتي به إلى هذا العالم ببساطة..

الفصل الثالث: ضمير الإنسان الجمعي (100 إشارة)

(1). وأدركتُ مؤخرًا أَنَّ جانبًا من الحياة الإنسانية لا يحتاج إلى العقل المحض، بل أدركتُ أَنَّ هذا الجانب من حياة الإنسان جانب عظيم بين البشر، ما مؤداه أَنني أرى الحياة الإنسانية سياقات عديدة، لا يكون الجانب العقلي فيها غير سياق واحد، بل هو حاوٍ سياقات أخرى، يختلف أحدها عن أخيه.

(2). إِنَّ كبرى عقليات الإنسانية تئن بالشك في صغائر الأمور، فضلاً عن عظائمها، أما غيرهم من جمهرة الناس يضربون باليقين في عظائم الأمور، بل يتنازعون فيها ويتشاجرون عليها.

(3). إنما أكثر البشرية أتباع نفر قليل؛ ذلك لأَنَّ بناء الفِكر صعب وتمحيصه أصعب، وخلو الذات من الاثنين لا يكون غير التبعية، والتي مؤداها الاقتناع بفكر مصبوغ بإرادة واهمة، وهو في جوهره العميق لا يعدو إلا هروبًا من ألم التمحيص والبِناء.

(4). ما يتم إثباتُه بالعاطفة لا يمكن الجدال فيه بالعقل، وتلك قاعدة يجوز تطبيقها على نفوس من النفوس الإنسانية كثيرة، إن لم أزد في ذلك بتعميمه على أغلب الناس بالاستقراء.

(5). أستطيع أن أفهم الصراعات والسياقات السياسية والاجتماعية لسفك الدم بين البشرية تاريخها وحاضرها، لكنني لا أقوى على تعظيم شخصيات الدم تلك، ولا أرغب.. أولئك الذين

يستحقون العناية والدَرس حقًا هم الذين أفنوا حياتهم في الفِكر أو العلم أو كليهما معًا.

(6). إنَّ الناس لا يتكلمون في الحريات المطلقة إلا بإقرانهم الأخلاق القبيحة معها، ويكأَنَّ الإنسان لا يكتسب حريته إلّا إذا اكتسب حقه في الإساءة.

(7). وبعض الورى يحيون موتى في حين يموت بعضهم الأخر أحياءً، وما بين الصنفين فروقٌ بالغةٌ عَنان السماء لا يمكن وصفها مهما بلغت عِنان الأدباء.

(8). ويا ليتنا بدّلنا اللام والميم في "ألم" لتصبح أملاً، ويا ليتنا أسقطنا الراء من "حرب" لتصبح حبًا.

(9). مَن يستطع أن يسوس امرأة، فسأضمن نجاحه في حكم دولة.

(10). الحرية الجنسية تجعلُ من الإنسان حيوانًا، أي تعزز من محضية الاحتياجات الغريزية، والكبت الجنسي يُعمِّقُ تلك الحيوانية.

(11). إنَّ عصر سبي أجساد النساء قد انتهى وذهب بغير عودة إلى مكان لا يُعرَفُ له من الملامح شيء، لكن سبي عقول النساء ما زال موجودًا في كل ركن من جنبات البسيطة. ما يثير اندهاشي وجود النسوة اللواتِ يستمتعن بذلك النوع الجديد من السبي مستترات خلف الحركات النسوية دون السعي الجاد إلى نيل حقوقهن، والعمل على هدم أصول الأفكار وجذورها.

(12). لا تنجرف خلف كلمة "منطق/منطقي" التي يدندن بها الناس في أي حوار يعتريه الصراع؛ أكثرهم يريدون فقط أن يخفوا بواعثهم الشعورية في إطار عقلاني.

(13) يُخيلُ إليَّ شعور الخوف الإنساني دافعه خوفٌ آخر، ألا وهو الخوف من المجهول.. يبدو أننا مجبولون على الفضول، إلى حد أن يكون الفضول سابقًا على الخوف.

(14). ولا أعرف ظلامًا أشد ظُلمة من ظلام القلب

(15). إنني لا أعرف إنسانًا واحدًا لم يعترِهُ الألم قطُ، ليس هناك واقعٌ من أن تظن الألم مصنعًا يُنتِج لك وحدك!

(16). يستطيع الإنسان أن يحارب العالم بأسره، بل يتيقن من انتصاره عليه، فقط إذا كان آملًا! إنَّ للأملِ قوةً سحرية، قوة غريبة من شأنها أن تقلب موازين الذات الإنسانية، حتى وإن كان الأمل - في جوهره- مخدرًا لتجميل المستقبل.. هو طاقة لازمة لعقولِنا حتى لا تشمئز من هذه الحياة، ولأجسادنا حتى تساير الألم، ولأرواحنا حتى تجدد طاقتها.

(17). إنَّ جزءًا عظيمًا من جمال المرأة يتوقف على مدى قدرتها على إظهار البراءة.

(18). إنَّ من غباء الإنسان رغبته في الاستقواء عند عجزه، وخوفه من العجز عند قوته.

(19). يُخيل إليَّ الحبُ ويكأنهُ مُخَدِرٌ للمحب، ضريبةَ أن يحتسي من محبوبه لذةً عميقةً، حيث تنفض عن كتفيه معاناة هذا العالم.

(20). ولا أعرفُ فقيرًا أشد فقرًا من فقير الأمل.

(21). إنما مآل الإنسان إلى ذاكرته.. اعطني ذاكرةً جديدة، أبنِ لَكَ إنسانًا جديدًا.

(22). أذكرُ عن الأستاذ الدكتور طه حسين قوله:

يوجد دائمًا مَن هو أشقى منك، فابتسم.. من خلال استقرائي تراث هذا الجبل، فهو لا يريدُ أن يواسي قارئه، فيدعوه إلى إزالة الهم عن نفسه وشقائه، بل يدعوه إلى السخرية من الشقاء نفسه، أي يذكره بوجود الشقاء على تفاوت درجاته، فلا داعي لغير الابتسام من هذه الحقيقة.

(23). وخلاصة القول -يا صديقي- أَنَّهُ ليس في الحياة من خلاصة للقول، فانتبه. ما زالت الإنسانية تنضج.. وما زالت التجارب في ثناياها تتراكم.. فترقّب، إني معك من المترقبين.

(24). إنَّ العقول كالمعادن تمامًا؛ من الصعب أن تختار نوعها بمحض إرادتها، فالكل يفخر بنفسه لعجزه عن أن يكون سواه.

(25). يحتاج الإنسان أحيانًا إلى أن يحرق نفسه؛ ليتأكد من أَنَّ طاقته يمكن أن تتحول إلى رماد، والذي يمثل النقطة الأعمق لبذل الجهد نحو مساعيه.

(26). نحتاج إلى الدعابة، كما احتياجنا إلى الحزم والصرامة، نحتاج إلى المنطق، كما احتياجنا إلى الموسيقى.. ونحتاج إلى الحجة، كما احتياجنا إلى الحدس؛ تختلف السياقات الإنسانية ويبقى الإنسان محتفظًا بطبيعته.

(27). ليس هناك إنسان يخلو من حمق؛ حتى أذكياء البشر، يكاد يختص بهم صنف فريد من الحمق.

(28). إنَّما الحب لا يعرف محاسنَ أو معايبَ؛ ذلك لأَنَّ ذات المحبوب عند المُحِب تُمَيَّز بالكل لا بالجزء، فلو أَنَّ نفرًا زعمَ حب ذات لسمةٍ لا تنتمي في جوهرها إلى عمقه الأصيل، فذلك يصح أن ينعت بالانبهار وليس الحب.

(29). ولا أرى الكائن الإنساني شريرًا أبدًا، إنَّما صراعاته في الحياة بدءًا من الإشكالات الوجودية الكبرى، مرورًا بالنزاعات الجماعية السياسية والعسكرية، وانتهاءً بتنهيدة غضب يشكلها إنسان في وجه آخر، تشترك في عِلة كلية واحدة، أَلا وهي سوء الفهم.

(30). عملية التفكير الواضح لا يساهم فيها القدرة على التماس المنطق فحسب، بل القدرة على تخلية النفس من البغض الشعوري أيضًا.

(31). أظنني لا أبغض المجرمين من البشر، لكن ربما أبغض الجريمة.

(32). ولا أعرف شيئًا يستحقه الإنسان قدر استحقاقه للشفقة.

(33). إنَّ الإنسان في جوهر شهوته تجاه الحياة لا يرغب في الخلود، لكنه يرغب فقط في ألّا تدركه الشيخوخة.

(34). هناك ثلاث بنايات تشغل الضمير الإنساني وتسيطر على عالمه، تختلف طبائعها لكن تتداخل مضامينها، أرى وجوب فصل المقارنات بينها جميعًا وهي: المعرفة والدين والفن.

(35). أفضّل دائمًا الذي يُعَلِّم الطفل شيئًا على مَنْ يُنجبانه.

(36). إنَّ المال يساعد المرء في تحصيل اللذة، ليس السعادة بالضرورة.

(37). كَذَبَ مَن يزعم أَنَّ الحبَّ أرهق الطرق عسير المسير؛ إذ إنَّ الشكَّ أخطرُ المسالكِ على الإطلاق، فإذا كان العشق والجنون بالمحبوب -وإنْ لم أعِ هذا حقَّ الفهم- قد يصيب ذواه بالفواجع العاطفية، فالشكُّ يرمي بصاحبه في سبيل وعرة يلتهب فيها العقل متسائلاً غير متوقف باحثًا عن بغيته الكُبرى.

(38). إنَّ عجز المرء عن فهم العميق يقابله بالضرورة وعيه بالسطحي؛ فكلما ازدادت السطحية، غاب العمق ضرورةً، والعكس بالعكس.

(39). ولا تعدو نظرتي إلى الكائن الإنساني سوى قيد لغوي أحاول عن طريقه وصفه بطريقة إجمالية، وهذا القيد لا أجد له أعمق تعبيرًا من كلمتي "غلبان".

الإنسان: ذلك الكائن الذي هو سجين رغباته، واحتياجاته، وتعليمه، وذكائه، وميوله، وحدسه، وبواعثه النفسية، وثقافته، ومدركاته العقلية، وجسده، وكيمياء دماغه، وعصره، غير إنَّكَ لا تلبث أن تنظر إلى هذا الكلام بشيءٍ من الدرس حتى تجد نفسك تلتمس العذر لهذا الكائن، بدءًا من تنهيدة يطلقها إنسان في وجه آخر، مرورًا بالصراعات الثقافية، الأيدولوجية والحدسية، والنزاعات العسكرية والسياسية، وانتهاءً بشجارات الفلاسفة والمفكرين.

(41). سواءٌ علينا أقررنا بذلك أم لم نُقر، فإنما الخيال الإنساني سلاح ذو حديْنِ.

(42). لا يُستشار الإنسان في مجيئه إلى هذا العالم، كما أنَّهُ لا يُستشار عند رحيله عنه، وبين مجيئه ورحيله ينافح ويستميت في الدفاع عن نفسه التي لم يختارها محض الاختيار.. اعذرني أيها الإنسان، فأنتَ واقع بين أمرين: إما مغفل تحتاج إلى الإفاقة، وإما أحمق تحتاج إلى الشفقة، ولا عاصم لك من الغباء في الحالتيْنِ.

(43). ويقيمون عزاءً للإنسان عند موته؛ ألا فأقيموه عند ميلاده.

(44). إمَّا أن تسقوا الغِلاظَ أدبًا، وإمَّا أن تُقَرِّبوا إليهم غناء العصافير، وكل ذلك مآله إلى الموسيقى.

(44). إذا أردتَ أن تعرف إنسانًا حق المعرفة، فتأمل حاله عند حالين: أولاهما عند غضبه، وثانيهما عند طفل.

(45). وإنَّني لا أؤمن بالانطباعات ذات الموقف الواحد أو الموقفيْن؛ ذلك لأَنَّ الإنسان أعمق وأعقد وأثمن من تلك التقييمات الهامشية.

(46). ويبدو أَنَّ الإنسانَ موجودٌ في الحياة ليُسأل، لا ليُجيب عن أسئلته.

(47). يفتتح الإنسان حياتَهُ بدمعة، ويرغب في أن يختتمها بابتسامة، وما بين ذلك يتقلب.

(48). لا يحتاج الإنسان إلى بناء حجج منطقية لإثبات صحة ميوله الشخصية ودعوة غيره إليها؛ ذلك لأَنَّ الميل الشخصي نابع من الحدس حيث لا مكان للمنطق، مثال: أنا لستُ في حاجة للبرهنة على أَنَّ احتساء القهوة أمر مهم ولازم لغيري أن يفعله بنفس الدرجة التي لا أحتاج فيها إلى أحد محبي الكرشة أن يبني حجة منطقية للبرهنة على أهمية شيء نفسي لا تميل إليه، وبغض الطرف عن الأمثلة الساذَجة تلك، فإنَّ المشكلة على ما يبدو بين البشر تكمن في قياس موضوعية وذاتية الفكرة، هل مثلاً يحق للنباتيين أن يزيدوا في إنسانيتهم على آكلي اللحوم؟ أعتقد أَنَّ كل ميل فكري وسلوكي شخصي بحت ما لم يزعم الزاعم موضوعيته، وحينئذٍ يلزمه استخدام المنطق؛ ذلك لأَنَّ المنطق بكل صوره يمثل أداة الإقناع الفكرية بين البشر، أو كما أُسميه: السجن الإدراكي حيث لا حدة للخلاف البشري إلَّا بأقل قدر.

(49). التجربة الإنسانية تجربة رائعة؛ لا لأَنَّها جِدُ رائعة، بل لأنَّني لا أعرفُ سواها.

(50). لا ثَمينَ إلَّا ما جُعِلَ ثمينًا؛ فالإنسان حاكمٌ على الأشياء لا مَحكومٌ بها.

(51). لكل إنسان تجربته التي تحمل في طيّاتها نوعًا من الخصوصية والانفراد، غير إنَّ ثمة بشرًا يحاولون القضاء على هذه القيمة.. إنَّ النظر إلى تجارب الإنسان بمختلف أفكارها القومية والسياسية والدينية والاقتصادية ينبغي أن يكونَ ذا تمعن عاطفي في التجربة نفسها، فضلاً عن احترامها وتقديرها.

(52). التاريخ لا جدوى فيه؛ فالبشر أغبياء يقعون غالبًا في أخطائهم، إذ لا يحرك نزاعاتهم سوى التصارع.

(53). التعصب في كل حالاته وصنوفه خطر دامغ، إذ ينجم عنه العمى الإدراكي الغامض تجاه الأخر؛ فلا يستطيع المتعصب قوميًّا بغض الطرف عن جغرافيا منشأه، أن يرى إبداعات إنسان القوميات الأخرى، ولا يستطيع المتعصب دينيًّا أن يفهم الطرف الأخر من غير دينه، ولا يستطيع المتعصب لجنسه أن يلحظ إبداعًا لغير جنسه تحديدًا الجنس الأنثوي.. إلخ، وبذلك يتحول مجتمع المتعصبين إلى مجموعة من القطيع الذين يقلدون بعضَهم بعضًا ويحتكرون الحقيقة المطلقة ويدافعون عنها، دون محاولة النظر المُتَمعِن إلى غير مجموعاتهم التعصبية، أو كما أُسميهم دائمًا: المجموعات القبلية.

(54). لا يعني بالضرورة إلصاق سمة المعرفة والصداقة إلى كل مَن عاش معك حينًا طويلاً من الدهر؛ فالمعرفة العميقة بالنفس الإنسانية تتطلب رحابة عقل، والمعرفة السطحية تستلزم وقتًا، وإن لم تحوِ تلك الرحابة.

(55). نحن مختلفون، مختلفون في رغباتنا وآمالنا وأساليب حياتنا وثقافاتنا، لكننا مشتركون في سعينا إلى الإبقاء على الحياة والنجاة من شبح الموت.

(56). علينا ضبط أنفسنا عند كل شيءٍ: علاقاتنا.. رغباتنا.. إلخ، إلّا الخيال فإنَّ ضبطه مكروه.

(57). لا تُغير الموسيقى الواقع المؤلم في العالم الإنساني، لكنها قد تخفف من حدّته، أو هكذا يبدو لي.

(58). وقد يكون بكاء حاكم دولة أمام جمهرة من شعبه، مستشعرًا التقصير في حق موارد دولته وحاصل ما حصلته من تقدم في عهده، يبرز تحضرًا عميق الأثر يفوق آيات أخرى من التحضر.

(59). هناك مناطق معينة من الحياة الإنسانية لا يقترب منها أكثر الناس، ليس لأنهم جهلة بها، بل لأنهم ضعفاء.. متى تعلم تلك المناطق تحكم عليهم بالجهل، غير أنك ما تلبث أن تعي خطورتها وحيثياتها حتى تنتبه إلى تقدير هذا الضعف حق قدره.. حينئذٍ، تكتشف أَنَّ الكائن الإنساني كائن ضعيف بالسليقة، وأَنَّ هذا الضعف هو رفع الحرج عن البحث في الذي اكتشفت مداراته، هنا

يكمن الرفق بالإنسان والإشفاق بحاله، لا لومه لعدم قدرته على الخوض في تلك المدارات عينها.

(60). قضايا الدين واللادين إحدى عظمى المسائل الشائكة بين البشر، إن لم تكن هي العظمى على الإطلاق، لذا أرى ضرورة عدم الخوض فيها إلّا من منطلق استيعابي لإفرازات التجربة الإنسانية على اختلافها.. وفي هذا الصدد، كلما ضاق عقل الإنسان، يوشك أن ينغمس إدراكه في وعاء فكري لا يستطيع رؤية ما يجري خارجه.

وفي تقديري الشخصي، وحسب فهمي المحدود والذي يقبل التغير والتطور، هذه القضايا الشائكة ليست شائكة في مجتمعات دون أخرى، أو في ثقافات دون غيرها، أو بين أفهام معينة وإقصاء أخرى، أو نحو ذلك من المعطيات الممكن رصدها.. إنَّما هي قضايا تحتل أعماق الإنسان فردًا ومجموعة، كبيرًا وصغيرًا، عظيمًا وحقيرًا، قديمًا وحديثًا، إلى غير ذلك من الأبواب الواقعية للمسألة، والتي تُشرِك البشر جميعهم في التفاعل مع الأسئلة الوجودية الكُبرى الثلاثة: من أين جئنا؟ ولماذا نحن هنا؟ وإلى أين المصير؟

مشكلة الخطاب العالمي لهذه القضايا، والتي يشترك فيها عدد هائل من البشر، تتمثل في عدم مراعاة خطورة وتعقد القضايا نفسها؛ بمعنى أَنَّ الخطاب يكون عادة على نحو ترويجي لإفراز معين من إفرازات التجربة الإنسانية، وهذه مشكلة تبدو خطيرة بالنسبة إليَّ على نحو بعيد جدًا؛ ذلك لأَنَّ الدعوة إلى إفراز معين أمر يوشك أن يتجاهل ما أدى إلى تعدد الإفرازات بين البشر أصلاً.

إنَّ الإنسان لا يتألف من عامل واحد يشكله ويتفاعل معه، بل وجود عوامل مختلفة في حياة الإنسان الفرد من شأنها أن تحتل أعماقه؛ مما يؤدي بالضرورة إلى تعدد طرق وأساليب إدراكات تكوين الاعتقادات الشخصية له، وذلك من الأهمية بمكان أدراجه في الاعتبار عند الحديث عن أعمق وأخطر مسألة في حياة الإنسان، لا سيما أنَّ التجرد يحتم على كل منصف موضوعي أن يقر بأنَّ اعتقاده في هذا الباب قطعي عنده فحسب، ومع ذلك فإنَّني ألتمس العذر لصديقي الإنسان لعدم مراعاته هذه المسألة؛ إذ أنَّ خطورة الموقف تفرض على أكثر البشر القطع بآرائهم؛ وذلك من باب الإشكاليات التي يقترحها كل طرف على الأطراف الأخرى، وربما يكون ذلك كافيًّا لهم للقطع بصحة رأي كل طرف منهم.

لعلَّ أهم ما أرغب في التوكيد عليه حين الإشارة إلى تلك الموضوعات، والذي أراه أمرًا موضوعيًّا بعض الشيء، أن ينبغي مراعاة الإنسان راحته الشعورية تجاه ما يعتقد، لا سيما إذا كان بلوغه ما يعتقد ليس وازعه التجرد الفكري، والذي هو نادر في هذا الباب تحديدًا.. وهذه الرحمة بالإنسان أتمنى تعميمها في كل جانب من جوانب الحياة، وليس هذا الباب فحسب، ويمكن تحقيقها بين مستويات الإدراكات المختلفة إذا ما تلاقت؛ بحيث يستطيع الرحب عقلاً أن يستوعب الأدنى منه رحابة، مع تيقنه من عدم قدرته على استيعاب مضمون ما يتحدث به معه، إذا سئلَ أحد عوام المسلمين: "أين الله؟" لتكون إجابته أنه في السماء، هنا ينبغي توقف النقاش عند هذا الحد، ولا داعي مطلقًا لعرض إشكاليات تجعله يتألم

شعوريًّا.. إذا ما أجزم أحد بعدم وجود إله، أي كان ملحدًا إيجابيًا، وكان استدلاله في هذا المحل مشكلة الشر بغير تفصيل فيها بطريقة منهجية، فأرفض مُطلقًا أن يتم نقاشه، لعرض حجج وجود الإله ومدارات الخلاف فيها، بالإضافة إلى التفصيل في معضلة الشر ومعضلة الاختفاء الإلهي. إذا أشكل متدين على لا ديني لا أدري أو ملحد على ربوبي أو ديني في باب اعتقاده سائلاً: "مَنْ خلقَك؟" فأرفض تمامًا أن يُكشَف للسائل ما يجعل سؤاله لا منطقيًّا أصلاً. إذا قال لا ديني بأَنَّ الدين باب من أبواب الخرافة، فأرفض تبيين له انحيازه غير المنهجي.. أرفض تمامًا أن يدخل عوام الناس في هذا النقاش، وإن أشكل أحدهم على الطرف الأخر، ذلك لأَنَّ هذه المسائل مشكلة كبرى ومُختَلَف عليها بين المنهجيين أنفسهم.

يؤسفني القول إنَّ معظم الخطابات العالمية عامية الطابع، ولا ترتقي إلى الاعتداد بها إلّا من باب غير منهجي، مما يُحتم عليَّ شخصيًا الدعوة إلى التراحم بين الناس، منهجييهم ولا منهجييهم، كأولوية عادة ينفذها واقعيًّا الأرحب صدرًا مع الأدنى منه رحابة؛ وذلك وازعه الوحيد إدراك خطورة المسألة وتعقدها من الجوانب كافة، ومجتمعنا العربي يقع من ذلك الخطاب موقعًا لا يعنيني كثيرًا الانشغال به؛ وذلك لسببين اثنين، أحدهما أَنَّ المجتمع العربي هو جزء من الصورة الكاملة، والذي ألتمس لجميع أطرافه عذرًا صادقًا لغوغائية الخطاب، وثانيهما وجود مشكلات اجتماعية وتعليمية تساهم في غوغائية الخطاب على نحو قد يربو على الحد الطبيعي بالقياس إلى مناطق أخرى كثيرة من العالم؛ فلا أرى بدًا عظيمًا من تسليط الضوء

على بعض التنميطات التي تئن بالمغالطات الصريحة كأن يرى المتدين غير المتدين مريضًا نفسيًا أو شهوانيًا أو عميلاً يتلقى تمويلاً من الغرب، أو أن يرى غير المتدين المتدين جاهلاً أو متخلفًا.. فالأمر أراه كما أوضحت: ينبغي الإشفاق على البشر والرحمة بهم عامة، لا سيما في هذا الباب مما يفسر عظيم الخطابات الغوغائية في العالم بأسره بدرجات متفاوتة.

(61). إنَّ جزءًا من أقذر ما في التاريخ الإنساني هو تنازع الساسة وسفكهم الدماء، لكن من الخطر جعل أولئك الأوباش قادة، على الناس أن يتمثلوهم قدوة.

كانَ الأعلون في هذا النوع الإنساني مَنْ ساهمَ في إنتاج حضاراته، وشارك في تقدمه، وأضاف إلى فاهمته وعلومه، أَمّا عن الأسفلين من مرتكبي الجريمة والداعين إليها في سبيل إجلاب مصالحهم الشخصية، فينبغي دراستهم من هذا الباب فحسب، إذ لا قدوة ولا اقتداء ولا عظمة ولا تعظيم.

لقد كانَ الإسكندر الأكبر تلميذًا لأرسطو، فأيُهما بَقي؟ إنَّهُ أرسطو معلم البشرية، ذلك الرجل الذي حَدَّ للبشرية قواعد المنطق، وأنزل فلسفة أستاذه أفلاطون المثالية إلى الواقع، وكتب في كل فن في هذا الصدد، من العبث دراسة الإسكندر وأمثاله من باب التعظيم على حساب أرسطو، بل هو ضرب من ضروب الجنون إذا كانَ له في نفوس الناس ما كان في نفوسهم تجاه أرسطو، أو أدنى قليلاً.

من الأهمية بمكان أن يُدرَج هذا في الحُسبان إذا ما أشّرنا إلى إصلاح التعليم وضبط شؤونه، إذ من أهمية الإصلاح بذر القدوة في نفوس الطلبة وتدريس سيرهم بقدر ما، إنَّما نحن في أمسّ الحاجة إلى تدريس طلابنا النَزعات الإنسانية كلها في التراث العربي الإسلامي، نحتاج إلى أن نفتح أعينهم وعقولهم على النزعة العلمية عند البيروني والخوارزمي وابن النفيس وابن حيان مثلاً، والنزعة الفلسفية عند الفرابي والكندي مثلاً، والجمع بين التفلسف والتفقه في الدين عند ابن رشد وابن تيمية مثلاً، نحن في أمسّ الحاجة إلى تدريس طلابنا النزعة اللغوية عند المعرّي والجاحظ والزمخشري، والنزعة الفلسفية الكلامية والعلمية كما عند الجاحظ وإبراهيم النظام، والجمع بين التفلسف والتصوف كما عند الغزالي وابن سينا.

نحن في أمسّ الحاجة إلى تدريس طلابنا القادة الحقيقيين في تراثنا العربي الإسلامي، في أمسّ الحاجة إلى إقصاء قادة الدم قليلاً، في أمس الحاجة إلى تهميش النزاعات الهمجية في التراث.. واعلم، عزيزي القارئ، بأَنَّ النزاعات الهمجية حادثة في كل أمة، لكن من الشاذ جعل قادة الدم عظماء يصح الافتخار بهم، وغرس ذلك في نفوس الطفل والمراهق الصغيرين، وبناء عقولهما على ذلك النحو.

(62). هناك ثلاثة نظم كبرى تسيطر على جوهر ومضمون الإنسان بدرجة من السذاجة بمكان أن يُستهان بها، وهي: العلم والدين والفن.. على الرغم من تداخل موضوعات ومجريات تلك المنظومات الكبرى ذات التأثير الجدير بالاهتمام في الضمير الإنساني،

فرأيي أَنَّ الفصل بين منتوجات هذه الثلاثة أمر لازم من الصعب تجاهله بدون الوقوع في صراع لا ينتهي بسهولة، وأستطيع تدعيم وتصليب رأيي هذا عن طريق تفصيل التباين الجذري في اِلتماس منهج موضوعي تتكئ عليه كل منظومة من الثلاثة، ما يتطلب من الإنسان نفسه التفريق الضروري بينها وذلك أمر محال سرده في سطور معدودة ومع ذلك، فيمكن إيجاز الأمر في الآتي:

الإنسان كائن معقد، ومدار تعقيداته غير مقصور على صنف معين من التعقيد الذي يتطلب تفكيكًا لمحاولة فهمه، كأن يعنى بتعقيداته البيولوجية التي تحتم أسئلة من التعقيد الاتكاء على ركن واحد من أركان البيولوجيا للإجابة عنها ومحاولة إدراك الأمور المرتبطة وفهمها، بل يتجاوز مدار تعقيدات الإنسان هذا الصنف الواحد بين أجزائه؛ لتظهر تعقيداته ماثلة في اختلاف الجوانب الإنسانية نفسها وتداخلها مع بعضها بعضًا. وهذا مثال لإيضاح الأمر: وجود العاطفة وآليات التفكير ضمن المكونات الوعوية للإنسان، دراسة تعقيد هذه المسألة غير مقصورة على فرع واحد من الفروع المعرفية المرصودة في عالم الإنسان، بل قد أتطرف وأقول بأَنَّ معظمها تعنى بالقضية من أبواب متباينة.. الفلسفة مثلاً، تحديدًا فروع الفلسفة التحليلية، تحاول أن تضع وتؤصل المقصودات الدقيقة من العاطفة، وإلى أي مدى يمكن استخدامها من حيث المنهج الاستدلالي البرهاني، وترصد المناهج المنطقية المتنوعة وتطورها عبر التاريخ الفلسفي وحدودها في اِلتماس الحقيقة، وتقيم تداخلات ذلك مع النظام الأخلاقي للإنسان، وتحدد مجريات الوعي ودقائق الإشكاليات المنهجية في كل باب... إلخ، هذا

في الوقت نفسه، ينسج الأدب شعره ونثره حول نفس القضية في إطار صراع داخلي أو خارجي يعيشه بطل العمل الأدبي.. أما البيولوجيا وعلوم الأعصاب والوعي، فتحاول أن تصل إلى أصول دقائق القضية من حيث وجودها المادي التشريحي التطوري.. أما الدين فيختلف الأمر باختلاف الدين نفسه؛ فالمسيحية والإسلام ينشغلان بتوضيح العلاقة الكلية بين العقل من جانب والوارد ذكره في النصوص الإلهية المقدسة، وفي هذا الصدد مدارس ومذاهب حاولت أن ترسم رؤى في هذا الشأن، في حين أنَّ هذه القضية يمكن إدراكها ومقاربتها في بعض الأديان الآسيوية عن طريق وجود العادات التي تحفز التأمل والعناية بالقيمة الماورائية للروح ونحو ذلك.. أما علم النفس فيحاول أن يصنف الاختلالات النفسية التي تنشأ عن مجريات الموضوع من مشكلات في عدم تنظيم الشعور، وضبط بعض المسائل المؤثرة إيجابًا أو سلبًا في المهارات العليا عند الإنسان كالذاكرة واللغة ونحو ذلك، إلى غير ذلك من القضايا التي يتفاعل فيها مع البيولوجيا، وإلى غير ذلك من تراكمات المعارف في عالم الإنسان.

السؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل يصح أن نقر بإحدى النظرات لفرع من الفروع المذكورة أعلاها، في حين نضرب بالأخرى عرض الحائط بدعوى أنَّهما غير متوافقين من حيث النتيجة؟ رأيي أَنَّ هذا باب من أبواب الخبل لعدم مراعاة الأسس المنهجية الدقيقة لكل فرع، حتى وإن تداخل الجميع في دراسة موضوع مشترك.

هذا هو الحادث تمامًا مع العلم والدين والفن؛ فكلٌ له مناهجه الدقيقة في فهم مدارات بحوثه، حتى وإن تداخلت واشتركت في بعض الأحيان.. في هذه الحالة، لا يصح قبول قياس منتوجات العلم على صحة الدين، ولا يصح قبول قياس منتوجات الفن على منهجية العلم، ولا يصح قبول قياس صحة الدين على منهجية العلم.. لا يصح خلط المفاهيم الإدراكية المتعلقة بالأمر، كأن يرفض العالِم اللاديني أبحاث العالِم المتدين فقط لأنه متدين، أو أن يرفض العالِم المتدين أبحاث العالم اللاديني فقط لأنها مخالفة لما ورد في دينه، أو أن يحاول العالِم أن يُحاكِم أعمال الفنان وفقًا لمنهج العلم.

إنَّ المشكلة الكبرى تكمن في ضرورة التفريق بين المنظومات الثلاثة الاختلاف نفسه في المواقف المتباينة من تقييم المناهج هذه بين الشخصية الذاتية غير اللازمة وبين الموضوعية التي توجب الإلزام بدرجة معينة، لذا وجب تحرير محل النزاع عن طريق الاتفاق الضمني وارتضاء منهج دقيق لتقييم أثره بشيء من الموضوعية؛ فلا يتحدث أهل العلم في غير العلم لارتضائهم مناهجه، حتى وإن اختلفوا في تقييم المناهج الدينية والفنية، ولا يتحدث أهل الأديان إلّا في المناهج الدينية لارتضائهم إيّاها، ولا يتحدث أهل الفن في غير المناهج الفنية لارتضائهم إيّاها كذلك.. وبذلك لا تختلط المناهج المختلفة في الحكم على مسألة مشتركة تتناولها صنوف شتى من المناهج المرصودة، وللتأكيد: لا يعني ذلك بالضرورة عدم القدرة على التمتع بها كلها في آنٍ واحد؛ فقد يكون العالِم متدينًا لكنه يعي عدم أهمية تدينه إذا ما تحدّث في مسألة علمية، وقد يكون الفنان عالمًا

لكنه يعي عدم أهمية علمه التجريبي إذا ما تحدّث في مسألة جمالية فنية لها منهجها، وقد يكون المتدين فنانًّا لكنه يعي عدم أهمية المناهج الفنية إذا ما تحدّث في مسألة دينية. أقول: لا يتطلب الاختلاف المنهجي بين تلك المنظومات الثلاثة نوعًا من التعجرف والتشنج والتعصب، بل بالأحرى التماس الحيادية المنهجية التي يستدعيها كل أمر بحثي على تباين مضمونه ومناهج بحثه، ويصعب تطبيق هذا التفريق لرسوخ المنظومات الثلاثة في الضمير الإنساني، ما يزيد من التعقيد عمقًا، وليس بسبب صعوبة التفريق المنهجي نفسه.

(63). لستُ متخصصًا في علم النفس، لكنه رأيٌ استخلصته من قراءتي في الإنسانيات والآداب عامةً، وعلم النفس خاصةً.. تؤول معظم الخلافات في العلاقات الاجتماعية بين الناس إلى سبب رئيسي وهو سوء الفهم، ما من الأهمية بمكان الإشارة إليه هو أنَّ سوء الفهم نفسه ليس نمطًا واحدًا من حيثُ الجوهر والعلامات، إذ ينقسم إلى صنوف عدة، منها ما يتصل بالانطباع الإدراكي، ومنها ما يتصل بالاختلاف الثقافي، ومنها ما يتصل بمراعاة وإشباع الحاجات المختلفة عند أطراف العلاقات الإنسانية.

الانطباع الإدراكي: انطباع يغمر أحد أو كلا طرفي العلاقة الإنسانية بسبب تحقق نتيجة اقترانها بسبب موجود في العقل بشكل خاطئ أو منقوص أو مشوّه، مثال: بينما ينتظر أحمد وأسرته قطار الأسكندرية، خرجَ عليهم صبيان يمازحونهم إلى حد أن كاد أحد

أطفال أحمد يسقط على قضبان السكك الحديدية، ذهب إلى عقل أحمد أَنَّ لأولئك الأطفال والدين مهملين؛ إذ كيف لهما أن يتركاهم هكذا بدون اهتمام في مثل هذا المكان الخطير؟! قرّر أحمد أن يذهب إلى والديهم، لكنه لم يجد غير رجل يبكي اجتمع حوله الناس يقول بحرقة: ماتت زوجتي ولم أعرف أين أولادي!! أدرك أحمد أَنَّ الرجل ليس بالضرورة مهملاً لعدم ملاحظة انفلات أطفاله منه في محطة القطار، بل هناك موقف مُحزن مؤلم يعيشه الرجل على إثر وفاة زوجته واتخاذه القطار وسيلة لتعزيتها.

الاختلاف الثقافي: خلاف يحدث بين أطراف العلاقة الإنسانية بسبب وجود اختلاف في أسلوب الحياة أو تناول أمر من الأمور وفق معيار تعززه ثقافة الإنسان، مثال: مريم طالبة مصرية جامعية، انبساطية تجذب كل طلاب فرقتها، فهي تسأل أسئلة تنم عن ذكائها، وتجيب أساتذتها بأجوبة دقيقة.. مريم فتاة مُحافِظة متدينة، ترتدي الخمار الطويل وتتمسك به، لأَنَّها تعده النموذج المثالي للباس المرأة المسلمة، لكن لمريم موقف واضح تجاه منار وأماني.. كانت تقول بأَنَّ منار ذات أخلاق سيئة، ولا تعرف الحياء أبدًا ولا تتمنى أن تصادقها؛ فهي ترتدي الحجاب القصير ولا تنضبط بمعايير اللباس الشرعي، وهي بذلك ليست ذات أخلاق، هذا وقد وصفت أماني بإدعاء الأخلاق والغلو في الإدعاء، لأَنَّها ترتدي النقاب.. في هذا المثال، كان الانطلاق في الحكم على وجود الأخلاق بشتى درجاتها الرداء في ثنايا ثقافة معينة.. هنا المكونات الثقافية نفسها هي التي خلقت نوعًا من النفور

النفسي بين أفراد المثال؛ فلو كان الحكم موضوعيًّا لما حكمت مريم بأيّ حكم إلّا بعد معرفة عميقة بمنار وأماني.

مراعاة أو إشباع الحاجات المختلفة عند أطراف العلاقة الإنسانية: خلاف يحدث نتيجة لإشباع حاجة معينة عند الإنسان عن طريق وسيلة تضاد حاجة الطرف الآخر، مثال: رسب طفل في الصف السادس الإبتدائي في امتحان العلوم، فضربه أبوه ضربًا شديدًا.. في هذا المثال، كان الأب يعبر عن حبه لطفله بطريقة جعلت طفله يستنبط الكره، لما وقع في نفسه من أذى.

لا أحسب عاملاً من شأنه أن يُخَفِّف من حدة الخلافات بين العلاقات الإنسانية غير عامل واحد، إلى الحيادية أشير والحيادية -في هذا الصدد- ينبغي أن تكون حيادية فكرية، بحيث لا يكون الحكم على الإنسان وإدراك سلوكه من منطلق ضيق، ما يجعل المرء يشكك في فهمه قدر الاستطاعة، ويجب أن تكون حيادية شعورية بحيثُ لا يكون سلوك الإنسان تُجاه الآخرين سلوكًا غوغائيًّا وازعه الغضب مثلاً.

(64). تراث كل أمة إنسانية هو المستند الوحيد لوجودها في الماضي البعيد في الإنسانية، وفحص أثر أسلافها في سياق جزئي، يتفاعل مع السياقات البشرية الأخرى حينها، إذن: كل تراث يختص بأمة هو مجدها، أو بمعنى أدق: هو البرهان على مجدها. وإقران التراث بالمجد مفهوم أعنيه؛ ذلك لأَنَّ الأمة الإنسانية التي بلا تراث هي أمة

غير قادرة على إثبات وجودها، وإن وُجِدَت وعَظُمَت عددًا من أمثال الهنود الحمر، أما التي وضعت تراثًا فهي بالضرورة أثبتت وجودًا.

والدعوة إلى النظر في التراث دعوة لا تقتصر على العرب فحسب، بل ذلك دأب كل أمة تبني نفسها؛ إذ حال الأمم بين أمرين: أمم حديثة عهد بالميلاد الإنساني فليس لها تراث، الأمر الذي يجعلها تأخذ عن الأترثة الموجودة في سبيل البناء وبلوغ الشباب والنضوج. أما ما عليه الأمم من الأمر الثاني، فمآله إلى وجود تراث بالفعل ينبغي ضرورةً الرجوع إليه وفحصه، وذلك بعد طول دهر حال بينها وبين تراثها عظيم أمور.

كل الذين ينظرون إلى التراث العربي باعتباره ناصع البياض أو السواد مخطئ متطرف لا يرغب في الإصلاح؛ ذلك لأَنَّ معيارية البياض والسواد، والتبرك والتلعن، والشيء وضده، لا تتصل بالنظر المُنطلَق من الشخص نفسه، وإنما تدخل فيه عوامل كثيرة منها: عامل المتغيرات الزمنية.. المناهج الكلية المؤثرة في العقل الجمعي لكل أمة على حِدَة.. إلخ. بالإضافة إلى ذلك، ليس الغاية من فحص تراثنا العبث بالماضي أو تشويهه، أو الافتخار أو تبجيله، أو نحو ذلك من الدوافع النفسية المحضة، وإنما الغاية الرغبة في فهم العقل الكلي للأمة عبر سلسلة من المقاربات في الحِقَب المختلفة، وبناءً على ذلك يبدأ العقل الحاضر للأمة بالنهوض؛ ذلك بعد تثبته من نقاط قوته وضعفه في الأزمان المختلفة، ومعالجة كلا الأمرين بالنظر في الحاضر وإعادة البناء من جديد.. حقًا أنا لا أخترع أو أبتكر جديدًا؛ بل هذا

ما يفعله البشر جميعهم عند المآسي والأزمات الحضارية، والشعور الجمعي بالتخلف لا التقدم، والانحدار لا الازدهار.

بينما هناك أمم إنسانية في العالم المتقدم تُعيد قراءة تراثها كل عقدين من الزمن، فأمتي تقف من هذا المبحث موقف الرهبة والعض على اللسان بالذعر.. في تقديري الشخصي، هناك سببان أساسيان في هذا المحل: أحدهما يتعلق بغوغائية الطرح وعدم الضبط، والآخر متعلق بغياب الأولويات.. ولتفصيل الأول أقول: معظم الداعين البارزين إلى تجديد التراث لا يريدون تجديده بالمعنى الذي ينبغي أن يكون عليه، بمعنى النظر المنهجي فيه وفحصه ثم الخروج منه بفهم يساهم في معالجة ما أشّرنا إليه من قبل، وإنما هم فقط يريدون أن يتشاجروا معه أو يعبثوا به في سياق افتراق وانقطاع وقطيعة، لا تحليل وِالتقاء ومقاربة.. إضافة إلى ذلك، نظر الداعين إلى التراث العربي على أَنَّهُ التراث الديني لا تعدو كونها نظرة اختزالية مفضوحة ومكذوبة، ما جعل الاقتران الذهني عند الناس في العقل الجمعي ذا شأن بتجديد الدين نفسه، وعليه أقول: فض النزاع في هذا المحل له جانب واحد فقط لا ألحظ سواه ألا وهو التعليم. يؤسفني القول بأنَّ الأمة العربية تمر بأزمة حقيقية إلى حد أن أصبح أغلب المتحدثين في شأن النهوض بها لا يعون المشهد التراثي جيدًا، وهذا إشكال خطير في حد ذاته لاتصاله بالعقل ومتعلقاته، ولتفصيل الأمر الثاني أي غياب الأولويات، أقول: على أكثر المشتغلين في هذا المحل إدراك أَنَّ الغاية التي ليس بعدها غاية من فحص التراث وتجديده هو الفهم العقلي فحسب؛ فليست الغاية قراءة التراث بعين الحاضر

للمواكبة، أو قراءة التراث الديني فقط لتفسير المشهد الديني الصراعي، بل ينبغي قراءة التراث بشكل كلي وعلى نحو متجانس ومتكامل، وهذا الأمر يبدأ أول ما يبدأ بقراءة الذين جعلوا للعرب وجهًا يقابلون به العالم من الموسوعيين المشتغلين بالعلوم والفلسفة والفقه.

إنَّ تجديد التراث ليس المقصود به الجدل في سن زواج عائشة زوج النبي، محاولةً نفي زواج الصغيرات عن الأمر الإلهي في الدين الإسلامي؛ ذلك لأَنَّ ثبوت ذلك أو عدم ثبوته مآله إلى قوانين الزمان نفسه، واستحضار معطياته، والعلم بمجريات اجتماعياته، أو بمعنى أكثر شمولية: ليس من المطلوب أن يتأثر الشعور الحدسي الحاضر للإنسانية بما اتصل بالزمن القديم من نواحي وأحداس شعورية أخرى، تساهم في تكوين الاستحسان والاستقباح العقليين، بل ما سبق وأمثاله من الموضوعات المُخِلة لا يحوي ذرة من منهجية يتم التحاكم العقلي إليها. أقول: تجديد التراث مرحلة طويلة وشاقة، ويجب أن تكون منهجية تبدأ بفحص جهود الذين جعلوا لنا وجهًا نقابل به العالم، وإدراج جهودهم التي ما زال لها أثر في سياق تعليمي محترم، ثم الاشتغال التدريجي بإصلاح معطيات العقل الجمعي الحاضر الذي يئن آسفًا بالضيق الغريب. هي مرحلة لا يصح أن يُقصى منها أحد؛ إذ يقف المشتغل بالإنسانيات من أدب وفلسفة وعلم نفس واجتماع وغيرها والعلوم الدينية والعلوم التجريبية إلى غير ذلك الكثير من هذا المشروع موقف المسؤولية. والعقبة الكبرى التي تحول بين ذلك المشروع المشترك بين الأمم الإنسانية حين تخلفها تتألف من جزئين: أحدهما يتعلق بفساد العقل الجمعي وتغلغل تجهيله، والآخر يتصل

بندرة المؤهلين الجادين للمشاركة من الجوانب كافة.. وعليه، على الرغم من ندرة المؤهلين المشتغلين بهذا الشأن، تختلط جهودهم بغير المؤهلين، بالإضافة إلى عدم فهمهم هم وجهودهم من قِبَل العقل الجمعي، ما يمثل بالنسبة إليهم عامل هدم لا بناء وتشجيع وتكريم.. وما سبق يمثل الأزمة الكبرى للعالم العربي، والتي يضطر النوادر إلى أحد أمرين في سبيل حلها: أحدهما أن يتخلوا عن المشاركة بالكلية، والآخر يكمن في تحمل المحاربة الجاهلة في سبيل الإصلاح العام على المدى البعيد.

(65). إنَّني أخاف على الطفل دائمًا أن يذعن لأبويه إلى حد الخضوع العقلي التام، فيجعلهما مصدرًا لحياته المعرفية دون أن ينتبه إلى ذلك ويلتفت، وإنَّني أخاف على طالب العلم الجاد أن يذعن لمعلميه إلى حد الخضوع التام، فيجعل منهم مصدرًا لحياته المعرفية، دون أن ينتبه إلى ذلك ويلتفت، وإنَّني أخاف على الإنسان أن يذعن لثقافة مجتمعه أو ثقافة مجتمع آخر إلى حد الخضوع التام فيجعل منها مصدرًا معرفيًا لحياته، دون أن ينتبه إلى ذلك ويلتفت.. إجمالاً، أخاف على الإنسان أن يفقد قدرته الكاملة على تكوين فكره الماهوي المستقل بدون ما تقدم، فينكر ذاته دون أن ينتبه إلى ذلك ويلتفت.

هناك قدرٌ من الاستقلال الفكري من الأهمية بمكان أن يشتمل عليه مكنون الإنسان؛ كي يعيد فحص ما يُقدَم إلى إدراكه العقلي، دون أن ينتبه إليه ويلتفت.

(66). إن كنتَ منفتح العقل وواسع الإدراك إلى حد أنَّكَ أصبحت من العلامات الإنسانية الكبرى في الفلسفة أو الرياضيات، فليس هناك مجال متوقع لإنهاء السطحية أو التفاهة أو الحمق بين أعضاء الجنس البشري.

إنَّ مما أعدّه بابًا من أبواب الحقيقة في هذا العالم أَنَّ الإدراك الإنساني لا يمكن أن يقف على خطوة واحدة من درج المساواة؛ بحيثُ أنَّ أهل المناهج الموضوعية، وهم بطريقة أو بأخرى أذكى الجنس البشري، متفاوتون فيما بينهم من فحص قضاياهم. فما بالك بالذي يوجه إليهم النقود وهو لا يجيد لغتهم المنهجية؟ بل ما بالك بالتأثيرات الثقافية العميقة التي تؤثر في أكثر عوام الناس المنتمين إلى الجنس البشري؟! بل ما بالك بغير ذلك من الأمور التي تهوي بالإنسان إلى مستنقع الانحيازات اللامنهجية، والغباء الذي يدور في إطار لا يمكن إيقافه؟!

ما يمكن التوكيد عليه هنا هو خلو إنكاري للإطلاق نفسه؛ فكل إدراك بشري لصاحبه أنسب له من غيره؛ بحيث أنَّ المنفتح عقلاً يرى انفتاحه أفضل نموذج للانفتاح، في الوقت الذي لا يستطيع أن يرى مَن يتفوق عليه في انفتاحه.. لا يوجد غبي في البشر يُقر بأنَّه غبي؛ ذلك لأَنَّ إدراكه نفسه غبيًّا البداية الفعلية لذكاء هو بالقياس إلى الأذكى منه غباء، وهكذا.

وما أنصح به نفسي، وأذكرك به أيها القارئ، يكمن في السعي المستمر إلى الفهم؛ لأَنَّ بداية الشك في فهمنا الحاضر نصف الطريق

الفعلي إلى تكوين فهم أكثر نضوجًا.. والفهم هنا ليس التعلم، والتعلم هنا ليس الحياة الأكاديمية، والحياة الأكاديمية ليست بذل الجهد لاستذكار مواد الدراسة، ومواد الدراسة ليست ببرنامج معين يشمل الليسانس أو البكالوريوس أو الدبلومات أو الماجستير أو الدكتوراه.. الفهم هو أصغر وحدة كلية يمكن أن تشمل دقائق المستويات الإدراكية في ثنايا التجربة الإنسانية.

ولأَنَّ الشك في الفهم هو شطر السبيل إلى تكوين فهم أكثر نضوجًا، فكل ما جاء بين أحضان الكلمات السابقة فهمي الحاضر الذي أرى كلياته وجزئياته وافتراضاته الضمنية محلاً للشك، لذا ينبغي قراءته من باب تغير لا قطع لاحتمالية ظهور معطيات أخرى كنت عنها غافلاً.

(66). لا أعرف تجربة واحدة في الإنسان يمكن أن ننعتها بالانفراد؛ فالمودة والرحمة، والهدوء والضوضاء، والإنتاج والاستهلاك، وغيرها من المسائل لهي مسائل تشمل أبناء الجنس البشري بدرجات مختلفة وفي سياقات متعددة، إذا ما التزمنا المعنى السابق.

ومع ذلك، فالإنسان الفرد يتألم أشد التألم عند تعرضه لأدنى صنوف الألم، ويسعد عند أيسر سياقات النجاح، ويقلق عند الوقوع في عثرة من عثراته، ويتوجع إذا ما تأزّم اجتماعيًا لعلاقات مسمومة أو نحو ذلك، ويخاف إذا ما تعرّض عمله للخطر، وغير ذلك

من المشاعر المرتبطة بحوادث حياته، مع أَنَّ كل أبناء جنسه يمرون بدقائق ما يمر به بدرجات متفاوتة وانسيابية متداخلة.

يبدو أَنَّ الكينونة الإنسانية تميل إلى التأثر الشديد بما يحدث لها بين جنبيها، رافعة لواء الفردية، مُحترِمة ومُقدِرة لدقائق ما تمر به على نحو خالٍ من كل إدراك عدا التي تخوضه أجزاؤها، حتى يكمل لها معنى لوجودها الذي تستشعره وتتفاعل به من الجوانب كافة.

وفي هذا الصدد، ربما يكون لمسألة الانفراد الإنساني ومدارات القيم الكلية عند كل ذات إنسانية أمرا متحققا على نحو داخلي تُصاغ أعماقه داخل النفس الإنسانية عينها، وهذا جانب من الانفراد متحقق عند البشر جميعهم، أو هكذا أعتقد، مهما كانت سياقات حيواتهم.. ولا أعرف إلى الآن هل يصح تسمية هذا البعد الداخلي باعتباره انفرادًا، أم ربما هو عين الضيق ذاته.

(67). أظن الذين يعجزون عن إصلاح حيواتهم بالكلية، وينظرون إليها على هذا النحو من الإدراك والشعور، في الأصل مسجونين داخل أنماط متعددة من الضيق الفكري؛ فمنهم مَنْ تضيق عقولهم على عامل الزمن، ومنهم مَن تضيق عقولهم على عامل القيمة، ومنهم مَنْ تضيق عقولهم على عامل الشعور.. والناس من الصنف الأول، أيّ أهل الضيق الزمني، ينظرون إلى حيواتهم باعتبارها كتلة كلية فيحكمون بواقع حاضرهم، وأحيانًا ماضيهم وحاضرهم على شكل معين من الحياة المُتخيلة الكلية، فينتهوا إلى العجز عن تغييرها لحكمهم بالجزء الواقعي على الكل المُتصوَر في

الذهن.. والناس من الصنف الثاني، أي أهل الضيق القيمي يحكمون بمقتضى غياب أشياء في حيواتهم تمثل عندهم قيمًا كلية كبرى، كأن يمثل قدر معين من المال قيمة للفقر أو للغنى، أو كأن يمثل قدر معين من تقديرات طلاب المدارس أو الجامعة قيمة للنجاح أو للفشل... إلخ، مشكلة هذا الصنف أَنَّهُ يحدد قيم حياته على أساس الكَم لا الكيف.. إضافة إلى ذلك، يعتاد ناس هذا الصنف على عدم تدقيق أولوياتهم بناءً على نظرة كلية للمتعلقات بمقاييس قيمهم على أساس الكم، والناس من الصنف الثالث أي أهل الضيق الشعوري، يتأثرون بحالة شعورية راهنة بسبب أحد السببين السابقين أو كليهما، أو بسبب حدث شعوري محض، كأن يكون الحدثُ رحيلاً لثمين من الناس عندهم بالموت أو الافتراق القهري، أو مرضًا مؤلمًا لهم أو نحو ذلك، ومشكلة هذا الصنف أَنَّهُ يعيشُ حالة شعورية من الأهمية بمكان أن يحياها، غير إِنَّهُ يبني على الحالة الشعورية حالة أخرى أكثر تعقيدًا؛ لينغمس في حالة شعورية كانت في الأصل مؤقتة لما اشتملت عليه من حوادث.

في تقديري الشخصي، على الصنوف الثلاثة من الناس أن يدركوا أَنَّ شعورهم بعجزهم عن إصلاح حيواتهم شعور أساسه تقييماتهم الإدراكية لمجريات حيواتهم؛ فإذا ما اختلف إدراكهم وغيّروا أنظارهم وآراءهم، ظهر لهم وجهٌ آخر من التقييم الإدراكي، ومن ثَم تكوين التغيّر في الشعور عينه.. ولا سبيل إلى ذلك مطلقًا بل لا أعرف سبيلاً سواه، إِلّا بالقراءة والقراءة النقدية؛ فمَنْ لم تكن القراءة عادة في حياته فلا بد من أن يراجع هذه المسألة مراجعة جادة لعظم خطورتها، ومَنْ

يقرأ دون نقد فليراجع مسألة النقد، ومَنْ يقرأ وينقد فليراجع مسألة درجات النقد نفسها.

(68). إنَّ الإنسان يحتاج إلى إشباع حاجته إلى الحرية أكثر من حاجته إلى الأمان؛ فينظر عالم الإنسان أول ما ينظر إلى نزع الحرية ممَن يرغب في معاقبتهم، فيشلّوا حركة أجسادهم بسجنهم، أو يُنقِصوا من باب أموالهم، أو يضربوا بسمعتهم في مقتل كي يسجنوا آراء مجتمعاتهم فيهم. أمّا باب الأمان فذلك له قسمته؛ فمنه ما كان نفسيًّا يتغذى على الشعور وسلامته، ومنه ما كانَ جسديًّا يتغذى على شهواته وتحصيلها، ومنه ما كانَ عقليًّا يتغذى على بنايات فكرية تنظيمية حيث لا تشتت ولا شك، غير أنَّ تحصيل الأمان يكاد يصعب بانتفاء صنوف الحريات، فكيفَ لسجين البدن أن يغترف من قسم الأمان النفسي بغير قدرة على الاتصال بعلاقات الحب والوئام؟! بل وكيفَ لسجين ثقافته أن يجدَ ضالته في الإدراك الحر تحقيقًا للأمان العقلي؟! وهلُمَّ جرًّا!

(69). الأدب في نظري لا يعدو غير آلة لغوية مكثفة مصبوغة بقوة عارمة من الطابع الإنساني! وبهذا المعنى أستطيع أن أقول بأَنَّ الحياة نفسها أدب، إلا أَنَّ العمل الأدبي هو التقاط ما يمكن تأديبه من الحياة، بشيء ممتزج بخيال المؤلف، إلى جانب لغة خاصة وأسلوب لغوي خاص.. لذا كل عمل أدبي باطل من الناحية الأدبية، أي صعب التعامل معه نقديًّا، إذا فقد عنصر الحبكة والرصانة اللغوية، تتجلى أهمية الحبكة في التمييز الحقيقي بين ما تُمليه على الإنسان

الحياة من قصص وبروز خيال الكاتب الفياض. والرصانة اللغوية، حيث تتجلى قيمتها في التمييز بين ما تُمليه على الإنسان الحياة من قَصص واقعي، لا يحوي لغةً غير عنصر الزمن والتلقائية.. بدون هذين الركنين يمكن أن ننظر إلى حوادث الحياة ووقائعها الجافة ويكأنها أدب، أو بمعنى أدق: يمكننا أن نرى الحياة مسرحية، لا نكون فيها غير ممثلين.

(70). ليس من دور الكاتب الجاد إرضاء أو إغضاب أحدًا؛ إذ ليس أبًا من واجبه العطف، وليسَ عدوًا من واجبه المعاداة، إنما من أعماق دوره أن يثير الحفائظ، ويحرك العقول بشيء من الحيرة والإرباك، وأولئك الذين يداهنون القراء في كل شيء لا يقدمون جديدًا غير جذب كسالى العقول، وأولئك الذين يخالفون في كل شيء يكسبون قُراءهم التمرد صفة لازمة بغير تأنٍ، وما بين الاثنين ينتج عنهم حرية التفكير.

(71). أنقى الناس شعورًا الصوفيون؛ ذلك لأَنَّهم لا يعرفون من غلٍ أو كرهٍ مثقال ذرة في نفوسهم، حتى تجاه مَن يغلظ عليهم.. وأعقل الناس فكرًا هم الفلاسفة؛ فأغلبهم لا يتحدثون إلّا بغير منهج عقلي موضوعي يمكن أن تحاكمهم إليه بوضوح، وعالم الناس متأرجح بين الصوفية والفلسفة؛ فمِن الناس مَنْ يعتني بالاشتغال على تهذيب شعوره بدرجة أعمق من اشتغاله على عقله، فيبلغ درجة قريبة أو بعيدة من الصوفية، ومن الناس مَنْ يعتني بالاشتغال على تهذيب عقله بدرجة أعمق من اشتغاله على تهذيب شعوره، فيبلغ مبلغًا قريبًا

أو بعيدًا من الفلاسفة، ومن الناس مَنْ يعتني بتهذيب عقله وشعوره كليهما، ولا أعرف في البشرية نموذجًا لهذا الاتجاه سوى أبي حامد الغزالي أو هو أقربهم إلى نفسي.

(72). كثير من الناس لا يحبون الناس إلَّا إذا تمثّلوا أفكارًا معينة، ويكأنَّهم يحبون الأفكار المصبوغة في عقولهم؛ فإذا تغيّرت أفكار المرء كَرِهوه، وهذا وإن كان في ظاهره اِلتماس المشتركات بين البشر، فإنَّ في جوهره تعبيرًا واضحًا عن الضيق العقلي المَقيت. لا تحبوا بعضكم بعضًا إلَّا لعين ذواتكم، وافصلوا بين الاختلاف مع الآخر من حيثُ الفِكر وبين البغض العاطفي.

(73). وإنَّ أولى الخطوات المنهجية الدالة على التجرد العقلي نزوع المرء نحو اختبار موروثه؛ فأولئك الذين لا يقوون على الخوض في هذا المعترك، أو -إن شئتَ- قُل: تكوين رغبة شعورية في سلك ذلك المسلك دون ما كان منه لازمه التعقل، ينبغي الإشفاق عليهم ضرورةً. وأقولُ "ضرورةً" لأَنَّ البواعث على الخروج من سجن القطيع، أو -إن شئتَ- قُل: اختبار القطيع، تتطلب في الأصل صلابة في العقل والشعور، الأمر الذي يجعل معظم عالم الإنسان يسلكون المسلك المريح، مؤثرين إيّاه على ما سواه.. ولربما من أسخف ما أعده نكتةً في هذا المحل أنَّكَ تجد عقلاً كبيرًا في الإنسانية، عظيمة آثاره، قد تسرّب من بين إسهاماته الإنسانية ما لا يدخل في باب التجرد أبدًا.

(74). أظنُ التفريق بين المتواضع وشحيح الثقة بنفسه عن طريق اللغة أمرًا غير ممكن، لاقتراب اللغة بين الحالتين إلى حد

التوحد، إنَّما التمييز بينهما يتطلب معرفة سلوكية وإدراكية بحال المرء نفسه؛ كي يتسنى تحديد مدار السياق وجوهر مضمونه، وإلّا فحكم المرء على أحد بهذا أو ذاك لا يخرج عن دائرة الانطباع السطحي الذي تبثه اللغة وتعبيراتها، وأحسب ما تقدمَ يمكن تطبيقه على ما يُعَدُ ضد المذكور أيضًا، أي التفريق بين المتكبر وعظيم الثقة بنفسه، إلى غير ذلك من منعوتات الإنسان الداخلية وخصاله التي تعكسها اللغة وبعض الأنماط السلوكية الظاهرية.

(75). على صعوبة ترقية الإدراك البشري إلى درجة الحقيقة في تقديري، فإنَّ الحقيقة تَنَزُّلًا ليست واحدة في جوهرها؛ إذ ثمّة حقيقة رياضية، وحقيقة منطقية، وحقيقة عاطفية، وحقيقة دينية، وحقيقة علمية، وحقيقة فلسفية، وليست ثمّة تناغم بين صنوف الحقائق غير أنَّها مقصورة على إدراك الإنسان؛ حيثُ أنَّ الفصل بين صنوف الحقائق بهذا المعنى لازمٌ من لوازم إدراكها.

(76). إنَّا مما أعيه عن عالم الإنسان دقيق الوعي في هذه المرحلة من حياتي، وعن تحقق من مدارات ذلك الذي أعيه، أنَّ كثيرًا من البشر يمتلكون قدرًا عظيمًا من الغِلظة الشعورية، في مقابل انتفاء نفس القدر العظيم من الغِلظة العقلية، وبصدق عميق أقول: لو انتفى ذلك القدر العظيم من الغِلظة الشعورية وصار غِلظة عقلية، لأحرز الجنس البشري في سبيل تقدمه ما هو أثمن وأعمق من التقدم المبلوغ حاليًا.

(77). لا يوجد إجابة واحدة لكل سؤال إلّا في داخل عقل الحمقى؛ إذ معظم المسائل الكُبرى والصغرى متعددة الإجابات. حتى القليل الذي يحمل إجابة واحدة، من الصعب أن تبلغها بغير طرق وإدراكات وأوجه استدلالية ومنهجية عديدة.

(78). بينما قامت الحضارة الغربية على أكتاف ما لا يربو على خمسين ومائتي نفر، منهم مَنْ اشتغل بالعلوم، ومنهم مَنْ اشتغل بالفلسفة، ومنهم مَنْ اشتغل بالمنطق والرياضيات، فيقابل ذلك العدد تقريبًا مَنْ قامت على أكتافهم حضارة العرب المسلمين. إنَّ الحضارات لا تُبنى أبدًا على جهود جماهير الناس، وذلك باستقراء أحوال الأمم.

(79). وجملة القول أيها القارئ، إنَّ أكثر ما يجلب الضحك والسخرية في هذا العالم مجيء الإنسان إليه دون سؤاله، ورحيله عنه دون سؤاله كذلك؛ فلا يصح أن يعيش ما بين الاثنين دون أن يفكر جادًا في مجريات الفكر، وإلا فربما تكون بذلك حياة المرء ملازمة لأسخف صنوف النكات.

(80). ركنان في البشر مدارهما التركيب الخديعي المزيف: أحدهما اللغة، والآخر هو الفضول؛ فاللغة بنايات لفظية تؤثر في الفكر بتكوينها أنماطًا قيمية فكرية في الذهن، والفضول لانتفاء منتهى له يمكن إدراجه ومحدوديته، فضلاً عن أنه يعبر عن قيم كلية لا يتسنى لكل الفضوليين فحصها، من أمثال الجهل والمعرفة ونحوهما.

(81). إنَّ العالم الإنساني يمكن اختزاله في ركنيْن اثنين لا غنى عنهما: تكوين الفكر المنهجي المنضبط داخل نفس المرء، ثم خروجه إلى العالم عن طريق القلم.. وفي هذا الصدد، ويلٌ لمَن يمسك قلمًا ويسيء إليه بتسجيل غير عواقب الفكر ومجرياته، وهم في هذا العالم كُثُر.

(82). ليس ثمّة علاقة بين عالم الإنسان أشرف من علاقة قارئ بكاتب يتأثر به، وعلاقة كاتب يعرض لقارئه أفكاره وإبداعاته المنصوصة.

(83). القراءة هي الجريمة الوحيدة التي يرتكبها البشر بحرية، وهي جريمة لا يُعاقب القانون مقترفيها أبدًا، بل أحيانًا يُثيبهم لارتكابهم إيّاها.

(84). تكمن أهمية السير الذاتية في قدرتها على عرض أشيع نكبات الإنسان مع طرق متباينة في التعاطي معها، وذلك عادةً حادثٌ من قِبَل كبرى عقليات الجنس البشري.

(85). إنما الكتابة -في الأصل- بديلٌ عن الانتحار؛ فهي عند بعض الكُتّاب وسيلة حياة، لا وسيلة تعبير.

(86). الأسئلة الكُبرى الذكية لا تتكون بسهولة، والجواب عنها لا يمكن أن يتكون بسهولة أيضًا.

(87). العقول الكبرى -في الأصل- لا تعلم بأنَّها كبيرة، فضلاً عن أن تعلم ب"فُعلى" التفضيل تلك.

(88). يسأل الإنسان عن إذا ما كان حرًا في إرادته، مع أَنَّهُ سكن رَحِمَ أمه تسعة أشهر.

(89). شيئان يجمعان الجنس البشري كله: الألم في حيواتهم، والموت عند انتهائها.

(90). كل إنسان -في الأصل- بريء حتى يبلغ السادسة من عمره، حينها يتحول ببراءته إلى ألعوبة في يد ثقافته، يعظم ما تعظم، ويتبنى ما تتبنى، ولا يرى في غير ذلك سوى أَنَّهُ خارج عن ثقافته، وغالبًا ما يموت الناس وهم على حالة السادسة من أعمارهم.

(91). تعرض الشخص العادي إلى أمور غير عادية قد يجعل منه شخصًا ليس عاديًّا.

(92). أجرم ما من الممكن أن يرتكبه أب في حق طفله وهو صغير يكمن في عجزه عن حفاظه على فضوله كي يسأل، وعجزه عن إثارة حفيظته المستمرة حتى يستمر في طرح السؤال.

(93). الإنسان -بكل المقاييس والمعطيات- ضحية وجوده بكل مقاييسه ومعطياته، التي تساوي بين الغازي والصوفي، وبين العالِم والجاهل، وبين الأحمق والذكي.. إلخ.

(94). الحب هو ذلك الشعور المحموم في الذات، الذي تعجز اللغة عن الإعراب عنه حق الإعراب.

(95). يتضمن الأدب كثيرًا من الهموم الإنسانية العميقة التي تشغل ضمير الإنسان، غير إنها تطرح الهموم بصورةٍ شعورية محضة، لذلك هي أقرب إلى إنسان الشارع. وعزوفًا عن العروض الحديثة المرئية في التعبير عن الأدب من سينيما ومسرح، فإنَّ ذلك التضمين أخذ يتشكل في الملامح الأدبية الضاربة بجذورها في القدم، حيثُ جلجامش وبيوولف والإلياذة والأوديسة وغيرها.

(96). الإنسان -في الأصل- لُحمة واحدة: ثقافةً وحضارةً وماهية، والاختلاف في الثقافات والحضارات والماهيات والفلسفات واللغات حاصله اختلاف في التجليّات العارضة لا المضامين الجوهرية، والأصل في سواد نعرات التجليّات العارضة أهل المصالح والصراع من الساسة ورجال الدين وضيّقي العقل من الأمم والشعوب.

(97). القانون المهيمن في هذا العالم المنظور من الكائنات الحيّة هو الصراع على البقاء؛ فالأكثر قدرة على التكيّف هو الأقدر على استحقاق البقاء، ويبدو أَنَّ هذا القانون ليس مداره التطور البيولوجي فحسب بل يمكن ملاحظته في الاجتماع البشري كذلك؛ فنحن نلحظ أَنَّ بعض الذين يعانون اجتماعيًّا -في الأصل- يأبون أن يلتزموا هذا القانون.

(98). أكثر العنوف عصيًّا على العلاج ما اتصل بالدين، لأَنَّ التزام القداسة فيه سابق على تطبيقه.

(99). يحاول الإنسان أن يشير إلى الجانب المُشرق في طبيعته بذكره لفظ "إنسانية" وأنا لا أعرف أين تسكن تلك اللفظة العميقة أثناء الصراعات بشتى ألوانها.

(100). من الصعب أن يتواصل إنسانٌ مع إنسانٍ آخر دون أن يعرف لغته، إلا أَنَّ هناك لغة في هذا العالم عالمية من الممكن استخدامها، إلى لغة التعاطف أُشير.

الباب الثالث: عالم الإنسان وعلومه

الفصل الأول: طريق المعرفة والوعي (70 إشارة)

(1). إذا كان في هذا العالم حقيقة مُطلقة، فلا أظنها تخرج عن أَنَّ أكثر الناس جهلاً أجرأهم على التبجح.

(2). كلنا يعلم بأَنَّ دراسات الدين المقارن/مقارنة الأديان تنتمي إلى الآداب/الإنسانيات، وهي في ذلك شأن الجغرافيا والتاريخ والأدب، ومع ذلك فلم نشهد قطُ شجارًا بين العلماء والمؤرخين أو بين العلماء والجغرافيين أو بين العلماء والأدباء، إنما نجد دائمًا الإشكال واقعًا بين الدين والعلم.

(3). وشأن أدب الخيال العلمي شأن الفلسفة مع العلم؛ حيثُ يتم تكثيف الخيال الإنساني المحفوف بالنظر إلى مشكلات الإنسان الراهن، وما تكاد سنون تمضي حتى يحقق العلم فيها دربًا.

(4). الفرق بين العلم والفلسفة في تقديري:

إذا استطاع العلم أن يدرس فلسفة من الفلسفات ويتحقق منها معمليًّا، أصبحت علمًا تاركًا مجال التفلسف والفلسفة.

الفلسفة: مجال الخيال الفكري المنضبط بمناهج المعقول.

العلم: تدقيق محصلات الفلسفة بالتجريب.

(5). خلط العلم بالدين فيه خطر، وأول هذا الخطر واقع على الدين نفسه؛ لأَنَّ الخالط بين المنهجيْنِ مضطرٌ إلى تكييف المعطيات العلمية المتغيرة مع القطعيات الدينية المُقدسة، وهو في ذلك يضطر إلى إثبات صحة المطلق الإلهي عن طريق الظني البشري، ولا أعرف أحمق من ذلك.

(6). التعليم عندي هو مآل الحضارة الإنسانية كله؛ فإذا نجح نظام تعليمي في إنارة الطريق للطلبة في طريق الحضارة، كان أجدر بأن ينجح في تحقيق جوهر رسالته. التعليم ليس للتعليم أو للعلم أو للعمل أو لغير ذلك مما يدخل في تفريعات عِلل أهميته.

(7). لو كنتُ أستاذًا، فقدرة طلابي على طرح الأسئلة ذات أولوية تفوق قدرتهم على جوابهم عن أسئلتي.. إنَّ الجواب يضمن وجود جهود قد تكون معرفية، في حين يضمن السؤال استمرار السعي الإنساني إلى بلوغ المعرفة.

(7). إذا رَغِبَ الإنسان في المطالعة حق الاطلاع، والوعي حق الفهم، فعليه أولاً أن يتحمل كل صنوف المتاعب التي تأتي من جراء مسعاه هذا، إنني لا أحدثك عن شقاء اقتناء الكتب، أو صعوباتٍ في تحصيل المقروء والتفاعل معه، أو علوم الآلة والمناهج اللازمة لفهم بعض صنوف الكتب فحسب، بل أُشير أول ما أُشير إلى ضرائب العقل التي لا بد أن يدفعها صاحب الوعي.. هناك جانب مظلم لا يُحدثك عنه أولئك الذين بلغوا من الوعي مبلغًا عظيمًا، كي لا يكون في طريق الوعي ما يحبطك، هذا الذي لا يخبرونك عنه يتلقونه

ونفوسهم في انسلاخ منه، يتجرعونه وهم يدمنونه، فلا تكاد نفوسهم تميز بينه وبين العِلة.. صدقني، الإفراط في الوعي عِلة لا يقوى على تحملها غير الأقوياء، ولا يمكن لأصحاب الوعي التخلص منها، فالوعي عِلتهم التي يدافعون عنها حتى النخاع.

(8). لا أعرف سؤالًا واحدًا يمكنني أن أنعته ب"الغبي"! كل الأسئلة مشروعة استقراءً، ويمكن نفي الغباء عنها، نحنُ ننعت الأسئلة ب"الغبية" وفقًا لمدى شيوعها وأُلفتها لنا، ما يحتّمهما طبيعة الفضول الإنساني واختلاف مستويات قربنا من مجال السؤال وأُلفتنا له. وإذا كان ذلك كذلك حقًا، فالغباء لا يعتري الأسئلة المطروحة، وإنما يعتري نقصٌ في مستوى أُلفتنا للأسئلة واختلاف مستويات ذكائنا لطرح الأسئلة. والحق أَنَّ السؤال

-في رأيي- ليس هو المنوط نعته بالغباء أو الذكاء، وإنما ذلك متوقفٌ على معايير مختلفة، أهمها: صيغته اللغوية.. أبعاده المتوقفة عليه.. تعقده.. قدرة السائل على وضع إجابة له في حالة غياب أجوبة.. قدرة السائل بسؤاله على دحض أجوبة موجودة.. منهج السائل في طرح السؤال والجواب عنه ابتداءً. من هذا المنطلق، إذا كانت أحكام الناس داخلةً في المعايير المذكورة ابتداءً لتحديد مستوى ذكاء السؤال، فهي أحكامٌ يمكن اختزالها في الإيلاف، وهي أحكامٌ يمكن نعتها ب"السطحية".

(9). إنَّ المعرفة ضدها اليقين لا الجهل، كما أَنَّ ضد الحب اللامبالاة لا الكره.

(10). أن تبدد عمرًا في تحقيق منهجي لقراءة كتاب واحد خيرٌ لعقلك ألف مرة من قراءة آلاف المكتبات.

(10). يُخيلُ إليَّ الحمقُ ويكأنهُ نعمة، تحجب عن صاحبها أمورًا، لو أدرك عمق أثرها خرَّ مصروعًا، ويُخيلُ إليَّ الفطنةُ ويكأنها لعنةٌ، تقرب صاحبها من لعنةٍ أخرى، تحمل اسم "الوعي".

(11). علينا ابتداءً أن نُعلِمَ أساتذة المدارس والجامعات أَنَّ مهمتهم الكبرى تكمن في تعليم الطلبة كيف ينقدونهم، كيف يفكرون في معلوماتهم ويتحققون منها ويبنون عليها.. إنني أرى واجبًا على الأساتذة أنفسهم أن يتعلموا جوهر وظيفتهم العظيمة، التي يتقاضون عنها أجرًا؛ فالتعليم الذي يكون في ثناياه الأستاذ مرددًا، والطالب يجتهد في مدار الترديد ذلك، لا يمكن أن يكون غير سجن، غاية ضيقه أن يُرى ويكأنه جنة، إذن: من غير العجيب أن يكون التعليم عينه منبعًا منهجيًّا للأغبياء، ولا أخزى.

(12). هناك مستوى معين من النضج يصبح في ثناياه الشعور متحركًا في مدارات حيث يضعها عقل المرء، ذلك المستوى من النضج يروق لأصحابه، لكنه مخيفٌ لغيرهم!

(13). لا يمكن أن يجتمع الشك مع المنهج الديني؛ فإذا شككتَ في الدين، تقف على الحياد باحثًا، أو أن تخرج عنه ناقدًا.. أما المنهج العلمي، فلا يمكنك أن تفهم العلم إلّا بعد شكٍ فيه، وعليه: بينما يُعد الشك للمنهج الديني نهاية، يُعتبر الشك في المنهج العلمي بداية.. هذا هو الفارق المنهجي المفصلي بين المنهجيْنِ.

(14). عليكم أن تفهموا -يا أصدقائي- أَنَّ الوعي عِلّة، عِلّة ينبغي إدراجها ضمن الأمراض الخطيرة.. عِلّة تُشبه السرطان إذ أنها تفتك بصاحبها فتكًا، ومن الصعب التمييز بينها وبين الأسقام المعروفة.. الوعي عِلّة لا يمكن ملاحظتها، والأنكى أن ليس لها من علاج؛ فالواعون يدمنون الوعي إدمان المخدرات.. نعم إنهم يدمنونه، ولا يعرفون أَنَّهُ سبب تعاستهم. لا تخبروا أيَ واعٍ عن هذه الحقيقة حتى لا يُصرع، أرجوكم.

(15). من عِلل شغف الإنسان بالطفل وانسجامه مع براءته، أنَّ براءة الطفل ليست ملوثة بالمعرفة، يبدو أَنَّ الجهل.. صنفًا معينًا من الجهل يرادف البراءة، في حين يتحقق الضد ويتضح بنفس الطريقة عندما ينفض الطفل طفولته عن أعماق جلده.

(16). إنَّ القراءة لا تضمن للغبي أن يتقدم مستوى ذكائه؛ فقد يقرأ كتبًا غبية! الكتب كالناس أندرها عبقري، وقليلها حاد الذكاء، وأغلبها متوسط الذكاء، وأدنى قليلاً ما كان غبيًّا.

(17). القراءة هي الوسيلة الوحيدة المُمكنة لالتماس التعرف على عظماء الإنسانية وكبرى عقليات هذا الجنس البشري.

(18). إنَّ الحقائق العلمية ليست بآراء العلماء، وآراء العلماء ليست بحقائق علمية.. قد تجد عالمًا يشتغل بالعلوم يتبنى رأيًا ليس له من كشف علمي؛ ذلك لأنه بشرٌ حرٌ في تكوين آراءه.. أما حقائق العلم، فهي حقائق تعلو فوق رأي العالم؛ ذلك لأنها الكشف المنهجي الذي يشتغل به هو وأقرانه من العلماء.

(19). لا تحدث الأديب عن المغالطات المنطقية، ولا تحدث الفيلسوف عن أنواع الحبكة الروائية، ولا تحدث النفساني عن تركيبة كيميائية، ولا تحدث الطبيعاني عن الحيل الدفاعية؛ المعارف الإنسانية كلها تتداخل لكن من مناظير شتى، فدعْ كل عارف يتحدث فيما يعرف ويضيف إلى ما يعرف بحوثًا.

(20). نحنُ في أمسّ الحاجة إلى الطبيب والتاجر والمهندس والفيزيائي والفيلسوف والأديب.. نحن في أمسّ الحاجة إلى الفنان والكاتب والراقص والمؤرخ والبيولوجي.. نحن في أمسّ الحاجة إلى المنطقي والنفساني والاجتماعي والكهربي.. نحن في أمسّ الحاجة إلى الرياضي والأنثروبولوجي واللغوي والطبيعاني.

ادرس ما شئت، وافعل ما شئت، شريطة أن تكون به شغوفًا، فأنت مهم بين البشر.. ودعْك من خرافات مجتمعنا فعقله الجمعي أصبح لا يصح الاعتداد به في جانب المعارف والعلوم، إذ إنَّ المعارف الإنسانية تتداخل، لا تتفاصل وتتباعد.

(21). وكلما زاد علم الإنسان، زاد تواضعه عادةً ذلك لأَنَّهُ مَرَّ على معاني الجهل كثيرًا، فلولاه لما بحث.. وكلما انخرط الإنسان في الجهل غار عمق تعجرفه وتكبره؛ ذلك لأَنَّهُ في عزوفٍ عن معاني البحث بما تشتمل عليها من تجارب متضمنة الجهل، فيُخيَّل إليه جهله ويكأنه عِلم.

(22). ما قرأ بعمق غير فضولي، وما كتب بعمق سوى متوجع.

(23). ليسَ مطلوبًا من أحد أن يلتزم العلم، لكن ما هو مطلوب من الجميع ألّا يُحارَب العلم بالجهل.

(24). الإجابة النموذجية لسؤال ما ممكنة، فقط إذا كان السؤال غبيًّا والمجيب أحمق.

(25). وهناك مَنْ يختار نمط قراءاته هروبًا من أن يعلم، وهناك مَنْ يقرأ فيتعمد الفهم الخاطئ للمقروء.. وهناك مَنْ يقرأ ولا يشك فيما يقرأ ويتحقق منه منهجيًّا، وهناك مَنْ يقرأ ولا يتعمق فيما يقرأ.

(26). هذا مجال فتح في سبيله البشر أحضان المؤسسات التعلمية الأكاديمية، إذن: هذا المجال هام للبشر.. لا تحقرنَّ من المعارف شيئًا، فالتنوع هو الذي يشكل الإنسانية في صورتها الجمعية.

(27). كلما كان الإنسان متعمقًا، زاد شكّه في مبحثه ورأيه وتساؤله عن دقائقه.. إلخ. وكلما كان الإنسان سطحيًّا غبيًا، تبينَّ له الاستحقاق واليقين المُطلقان في مبحثه ورأيه وما يتبناه.

(28). تتوقف قدرتك على التعلم عندما تحسب أَنَّكَ انتهيت من أشرف مهنة، وهي أن تكون طالب علم، وتتوقف قدرتك على التساؤل عندما تتوقف عن أن تكون صاحب فضول.

(29). نتحدث عن الوعي ويكأنه شيء هَيِّن! قُل تلك أصعب معضلة فلسفية وعلمية.

(30). أخاف أشد ما أخاف على عالم يظن في معرفته الحق المطلق، أكثر من خوفي على جاهل لا يدرك جهله أصلاً، زعم امتلاك

الحقيقة المطلقة بغض النظر عن نوع الحقيقة، أفسد على البشرية مِن زعم امتلاك المعرفة نفسها، وإن كان الزعم باطلاً.

(31). الأستاذ الذي يغضب عند النقد ليس بأستاذ، إنما الأستاذ الحقيقي هو الذي يسعد بالنقد، بل ويحاول بثّه؛ لأن نقد طلابه لما يقول ليس بالضرورة إثباتًا لصحة ما عليه طلابه، بل بالأحرى هو إثبات مبدئي بأَنَّ طلابه طلاب علم، وليسوا مجموعة من العرائس.

(32). لا أضمن للعقل أن يتسع أُفقه عند اتساع المقروء وعظم حجمه، لكنني أضمن له ذلك إذا بات قارئًا ناقدًا حق النقد، وإن كان مدار نقده مقصورًا على القليل من المقروء.

(33). إذا قلّبت صفحات كتاب لا ترغب مسبقًا في طرح أي نقد لمضمونه فلا تقرأه، واستغلْ وقتك في شيء آخر.

(34). العلم نور لكن الجهل أنور؛ فأسعد الناس حقًا أحمقهم وأجهلهم.

(35). نحنُ نقرأ لنعلم دقائق جهلنا، لا لنمحو ذلك الجهل.

(36). على النظم التعليمية التي تُعِد نماذج إجابة لأسئلة اختبارات طلابها أن تراجع نفسها؛ فهي تساهم في تشكيل أكبر عدد من العقليات المتخلفة، وربما يصح أن يُنعَت التعليم في ثنايا تلك النظم بأنه تجهيل.

(37). أضيق الناس فهمًا أولئك الذين لا يستطيعون إجراء حوار إلّا إذا أجزموا بصحة طرحهم.

(38). نشاط واحد لا ينبغي على الإنسان أن يتجاهل ممارسته في تقديري، مهما كان شأنه وحاله، إلى ضرورة التفكير واستخدام العقل أُشير.

(39). وليس ثمّة جدوى من قراءة، كل ما تغرسه فيكَ أَنَّكَ على صواب.

(40). ومتى يسألني أحدهم نصيحة، فلا أتردد في أن أقول: اقرأ. ليس عندي غير القراءة نصيحة، ولا أظنها تُضاف إلى أخرى إِلَّا إعمال العقل في المقروءات.

(41). إِنَّ العهد الذي يجمعني بك على حافة الصدق هو النقد؛ إذ لا مجال للمجاملات عند حدوده.. والناس قد أخطأوا عندما حَسِبوا النقد لازمه نقد الشخوص بالضرورة، وأقول: يجوز أن يكون كذلك إذا كان الشخص هيكلاً من العظم، لا حِراك في أفكاره أو سلوكياته، إِنَّ الأصل في النقد أَنَّه للفكرة أو للسلوك أو لحالة من الحالات إنسانية الطابع، يستوعبها الإنسان ليمضي نحو الأمام، وينفتح على غيره مِمَن يحبونه كائنًا إنسانيًّا مهما تألف من أجزائه ما كانَ محلاً للنقد.. لا تظلموا النقد بعقد قرائن لازمة حوله، بل انقدوا نظرتكم للنقد نفسه.

(41). بوجود قرائن دقيقة، تضمن القراءة للمرء أَلّا ينام عقله.. وبوجود أخرى، تضمن الكتابة له أن يخلد فكره.

فليقرأ القارئ حتى لا يموت وهو حيّ، وليكتب الكاتب حتى لا ينتهي فكره بموت خلاياه.

(42). لقد تباينت أغراض الكتابة ودوافعها، غير أَني أرى الكتابة في جوهرها بديلاً عن الانتحار؛ فما الذي يعصم الإنسان إذا لم يمسك بقلمه ويبُح إليه؟! والقراءة

-على صعيد أخر- تمثل الوجه الثاني من الكتابة؛ إذ أنَّها المحضن الذي لا ينوء بغبائه ملء الأرض.. كَلَّا! إنَّها تزود ممارسها بفائدة عظيمة إذا ما تفاعل معها حق التفاعل.

(43). كاتب ساذَج مَنْ يستخف بعقل قارئه.

(44). لا تقرأ إلّا لعظيم؛ فحياتك ليست طويلة إلى هذا الحد، بحيث يتوفر لك الوقت الكافي كي تقرأ لغيره.

(45). إنَّما تبدأ المعرفة من الجهل وتنتهي إليه.

(46). كلما كان الإنسان جاهلاً، توهّم امتلاك المعرفة ورأى في إقرار جهله عارًا، قِس ذلك على العقول الجمعية للأمم والشعوب، لتكون المعادلة: كلما كان الشعب متخلفًّا، تعمّق خوف عقله الجمعي من إقراره الجهل، وعدَّ نفسه أعلم الشعوب بالقياس إلى الشعوب الأخرى.

(47). قد يرى بعض الناس السرطان أفتك الأسقام، غير أنهم لم ينتبهوا إلى المرض الأفتك والأشيع، ألا وهو الغباء.

(48). الغبي -كما العادة في التجربة الإنسانية- لا يستطيع أن يدرك من كلام الذكي إلّا مقدار ما يجعل من الذكي نفسه غبيًّا.

(49). الثقافة: كل ما يمكن أن يوجد لا جنسيًّا، ويتألف عادةً من أعراف وتقاليد وأديان وقوانين.. إلى غير ذلك من مقومات الاجتماع البشري.

يُنعَت المتعلم ب"المثقف" بغض النظر عن حيثيات ومدارات الكلمة الأولى، وأظنُ اللفظة تحتاج إلى تدقيق؛ فالمثقف يصير مثقفًا إن كان مدار علمه الإلمام بشيء من الثقافات البشرية، حتى يكون مؤهلاً لبناء ثقافة خاصة بمجتمعه، هي في نواحي معينة موازية لقدرة المفكر على إنتاج الفكر، وما زلتُ أرى الكلمة تحتاج إلى تدقيق أرحب.

(50). إنني أضرب بالتفريق بين الوعي والتعليم؛ فالتعليم الجيد "good education"

يضمن لصاحبه التعليم، أي انتفاء الجهل عنه بقدر ما تحدده بيئته الثقافية، لكن ليس ضرورةً أن يكون من مآلات ذلك الوعي أبدًا.

الوعي هو قدرة الإنسان على بلوغ المعرفة بشكل يستطيع عن طريقه أن يبني نسقًا معرفيًّا مفهومًا ومبررًا، إذ يتحقق له حينئذٍ عقد المقاربات بين ما كان للناس غير مرتبط، فيكون من جراء هذا كله

قدرته على الفهم المنهجي العميق لجذور وأصول القضايا الإنسانية وما يعتريها من تساؤل مصحوب بالاختبار.

(51). ليس ضد المعرفة الجهل، إنما ضد المعرفة توهم المعرفة.

(52). ربما ليس على الجميع أن يكتب، لكن على الجميع أن يقرأ.

(53). هناك فصل كامل من فصول الوعي، يصعب الفصل فيه بين الوعي والاكتئاب.

(54). من السهل أن يُدرس الأستاذ طالبه شيئًا يفيده في بناء عمله، لكن من الصعب أن يُدرسه شيئًا يُفيده في بناء فكره.

(55). الكتب أفضل من الناس، اقرأ حيثُ تستطيع أن تجد الناصحين حقًا! يمكنك هناك أن تقرأ لعظيم متواضع، دون أن يُخبرك بأنه عظيم القدر.. هناك تجد أعمارًا تُضاف إلى عمرك، إذا حرصت على التخيير منها.

(56). متى يضعف آلُ القلم، فاعلم أَنَّ الأمة قد تخلّفت وهامت في الانغلاق والرجعية.

(57). يُقاسُ مدى تمكّن الكاتب من الكتابة من خلال مدى تمكّنه من القراءة لا الكتابة؛ فإن قرأ الكتبة أكثر مما يكتبون، لأراحوا واستراحوا.

(58). يؤسفني إعلامك بأَنَّك لا تستطيع أن تُجالس عظيمًا من عظماء الإنسانية إلّا عن طريق الكتاب! أمثال تلك العقول صعب

بلوغها وقت حياتها، لسببين اثنين، أحدهما يكمن في انشغالهم والثاني يكمن في أنهم يجهلون عظمتهم أصلاً.

(59). هل عقائد العلماء الدينية مهمة؟

باستقراء بعض أحوال العلماء في الإنسانية، تحديدًا في تراثنا العربي الإسلامي، لسان حال المجتمعات تصرخ بعدم الاكتراث الفعلي مع وجود الصراخ المؤقت!

ابن سينا: أُختُلِف في شأنه.. أهو على الإسلام أم على مشارف الربوبية، أم انخرط في الإلحاد! ولقد تعامل معه المتكلمون المسلمون بطريقة خاصة في الرد عليه، ومع ذلك فلا يُذكَر الشيخ الرئيس ابن سينا إلا ويُذكَر معه تأثيره الطبي والفلسفي في ضمير أوروبا لما يقترب من ثمانية قرون! لا يُذكَر إلّا ويُذكَر معه كونه علامة كبرى من علامات العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية! كان صراخ الصارخين حينها مؤقتًا وبَقِيَ الجانب الموضوعي العلمي المُنير ظاهرًا على ما دوّنه، وانتفى المُشَغِّبون وبَقي العالون.

أبو العلاء المعرّي: اختُلِفَ في شأنه أهو على الاعتزال الإسلامي، أم على الربوبية اللادينية أم على اللاأدرية! أدخله الذهبي في زنادقة الإسلام الثلاثة، وكُتِبَ فيه ما يحاول أن ينافح عنه في هذا المحل إيجابًا أو سلبًا، لكن لا يُذكَر أبو العلاء شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء، إلَّا ويُذكَر معهُ تأثيره البديع في الأدب والفلسفة العربيين، وتأثيره الموسوعي في المعارف المختلفة.. انتفى المُشَغِّبون وبَقِيَ العالون!

أبو الريحان البيروني: كان رجلاً موسوعيًّا فَذًّا، له تأثيره المنفرد في كل فنٍ أتقنه، لكنه كانَ رجلاً شيعيًّا! لا يُذكَر البيروني إلّا بعلمه وموسوعيته على الفخر العميق لوجود ذلك العبقري في أحضان الحضارة الإسلامية، لكن هل أحد يشير إليه بالشيعي من أهل السنة؟! انتفى المُشَغِّبون وبَقي العالون!

صدّق أو لا تُصدّق، كل عالم يُحاربه قومه في حياته يحاولون إنسابه إليهم بعد مماته، وأحسب تلك بالاستقراء تقترب إلى أن تكون قاعدة إنسانية، خصوصًا في القرون الوسطى، وينتفي دائمًا المُشَغِّبون ويبقى العالون.

(60). مهمة التعليم المؤسسي الأكاديمي تكمن في دور رئيس أصيل، يندرج تحته عدد من المهام الفرعية الجزئية، هذه المهمة هي بثّ المنهجية في أدق الدقيق في الطلبة من قِبَل الأساتذة، وتطبيق الطالب واستيعابه قرائن المنهجية في حياته الشخصية والأكاديمية. وبناءً على ما تقدم، يتسنى تحقيق أمر جوهري في الحياة الأكاديمية، وهو: بناء عقول باحثة بشتى درجات البحث العقلي إلى حد العبقرية، وعليه يتم فحص العلوم والمعارف وإثرائها وإنتاج غيرها والبناء عليها، وفقًا للدرجات المتفاوتة من العقليات البشرية.. هذا هو جوهر التعليم المؤسسي في تقديري بكل يسر؛ وهو أمر يسير من جانب التلفظ به، لكنه أمر يعسر على مَنْ يرغب في تطبيقه، لأنه يتطلب تأهيلاً لعقليات الأساتذة أولاً، فضلاً عن جذب وتعزيز النابهين من الطلبة وفقًا لجوانب عقلية قدر الإمكان.

(61). لا يلزم عن الجهل بالشيء عدم الإقرار به؛ فذلك يُسمى جرأة على المعرفة نفسها، إبطالاً لدافع النزوح إلى اكتشافها.

ولا يلزم عن الجهل بالشيء بناء معرفة من هذا الباب؛ فذلك يُسمى مغالطة "الاحتكام إلى الجهل".

فقط علينا أن نُقر بما لا نعرف؛ كي يكون دافعًا لنا للاكتشاف والتعرف، وبناء معرفي صحيح، انطلاقه الأول والأَولى الإقرار بالضعف البشري ومحدودية إمكانياته، وذلك يدور مجاله في أعم الأمور الحياتية، مرورًا بأدق الأمور العلمية في كل تخصص، وانتهاءً بأرهق المسائل والمعضلات الوجودية الكُبرى.

(62). هناك معيار معين أجعله في عين الاعتبار أثناء القراءة، دون المعايير التي تسبق اختيار المقروء نفسه:

إذا قرأتُ شيئًا ولم تستوقفني عِبارة، أو فكرة، أو أيّ ملمح يُثير في نفسي الدهشة أو الغضب، أرجح أَنَّ الكتاب غير مناسب لي.. عادةً يقع ذلك الكتاب بين محلين: إما أَنَّهُ يفوق عقلي، بحيثُ ما يُثير الدهشة أو الغضب لا ألحظه أصلاً، أو أَنَّهُ ينطلق دون عقلي، مما يجعلني أمر على المدهش أو الغاضب مرور الكِرام دون ملاحظة استوقافية.

من هذا المنطلق، ليس كل كتاب مؤثرًا في حياة القارئ من باب الاهتمام بموضوعه فحسب، بل هناك تدقيقات أولية من المهم إدراجها في الحسبان أثناء القراءة نفسها.

(63). لا يرى الإنسان عادةً الحياة إلّا من زاوية معينة؛ فالعقل يرى الفلسفة، والنزوع إلى تحقيق العدل يرى القانون، وضبط النفس الإنسانية يرى علم النفس، وضبط الجماعات يرى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، والجمال يرى الفن، والطبيعة ترى الفيزياء، والجسد يرى الأحياء... إلخ، ولربما نشأت العلوم كلها من هذا الباب، باب الزوايا المختلفة المرصودة.

(64). الكتب عالم كامل؛ منها السهل اليسير الذي لا يحتاج إلى شيء غير الإلمام البُدائي بلغته، ومنها الآلي الذي يُعَدُ من أبواب العلوم لفهم كتب أخرى، ومنها الصعب الجاف الذي يتطلب تحصيلاً متقدمًا لمدار فنّه للوعي بدقائقه، ومنها ما كُتِبَ في التمهيدي لعلم ما، ومنها المكتوب في شرح أخرى وتيسيرها، ومنها الناصح العام، ومنها الخبير العالم بدقائق الحياة، ومنها المُسلي المُضحك، ومنها الضائع المتسائل، ومنها الساحر الخَلاب، ومنها الجامع لخصيصتيْنِ أو أكثر مما سبق.

(65). ليس من دور الحياة الأكاديمية تعليم الناس، بل دورها يكمن في بناء الحضارة بصيانة المناهج الكبرى وإفراز ما يتحقق منها ويبني عليها. وبدلاً من إقراننا صفة التعلم في الحياة الأكاديمية، علينا التوكيد على كون الحياة الأكاديمية في هذا المحل تقوم مقام الجزء لا الكل.

(66). هناك علاقة طردية بين العلم والشك والتواضع، وعلاقة طردية أخرى بين الجهل واليقين والكبر؛ يؤسفني القول بأنَّ مشكلة هذا العالم لا تخرج عن استحقاقية الجاهل وتكبّره.

(67). كل علم يُرجى منه أن يكون وسيلة لا غاية، منقوص القيمة ترجيحًا.

(68). القراءة للأفذاذ في كل فنٍ صعبة، غير إنها أثمرها؛ فتضييع العمر في محاولة فهم فذ واحد خير للإنسان من أن يقرأ لغيرهم، لأَنَّ الثاني هو تضييع الجهد والعمر حقيقةً.

(69). لا أظن السياسة وأهلها بابًا من أبواب تحفيز الشعوب على الوعي، فالوعي يُضاد وجودهم ترجيحًا.

(70). لا أحد يقدر على معرفة كل شيء، لذلك من الصعب بمكان أن تتكئ الإنسانية على علماء فن واحد فضلاً عن غير العلماء، فالمعارف تتكامل ولا أفضلية لإحداها على أخرى.

الفصل الثاني: الفكر والفلسفة (70 إشارة)

(1). ولا أعرف متى يترفع الفلاسفة عن التحدث في الأخلاق والجمال ونحوهما، ومتى يأتي أوانٌ تُسقَط تلك المباحث من على أكتاف الفلاسفة إلى غير رجعة، يتولى شأنها مُفكروا كل سياقٍ اجتماعي.

(2). إنَّ اليقين التام والشك المطلق مداران عقليان حول عالم الفِكَر، والأصل في وجودهما يتطلب تبريرًا من نفس الجنس المنهجي لتوليد الفِكَر، وإلّا فهما لا يمثلان غير صورتيْنِ لسياقٍ واحد؛ فالشك المُطلق يقينه الشك، واليقين التام دون الشك يقينه.

(3). من أزمات بعض المُفكرين العرب أنَّهم في مجتمع متخلف لا يقوى على الترحيب بإنتاجهم الفكري، ومن أزمات آخرين أنهم ليسوا بمفكرين أصلاً.

(4). ثلاثةٌ يخشون الفلسفة، وكلهم سفلة لا يعرفون سوى الديكتاتورية وإن تباينت وسائلهم: رجل السياسة عند تجهيل شعبه، ورجل الاقتصاد عند هضم حقوق عمّاله وموظفيه، ورجل الدين حين إخماد النيران الناجمة عن الرجلين الآخرين، بوعود تخفف من وطئة القهر في نفوسهم، أو ربما تجعلها حلوة مستساغة.

(5). كما أَنَّ الفلسفة أمٌ للمعارف البشرية جمعاء، فتبدو لي الموسيقى أمًّا للفنون الإنسانية.

(6). ما زال أعمى البصر في خير؛ فما لاحظتُ في العالم شرًا أشر من عمى العقل، وإنه لفي عظيم شر إذا جمع بين العميين.

(7). ليس من دور الفيلسوف أن يكشف الحقائق، وإنما من أعماق دوره أن يُعري المزيفات.

(8). مَنْ لم يبني فلسفة، فهو على الأرجح محكوم بفلسفة غيره.

(9). والحب -إذا أردته- محله التصوف، والعقل-إذا ناشدته- محله الفلسفة، وبين الفلسفة والتصوّف مسافات تتوسط البنية العقلية والعاطفية للإنسانية.

(10). ليس من لوازم اقتران الفكرة بدليل أن تكون صحيحة، إذ الدليل نفسه فكرة ينبغي تحليلها.

(11). وللإنسان عورات يتجنب في العادة كشفها إلَّا عند الضرورة، وللحقيقة عورات لا ترغب في الكشف عنها حتى عند الضرورة؛ فهي ما زالت لا تريد التعري حتى في ظلام الرؤية، حيث لا يلحظ عوراتها أحد.

(12). كلهم قد تعروا وكشفوا عن عوراتهم عداكِ أيتها الحقيقة؛ فما زلتِ لا تريدين التبرج.

(13). وأكادُ لا أثِقُ في إنسان لا يَقِف من الفلسفة موقف الإكبار والإجلال والتقدير؛ فلا يستحق التقدير مَنْ لا يُعَظِّم التَرِكة الفكرية للإنسانية.

(14). وخيرٌ لي أن أستَفِزَّ عقلاً بشريًّا للتفكير فيصل إلى رأي مخالف لرأيي، فضلاً عن أن يتفق معي نفس العقل في رأيي دونَ إعمال عقلِه.

(15). ولا يكونُ ضيقُ العقلِ في ذاته معضلة إدراكية في سبيل فهم الآخر، بل المعضلة الحقيقية أن يكون صاحبُ ذلك العقل نفسه في غفلة عن ضيق إدراكه؛ فلا يحاول أن يسعى إلى الوعي بحقيقة نفسه، ولا يُرجى منه فائدة يحصلها في فهم الآخر.

(16). محاولة تأصيل القواعد تحليل، أَمّا التحرر منها فوضى.

(17). كان معلم البشرية، الفيلسوف اليوناني أرسطو طاليس، يرى أَنَّ لذة العقل أولى اللذات وأهمها، واسمح لي يا أرسطو في ذلك أن أقول:

وألم العقل أتعس الآلام وأعمقها!

(18). أكاد أجزم بأَنَّهم كُثر أولئك الذين يبحثون عن الحقيقة، لكنهم نادرون جدًا مَن يسألون عن إذا ما كان هناك حقيقة أصلاً أم لا، وأندر مَنْ يسأل: لماذا حقيقة واحدة؟!

(19). هناك أسئلة يمكن أن ننعتها بالسخافة، كأن يسأل أحدهم استنكارًا: ما جدوى الأدب؟ هذا سؤال سخيف وصاحبه أسخف.

(20). تظهر قدرة الإنسان على التفكير من خلال مدى رسوخ تفكيره الذي يقوى على النظر النقدي فيه.

(21). كلما كان عقل الإنسان رحبًّا، يستصغِرُ مسائل يستعظمها الناس، حتى أنَّهُ أحيانًا يكاد يستعظم أمورًا لا يستعظمها أحد سواه.

(22). مَن لا يتصور إمكانية تعدد الحق، ينبغي الإشفاق عليه وليس الإسراع إلى الخوض في تصوره.

(23). العقول الكبرى، الذكية، لا تُبنى بسهولة، كما أنها لا تُهدَم بسهولة، وهي عقول لها احتياجات خاصة.

(24). ليس من دور الفيلسوف أن يترك نسقًا فلسفيًّا للصمود في وجه رؤى فلسفية أخرى، وإنما يبني في ذلك رؤيته باعتبارها أمرًا محتومًا بعد أن مارس التفكير الفلسفي، وتشرّب من أعماق مشاربه ما قويَّ على ذلك من منتهى.

(25). إنني أخاف المتشكك في كل شيء تمام خشيتي المتيقن من كل شيء.

(26). أنا أرفع من شأن السؤال لأنه عمود الفلسفة الأساسي، لماذا نحن هنا؟ لنسأل السؤال نفسه كيف تكون تربية الطفل؟ أن يُتاح لعقله أن يسأل بحرية! ما دور الأستاذ تجاه طلابه؟ أن يعلمهم كيف يطرحون الأسئلة، وأن يصطفي منهم مَن يسأل أسئلة ذكية! ما جدوى الفلسفة؟ مهمة لطرح الأسئلة! كيف تكون حياة الإنسانية بعد ألفية كاملة؟ ربما يتمكنون من طرح أسئلة أذكى! ما جدوى العلم؟ مهم لملاحقة أسئلتنا، وطرح أسئلة أخرى! خلاصة القول: اسأل عميقًا وكثيرًا، فلا أعرف آيةً للفضول مثل السؤال، بل

لا أعرف غاية موضوعية في عالم الإنسان يمكن أن ترتقي إلى الإقرار كمحاولة السؤال.

(27). ولو اجتمع الفلاسفة حول مائدة واحدة، محاولين أن يقولوا كلمة واحدة للإنسانية، يتفقون فيما بينهم عليها، متناسين شجاراتهم بينهم، لقالوا جميعًا في صوتٍ عالٍ رخيم: فَكِّر..

(28). ومن الأهمية بمكان الإشارة إليه أَنَّ علوم المعقول تأخذ من الذات الإنسانية، ولا شك.

(29). لا أعرف عقلاً كبيرًا في الإنسانية في عزوفٍ عن التواضع؛ يبدو أَنَّ الكِبرَ خصيصةٌ لصيقةٌ بالحمقى.

(30). كل شيءٍ في الحياة يمكن تعريته عدا الحقيقة؛ فهي تأبى سوى أن تستتر.

(31). ولا أعلم صدمة تقع على نفس الفيلسوف وقع القسوة كحقيقة أَنَّ معظم الناس ليسوا فلاسفة.

(32). ومن الصعب أن يكون عقل الإنسان رحبًا من قبل أن يمتلئ شعوره بالرحابة؛ لذلك يكمن جانب ليس بهيّن من ضيق العقل في ضيق الشعور.

(33). إِنَّ جانبًا عظيمًا من وضع الفيلسوف فلسفته بين دساتير الفلسفة يتوقف على مخزونه من تجربته الإنسانية في إطارها الكلي المُجمَل؛ فالفصل بين فلسفة الفيلسوف وحياته يكاد يكون محالاً.. يُخيَلُ إليَّ الخيطُ الرفيع بين قدرات الإنسان العقلية، والخوض في

تفاصيل حياته الشخصية، أمرًا يحمل بُعديْنِ لا انفصال بينهما أبدًا إلا عندَ تدقيق الفلسفي فيما وضع من فكرٍ للناس. إنَّ الإنسان بما يحوي من ميولٍ واهتمامات وانطباعات وقدرات ذهنية، وإبداعات يمتد تنوعها إلى الأفق أبعده، لهو كيان واحد ممتد تتصل أبعاضه، ولا شك فيتأثر ماضيه بمستقبله، ويلتمس عقله مع شعوره، وتترك ثقافته ما تترك في ذاته وما يتصل بتفصيلاتها، وتنهال بصمات حوادثه فيما يقوى على الإعراب عنه من جوهرٍ إنساني يمكن صياغته، لكن كل ذلك يستتر داخل مضامين الذوات الإنسانية، ولا يمكن استخراجه بسهولة بغير تأمل محموم.

(34). تُبنى العقول على المناهج، لا الأفكار. وحاصل التناحر بين الناس اختلافٌ في المناهج، لا الأفكار.

(35). إنما جانب عظيم من بلادة العقل عند بعض الناس يكمن في عدم قدرتهم على التجرؤ على التفكير، وليس عدم قدرتهم على ممارسة التفكير المنهجي نفسه.

(36). الفكرة فنجال قهوة؛ صورتها الخام يمكن قبولها، وطريقة صياغتها لا بد من الاختلاف عليها.. هكذا الأفكار: ليس كل ما يُقبَل نظريًّا وفلسفيًّا بالحجج يمكن قبوله في أي مجتمع إنساني؛ ذلك لأَنَّ المادة الخام مقبولة وسياق الطريقة مختلف، والناس في أغلب التناظر والتحاجج لا يتشاجرون في المواد الخام أبدًا، وإنما يتشاجرون ويرهقون أنفسهم وطاقاتها في طرق تشكل المادة الخام.

(37). إنني -يا زميلي- أمنح العقل سلطة فوق الشعور.. سلطة لا تولد الشعور، لكنها توجهه .. وعلى الرغم من منحي العقل هذه السلطة، فإنني أرى شعور الإنسان الحُر عقلاً محايدًا معظم الأحيان؛ حتى أنه لا يسعد إلا لعظيم ولا يحزن إلا لعظيم كذلك، ولا يُعجب إلا بما سلف ذكره.

(38). المفكرون صنفان: مفكرون للنخبة، ومفكرون للجمهور.

(39). عند مستوى معين من النضج العقلي المحض، لا بد أن يرغب الإنسان في العزلة! يتأتى هذا النوع من العزلة حتى يتزن الإنسان في حياته؛ فإن لم يفعل لبدا لهم مجنونًا بالإجماع.

(40). إنَّ من المدركات التي أعدها حقائق والتي لم أعد أناقشها، هي أَنَّ الجهل يُربي الثقة، والمعرفة تُربي الشك.

(41). أمامَكَ خياران لا ثالثَ لهما: إما أن تنعزل لتقرأ وتفكر، أو أن تختلط بالناس لتزداد حماقة.. ازدد حماقة، فالخيار الأول يصعب على أكثر الناس.

(42). إنَّما مأساة الوجود تكمن في ظاهرة الوعي، الوعي وحده بكل ما يحويه من ملحقات وتوابع.

(43). يحتاج دائمًا بعض الحكماء إلى أن يتظاهروا بالحمق؛ كي يعيشوا في هذا الكوكب.

(44). إذا أردتَ أن تعي دقيق الوعي مدى عمق ألم إنسان، فانظر إلى قدر وعيه نفسه فإنَّ العلاقة طردية بين الوعي والألم، يزداد أحدهما بزيادة الأخر، وينقص الأخر بنقصان أحدهما.

(45). على الإنسان الجاد أن يُعري ذاتَه كامل التعرية للحقيقة التي مفادها أَنَّهُ لا يعرف إلّا القليل، وأَنَّ قلة معرفته محدودة بوقت معين، وأَنَّ المعرفة التي يمكن أن يحصلها طوال حياته ما هي إلّا جزء يسعى إليه وينكشف له، غير إن العالم أعظم شأنًا وأكبر أن يُدرِكَهُ الإنسان ذلك الإدراك المطلق، ما يبعث على نفسه الطمأنينة والراحة.

(46). وأحيانًا لا أسأل عن إذا ما كانت المعرفة غاية أم وسيلة، بل أسأل عن إذا ما كانت مُمكنة في هذا العالم.

(47). وما المُفَكرون سوى أناسٍ يُضطهَدون في حياتهم، وتتهافت الأمم على إنسابهم إليها بعد مماتهم، ثم يتجلى أثرهم للإنسانية جمعاء بعد عدة عقود من رحيلهم.

(48). إنَّ الصراع بين الحق والباطل إنمَّا هو صراع بين عقول تفهم الحياة من جانب واحد ولا تقوى على إدراك جوانبها المختلفة.

(49). لا تبغضنَّ مَنْ لا يتبنى أفكارك، ولا تجدنَّ في نفسك حرجًا من احترامه وتقديره؛ فنفس الإنسان أحق أن تُصان بعقل منفتح، إذ أنَّها في أفكار كثيرة متباينة تعيش.. ومَنْ يرَ في ثبوت الإنسان على حاله الفكرية قاعدة، فهذا برهان عزوف عن مطالعة ما لم يبلغه من

أفكار ليُحللها ويتبنى منها ما يشاء بقدر، وأقول مضيفًا: أنا أحترم المختلفين عني جدًا لأَنَّهم يضيفون إلى عقلي عقولاً أخرى، فما أبدع أن تقرأ عن فكرة تخالفها وتربطك عَلاقة وثيقة بأحد المدافعين عنها، لذا أتساءل: لماذا تقدير الآخر في بعض العقول مشروط بوجود أفكار مماثلة عند الطرفين؟!

(50). خلال القرن التاسع عشر، ساد صراع معين في المناطق المتقدمة من هذا الكوكب البئيس على إثر الفصل الأكاديمي الرسمي بين الفلسفة والفلسفة الطبيعية، أو بين الفلسفة والعلم التجريبي، حيث اشتق المصطلح حينها.. كان الصراع حول الاحتكاك بين الفلسفة والعلم؛ بحيثُ أخذ المسار العام في النظر المختلف إلى دور الفلسفة.

في أثناء العقد الأول من القرن العشرين، ظهرت مدرسة كُبرى من المدرستيْنِ الرئيسيتين اللتين يقوم على أكتافهما تصنيف مجال الفلسفة من حيث التوجه المنهجي، والمدرسة التي ظهرت وبرزت بوضوح هي المدرسة التحليلية، إلى جانب المدرسة القارية القديمة بالقياس إليها، وللمدرسة التحليلية اهتمامات بحل الإشكاليات الفلسفية في فلسفة المنطق وفلسفة الرياضيات وفلسفة اللغة وغيرها، ولا عجب أَنَّ لفلاسفة تلك المدرسة جهودًا في المنطق الرياضي نفسه.. ظهر بالتزامن فرع جديد أرى من المهم الإشارة إليه، وأكثر الإسهامات فيه قائمة على أكتاف فلاسفة التحليل، ألَا وهو فرع "ما وراء الفلسفة" أو "فلسفة الفلسفة"

"Metaphilosophy or Philosophy of Philosophy".

يقوم هذا المبحث الجديد من الفلسفة على توجهيْن رئيسيين، أولهما: دراسة ورصد الدور الدقيق الذي تقدمه الفلسفة على مدار تاريخها منذ ما يربو على ألفيتين ونصف ألفية إلى عصرنا الحالي، ثانياً: دراسة ورصد الدور الدقيق لكل مبحث من مباحث الفلسفة مثل: ما وراء الأخلاق

"Meta-ethics"

وما وراء نظرية المعرفة

"Meta-epistemology"

وما وراء الميتافيزيقا أو ما وراء ما وراء الفيزياء

"Meta-metaphysics"

إلى غير ذلك من فروع هذا المبحث، من أهم فلاسفة التحليل عامة، وهذا الفرع خاصة، الفيلسوف والرياضي فريجا، الفيلسوف الرياضي اللغوي الإنجليزي برتراند راسل والفيلسوف فيتغنشتاين.

قد تقرأ -عزيزي القارئ- هاتين الفقرتين ولا تعي على وجه التحقيق ما يربط بينهما. والواقع أَنَّني أنا أيضًا لا أعلم، لكن كل ما كنت أفكر فيه بدقة هو محاولة المقاربة بين تطورات الفلسفة الرئيسة خلال قرنين متتابعين، تم تهميش الفلسفة وإجحاف دورها في مبحث المعرفة في القرن التاسع عشر، فكان بزوغ مدرسة كاملة

في الفلسفة في القرن الذي يليه، بل ظهر فرع يبحث في ادعاءات ذلك القرن.. وفي هذا الصدد، لا أحسب الفلاسفة عامة بل وكبار الفلاسفة خاصة، متعصبين للفلسفة أصلاً، إذ غاية الفلسفة بشتى أنواعها حب الحكمة والبحث عن الحقيقة.

الفصل بين الفلسفة والعلم التجريبي أمر متوقع من جانب معين، وهو اشتغال الفيلسوف نفسه بالعلم، لقد بذلَ الفلاسفة على مدار تاريخهم منذ حِقبة ما قبل سقراط جهودًا تكثيفية في باب المعرفة؛ إذ كانوا يؤصلون نظريًّا لنظرية المعرفة ثم فلسفة العلم، بالإضافة إلى احتكاكهم بالعلم التجريبي نفسه خصوصًا الفيزياء، وكانَ لِزامًا عليهم أن يكثفوا جهودهم في أبواب محددة وأدوار دقيقة ما دام التقدم الإنساني قد كشف عن معطيات تنظيمية أخرى. إنَّ علاقة الفلسفة بالعلم التجريبي حاليًّا تكمن في مراقبة المناهج العقلية فحسب؛ فتأصيلات نظرية المعرفة وفلسفة العلم تحوي إشكاليات إلى هذه اللحظة يشتغل عليها الفلاسفة، صارت العلاقة بين الفلسفة والعلم علاقة أشبه بعلاقة الرياضيات به، فهي تؤصل وتبرز الإشكاليات المرصودة، وتحاول أن تكون سَباقة في الزمن فلم يعد دور الفيلسوف التحدث في فيزيائية الزمان والمكان، بل بالأحرى يعي منتوجات الفيزيائيين في هذا الباب ويضع الإشكاليات المتوقعة في فلسفة السفر عبر الزمن مثلاً.

(51). لا تستحق كل الفِكَر إهدار الطاقة الذهنية للإنسان في سبيل فحصها وتحليلها؛ فكم هي كثيرة تلك التي تدخل في باب معين

من أبواب السذاجة حيث لا عاقبة من الانغماس فيها، وكم هي كثيرة تلك الفِكَر التي تخضع للحدس الشخصي أو أسلوب الحياة المختلف أو التباينات الثقافية في عالم الإنسان، والتي لا محصلة حقيقية من قبولها أو رفضها غير الموائمة والارتياح اللامنهجي لصديقنا الإنسان نفسه، ولا تستحق كل المشاعر أن تُستحضَر في كل مكان وآنٍ إلّا إذا ما كانت استجابة للأفكار الثمينة التي تستحق الفحص والتحليل.

(52). أعجب ما أنعت به الفلسفة أنَّها محلٌ للسخافة في معظم الأحيان؛ يُضيع فيلسوف حياته في تكوين فكره المحض في باب معين من أبواب الفلسفة، ثم تأتي مجتمعات كاملة لتشوّه جهود الرجل، وتنحاز أخرى إليها فلا تكشف عن عورات فكره.. والعجيب أَنَّ المجتمعات تُخدر عوام شعوبها بقوة، وهم يفتخرون بذلك أصلاً.

مشكلة الفلسفة أَنَّها باب من أبواب المعارف الذي يؤول إلى نفسه؛ فمعظم نقودات الفلاسفة خرجت من الفلاسفة أنفسهم، أو -إن شئتَ- قُل: لا يصير الفيلسوف فيلسوفًا إلّا إذا ضرب مجتمع الفلاسفة في مقتل.

(53). بينما لم أتعجب من لزوم الجراحة البدنية عند المرض الضروري، عَجِبتُ موغِلاً في التعجب من جراحة العقول، تلك الجراحة المؤلمة التي يقف منها كثير من البشر موقف الرضا والقنوع وهم غير مرضى.

لا تأذن لأحد أن يحمل على عاتقيه تكوين فكرك عنك، فيُجري جراحاته في غير حاجة منك إليها؛ لتُسجَن بعدئذٍ في سلاسل من

العواقب الناجمة عن جراحاته.. إيّاكَ ثم إيّاك أن تحذو حذوًا فكريًا خالصًا إلّا بعد عظيم تفكير واستدلال، وليس عن سياقات جغرافية أو اجتماعية أو ثقافية معينة.

(54). من حق الإنسان أن يتخذ موقفًا من شأن فكرة ما، لكن من غير حقه أن يشوِّهَ فكرة ما في سبيل رفضها.

هناك خيط واسع جدًا بين حرية الإنسان الفكرية وبين حريته في تشويه الأفكار؛ فالمحاججة تستلزم فهم الأفكار ونقدها، أما تشويهها فلازمه رفضها بدون الدخول في نقاش أصلاً، والفرق هنا ليسَ دقيقًا بل ملحوظ واسع لا حدّ لاتساعه.

(55). أوليات دلالات عمق قمع السلطة، سياسية أو دينية أو اجتماعية، في أي مجتمع النظر المتفحص في حال الفلسفة والمنطق في الذهنية العامة.

أظنُ المنطق والفلسفة يمثلان تهديدًا يقع من نفوس السلطات المستبدة موقع الذعر، لذا يكون الحل الأمثل استلاب الناس مواطن القدرة على التمنطق والتفلسف؛ كي لا يُتحدى القامع، ولا يُجادل في محلات استبداده، بل تكادُ يُنظَر إليها من منظور الضد.

(56). بناء العقل صعب لأَنَّ بناءهُ يتطلب تأهيلاً منهجيًّا واضحًا لفحص المألوف من المؤثرات الثقافية، وما كان من التركة الفكرية الفلسفية الإنسانية، وبذل الجهد العقلي في الصمت قليلاً عن الحكم على فكرة أو مجموعة فِكَر. أمثال تلك البنايا مُضرة لكثير

من الناس؛ لعدم قدرتهم على تحمل كلا مؤهلاتها وتبعاتها، غير أنَّها هي المساهمة في تشكيل الحضارة والتمهيد لها.

(57). اليقين المُطلق والشك المطلق وجهان لعملة واحدة، إذ كلاهما لا يصنع معرفة حقيقية نقدية؛ فاليقين المُطلق يُنكِر كل المناهج المعرفية المزعومة وينسب جانبًا واحدًا إليها، في حين أَنَّ الشك المطلق يُنكِر كل المناهج المعرفية المزعومة ويجعل من الشك نفسه اليقين المطلق.

(58). صديق واحد يتعمق في النظر خير من مائة لا يلحظون النظر أصلاً، إنَّ الحياة بكل ما فيها من إشكاليات تدعو المرء إلى التعمق، حتى وإن كان ذلك من ضرائبه الوحدة.

(59). وما رأيتُ نمطًا أسلوبيًّا جامعًا بين طه حسين وأبي العلاء غير السخرية، وربما كان أسلوب حياة كذلك.

(60). لا يستحق الجنس البشري عوامه وخواصّه، كباره وصغاره، عظماؤه وحقراؤه، مُصلحوه ومُجرموه غير الشفقة..

(61). أتريد أن تعرف سر الحضارة؟ إنَّهُ موجود في كلمة "لماذا" في تقديري.

(62). لا أتعجب من طالب لا يُجيد الحيادية المنهجية، لكنني أتعجب من أساتذة يُدرسون الطلبة غير ذلك.

(63). كان الفيلسوف الإنجليزي تومس هوبز يعتقد بأَنَّ الفلسفة أم الفراغ، أي أنها من الطرف الفكري الذي من الصعب إنزاله إلى واقع إنسان الشارع. وعلى الرغم من أنني أرى الفلسفة لا تجذب سوى القليل من الناس، فلا أجد في نفسي حرجًا من أن أجد اعتبار الفلسفة طرفًا فكريًّا مما يُدخِل على النفس الضحك؛ لأنها لا تحوي مثقال ذرة من طرف أصلاً.

(64). من الصعب بناء الفيلسوف كما المهندس أو الطبيب أو الفنان؛ لأَنَّ الفيلسوف يبني نفسه عن محض إرادة، ولا يستطيع مجتمعه أن يبنيه كما يبني هو نفسه، إذ أسئلته غير شائعة في الضمير الإنساني.

(65). مهما درس الدارسون من الفلسفة، فستظل دراستهم مقصورة على تاريخ الفلسفة لا الفلسفة عينها؛ لأَنَّ الاطلاع على تاريخ الفلسفة بابٌ من أبواب الدرس يتباين عظيم التباين عن مهارة التفلسف نفسها.

(66). كان أفلاطون يعتقد بأَنَّ الدهشة أساس الفلسفة، ويبدو أَنَّ "الدهشة" بمعطيات عصرنا الحديث تعني الصدمة.

(67). أحيانًا لا أجد في نفسي حرجًا من اختزال المعارف الإنسانية إلى كتابيْنِ فحسب: كتاب الفلسفة وكتاب الفيزياء؛ فالأول يؤصل من جانب الإنسان كل المعارف ويحاول أن يبحث في إمكانيتها أصلاً، والثاني يؤصل ما يمكنه اكتشافه من هذا العالم.

(68). من الصعب بمكان أن ينجذبَ أحدٌ إلى الفلسفة ولا تجذبه الرياضيات.

(69). لا أعرف سبب سوء سمعة مدرسة السفسطائيين بين الناس، وهي مدرسة لولا ظهورها لما تطورت الفلسفة بدءًا من الثلاثة الأوائل: سقراط وأفلاطون وأرسطو، إذ تكمن أهميتها في أنها العِلّة المباشرة لإيجاد مَن يتعاطى مع جهودها الفلسفية، ومن ثم تطور الفكر الفلسفي في اليونان القديم.

(70). رُبَ الفلاسفة أتعس الناس، لأَنَّ شغلَهم الفِكر والتفكير وما يتصل بهما من البحث في الكينونة الإنسانية.

الفصل الثالث: الحياة الإنسانية (40 إشارة)

(1). الحياة لا تعطينا كل ما نحب، ولكن كل مَن يحبوننا بصدق هم مُن يعطوننا كل الحياة.

(2). إنَّ كثيرًا من الأدواء لا تُضبَطُ معالجتها بغير اقترانها بأدواء قد تكون أشد صعوبة على النفس؛ فالدواء ليس للداء بعدو ناقم يُحاربه على الدوام، بل قد تكون الأدواء لبعضها سفينة يحتمي في طيّاتها ما لا يُتقَى بأسه من دواء.

(3). الدنيا ليست بيضاء أو سوداء، إنما هي لوحة خالية من لون، أنت مَن يلونها إن أردت.

(4). إنَّ أفضل طريقة إلى تجاوز أزمات الحياة توقعها نفسه! قد يُرى في ذلك تشاؤم، لكنني أقولها بنفسٍ راضية متسائلاً: ولماذا يُذَمُ التشاؤمُ أصلاً إذا كان من لوازم تبعاته العيش الأكثر قدرة على السعي فيها وركوب نوازلها؟! إنَّ أيسر طريقة لتجاوز نكبات هذه الحياة أن يُتقبَل الألم عنصرًا جوهريًّا في تشكيلها! إذا تم ذلك بصدق، فحاصله أن يكون الإنسان حَذِرًا من آلام الحياة، وإذا خفق في الحذر من الألم، فإنه يمرُ عليه بصورة مستساغة، تجعله لا يشكو منه أو يتعثر بسببه. والواقع أَنَّ هذه الطريقة ليست سهلة في تطبيقها، لكنها يسيرة في النظر الاستقرائي لحوادث الحياة الإنسانية؛ لأَنَّ العكس تمامًا هو الذي يتبناه الإنسان، ويميلُ إليه، بدافع السعي خلف إشباع بقائه جوهرًا وعرضًا.

(5). الأدب عالمٌ من غير هذا العالم يُحاكي هذا العالم، وحاصل وجوده رغبة عارمة صادقة في إيجاد هذا العالم، ما تسبب فيها صدمة المؤلف في هذا العالم.. تخيّل وتأليف.. كتابة وتدقيق.. مراجعة وفحص.. مناهج في النقد.. ولا يكون من جَراء ذلك غير رسالة أو موهبة أو أداة تعبير أو ثقافة.. لا أصدق.

(6). إذا كان العدل تحقيق المساواة بين طرفي نزاع، فهو في نواحي محددة يعني تقليل الظلم الواقع على طرف واحد فحسب: الإنسان والدنيا، وهذا هو المعنى الأشمل للعدل الذي لأجله تُسن القوانين وتُوضع الدساتير، قوانين المعارف ودساتير الفلسفة.

(7). من الصعب أن نقرأ الحياة كالكتاب؛ ففاهمتنا ليست عينًا للقراءة، والحياة ليست صفحات، وما فيها ليس بلغة.

(8). من الصعب في هذا العالم أن تخذلك روحك قبل أن يخذلك جسدك!

(9). لا تنبهروا بالأطفال؛ فكما جئتم بهم عن غير إرادتهم، فترقّبوا عبث الحياة بهم آجلاً.. ترقبوا وأنتم راضون.. ترقبوا تلوثهم وانقشار البراءة عنهم، وأعدّوا لذلك اليوم عدّته.

(10). وحاصل الحياة -يا صديقي- أَنَّها لا تنشغل بك كثيرًا، فابتسم في حالاتك كلها.

(11). أنتَ لا تستطيع أن تغيّر أحدًا أبدًا سوى نفسك؛ فلا تبحث عن تغيير العالم؛ فبتغيير ذاتك وبتغيير غيرك ذاته يتغير العالم.

(12). لا تقلْ للحياة "لا" فإنها مدرسة للتجربة الإنسانية، وإن كانت دروسها تئن بالإيجاع.

(13). لا تستقيم عندي الحياة بدون فلسفة وتصوّف؛ فإنني إذا تعاطيتُ مع المعقول تفلسفتُ، وإذا تعاطيتُ مع التعاطف والتراحم تصوفتُ.

(14). كل شيء في الحياة قابل للنقد والجدل والنقاش، حتى زعمي بأَنَّ كل شيء في الحياة قابل للنقد والجدل والنقاش.

(15). وفي الحياة ما إن قارنته ببعض صنوف الأدب، لوجدته أخيل منها.

(16). هناك أزمات في الحياة لا تتوقع أن تتجاوزها بسهولة، لأَنَّ توقعك بأن تتجاوزها بسهولة في جوهره أزمة.

(17). هناك تباين عظيم بين السخرية والمزاح؛ فالسخرية مزاح الإنسان مع الحياة، والمزاح سخرية الإنسان من ابن جنسه.

(18). كما أَنَّ المِداد والقلم لغة الكتابة، فثمّة لغة لا بد منها لفهم الأزمات، وليس من ذلك التفاؤل أو التشاؤم أو الشعور أصلاً.

(19). إنَّ الحياة لا تنقسم إلى معاناة وراحة، ألم ولذة، شقاوة وسعادة.. هناك دائمًا نقطة رمادية بين المتضادات المثنوية الشعورية ليس من اليسير وصفها بالضرورة؛ ذلك لأنَّها أقرب إلى الإرباك منه إلى الامتلاك.

(20). وأتعجب، أكثر ما ينبغي عليَّ أن أتعجب، من إنسان لا يقوى على السخرية من الحياة.

(21). إنَّني لا أنظر إلى الفلسفة باعتبارها فرعًا من فروع الدَرس، بل أعدّها إحدى أهم ضرورات الحياة.

(22). لا يخاف الإنسان إذا عرفَ أَنَّهُ آتٍ إلى هذه الحياة، لكن يُصيبه الخوف إذا عرف أَنَّه راحل عنها، ما أقبحك أيها الوعي!

(23). أفضل ما في الحياة أَنَّها تلتزم الصمت دائمًا؛ فهي لا تُجيب المتفائلين بها بالإيجاب، ولا ترد الساخطين عليها بالسلب.

(24). ما هو أسهل شيء في هذه الحياة؟ أحسب إطلاق الزعم والادعاء.

ما هو أصعب شيء في هذه الحياة؟ أظن البرهنة الموضوعية على صحة الزعم والادعاء.

هل هناك ما هو أصعب من ذلك؟ نعم، إثبات موضوعية المنهج الاستدلالي نفسه.

(25). ولا أرى الحياة بغير إحدى العينين: عين السخرية الرمزية فأمزح، وعين الجفاء العقلي فأجادل وأشاكس.

(26). أفضل ما في الحياة القراءة؛ ذلك لأنها تضيف إلى عقل المرء عقولاً أخرى. وأمقت ما في الحياة ضد ذلك، أي العزوف عن القراءة، فكل ما يعزف المرء عن القراءة من مرض أو عدم رغبة أو

استقباح للقراءة يودي بذلك إلى القبح الذي أعنيه؛ حيثُ انغلاق العقول في كهوفها.

(27). إنَّ شر التحديات في الحياة ما اتصلت بالعقل؛ ذلك لأَنَّها تندرج تحت الهموم المحض فكرية وتنبثق عنها.

(28). وكل نازلة في الحياة وقودها العمل، وأفضل العمل ما أفرزته النواكب.

(29). وليسَ في الحياة صديق كامل.. عدو كامل.. خير مُطلق.. شر مُطلق.. بل إذا تأملنا الإنسان نفسه، فسنجد للمُطلق نسبية تؤول إلى دوافع إنسانية يجمعها عالم الإنسان في قبضة واحدة، يُفَرِّقُها عزوف الإنسان عن إدراك الآخر، وهذا أمر يحتاج إلى كثير من المكتوبات لبيانه.

(30). إنَّ قراءة الحياة أشدُ تعقيدًا من قراءة الكتب، غير أَنَّ الثانية تنبثق عن الأولى ترجيحًا.

(31). الحياة مكتبة تحوي كتبًا كثيرة في شتى مجالات المعرفة، كتبًا في الأدب والفلسفة والمنطق.. إلخ، مِنْ الناس مَنْ يقرأ الحياة بأذنه، ومنهم مَنْ يتذوقها بمنطقه الحدسي، ومنهم مَن ينحو غير هذا النحو فلا يُبالي بها، ومنهم مَنْ يقرأ المكتبة دون نقد، ومنهم مَنْ يُنكرها علمًا يُحتذى به ويُقتَفى أثره، ومنهم مَن يقتني كتبها دون أن يعيها، ومنهم مَنْ يموت غائبًا عنها، ومنهم مَنْ تأباه مفارقته عند موته.. فكم أنتِ غريبة أيتها الحياة!

(32). هناك كثيرون يعيشون حياة الوهم وقلائل هم مَن يعرفون وهم الحياة.

(33). أعتقد أَنَّ من الصعوبة بمكان فهم الحياة الإنسانية بما تحوي من حالة مقصورة على جنس معين من الكائنات الحية بغير محاولة فهم كبرى عقليات الجنس البشري أنفسهم.

أذكر أَنَّني عبّرت عن هذا المضمون في إحدى المحاضرات المتصلة بدراستي في الجامعة، فما كِدتُ أنتهي حتى هَمَّ أحد زملائي من الطلاب سائلاً: وما معيارك في التمييز بين كبرى عقليات البشر وصغراهم؟

والواقع أَنَّني أجبته بالمعيار الذي أراه مناسبًا وبرهنت على مدى موضوعيته، لكن شغلتني مسألة أخرى أحسبني أدركتُ شيئًا من ملامحها مؤخرًا وهي:

ما القيمة التي توجد عند كبرى عقليات الإنسانية ولا توجد عند غيرهم؟ وعليه يصْلب فهمي لما أزعمه ضمنيًّا بأَنَّ الإحاطة بالتجربة الإنسانية لا بد وأن تبدأ من الإحاطة بكبرى عقليات البشر، وإلَّا فيعتري الوعي بالإنسان شيء من الصورة الضبابية.

أولاً: المعيار الذي يتعين على أساسه تحديد العقول الضخمة أو هكذا أظن، يكمن في الاتفاق الكلي الضمني لإسهامات أحد العقول الإنسانية في منطقة يقف منها البشر موقف الإجلال. لكن على الرغم من هذا الاتفاق، فلا يعني بالضرورة الاتفاق على صحة دقائق ما أتى

به ذلك العقل؛ إذ قد يثبت صحته باعتباره أفضل ما أثرى التجربة الإنسانية في مرحلة زمنية معينة من عمر البشرية، وقد يثبت صحته بتأثيره في أكبر عدد من البشر، وقد يثبت صحته بقدرته على الإسهام في حل إشكالية واحدة لكنها إشكالية مُعقدة ومُرهقة للضمير الإنساني... إلخ، وبهذا التصور المعياري لمعنى العقل الضخم في عالم الإنسان، أستطيع أن أقول أنَّه لا يوجد معيار دقيق يمكن صبغه وتنميطه بشيء معين، غير إنَّ التأثير الاستثنائي في الحياة الإنسانية وفق مقاييس البشر وحاجاتهم وقدراتهم قبل هذا، التأثير الاستثنائي هو المعيار الدقيق لتحديد كبرى عقليات الإنسانية، ومن الأهمية بمكان التوكيد على حدود أمثال تلك التأثيرات الاستثنائية؛ بحيث أنها قد تكون مقصورة على مجموعة بشرية مُحددة بموقعها الجغرافي، وقد تكون مقصورة على مجال واحد من فروع المعارف البشرية المرصودة، وقد تشمل وضعًا لمجال كامل ضمن المعارف الإنسانية، وقد تشمل البشر جميعهم وفق أطر زمنية محدودة... إلخ. إذن: نستنبط من هذا المعيار ضرورة إدراك وقوع التأثيرات الاستثنائية ضمن حالة البشر حين ظهورها، ما يُحتم تصورها استثنائية بالقياس إلى حالة البشر في وقت معين، وبهذه الطريقة كبرى عقليات البشر كبار بالقياس إلى أزمانهم، وليس بشكل قيمي مطلق.. بالإضافة إلى ذلك، ليس ثمّة مشتركات فكرية نمطية يمكن الاعتماد عليها لفهم مكونات العقول الضخمة في البشر، كأن تكون القومية معيارًا، أو أن يرتبط ذلك بعقيدة دينية معينة أو تصور للوجود غير ديني، أو يُظَن بأَنَّ المعيار يتصل بشيء من شأنه أن يُعدُ عاملاً مشتركًا بين العقول

الكبرى في الإنسانية، الأمر الوحيد الذي يدخل في هذا الباب هو أَنَّ كلهم ينتمون إلى عالم الإنسان، وأَنَّهم يمتلكون قدرًا من الابتكار ساعدهم في وضع التأثير الاستثنائي في البشر. يتم التعرف على العقول الضخمة بشكل دقيق عن طريق إحاطة البشر أنفسهم بجهودهم، وكلٌ يتوقف على حسب طبيعة تلك الجهود والمهارات الآلية اللازمة لإدراكها؛ فإذا كان العبقري قد ظهرت إسهاماته في مجال معرفي معين من أمثال الفيزياء، فلا يمكن التعرف على مدار عبقريته وتقييمه إلّا من كبار مجتمع الفيزياء في وقته، إلى غير ذلك من المجالات التي تتطلب مقومات منهجية آلية مختلفة.

أما عن القيمة التي يمكننا اكتسابها نحن الأضيق عقلاً وفهمًا وإدراكًا بالقياس إلى كبرى عقليات الإنسانية، فتتمثل إجمالاً في تنمية مهارة الاستيعاب تجاه التجربة الإنسانية بما تشمل من تشابه واختلاف، وتُكتسَب عادةً تلك القيمة الهامة تدريجيًّا بصعود درج الرقي الفكري والعاطفي، ما يساعد في تشكيله التفاعل مع سير وإنجازات العقول الضخمة نفسها، ولربما تمثل هذه القيمة احتفاظًا عمليًّا بقيم صغرى بالقياس إليها من أمثال: الإقرار الدائم بالجهل والرغبة في التعلم.. التفكير المنضبط وفق منهج واضح يحرص الإنسان على اِلتماسه ولا يتكلف لزوم منه ما لا يلزم.. إلخ.

(34). وجملة القول أيها القارئ، أَنَّ أكثر ما يجلب الضحك والسخرية في هذا العالم مجيء الإنسان إليه دون سؤاله، ورحيله عنه دون سؤاله كذلك؛ فلا يصح أن يعيش ما بين الاثنين دون أن يفكر

جادًا في مجريات الفكر، وإلا فربما تكون بذلك حياة المرء ملازمة لأسخف صنوف النكات.

(35). ويبدو أَنَّ الحياة غريبة، أم ربما نحن الغُرباءُ!

(36). الإدراك العام للحياة انعكاس تجربة الإنسان، أما تفصيل إدراكه عنها فانعكاس احتياجاته.

(37). التجارب الإنسانية المختلفة تقوم -في مكان ما- مقام التعرض، الذي مؤداه إثراء حياة الإنسان باعتباره كائنًا يحمل بين جنبي نفسه وعيًّا؛ فالغنى والفقر، والتفاؤل والتشاؤم، والحزن والفرح، والأبوة والبنوة، والقسوة والرقة، والنجاح والفشل، إلى غير ذلك من متضادات الحياة، حاصلها أن يتذوقها الإنسان ويتشبع منها بدافع الإثراء، لا بدافع التقاطها هي فحسب.

(38). لو تُبنى حضارات الإنسان على أكتاف جماهير الناس، لما شهدت الإنسانية حضارة واحدة.

(39). إنَّما المدارس الفلسفية المعنية بتفسير الوجود الإنساني والمختصة بسؤال

"ما معنى الحياة؟" والتي تتباين بين الوجودية والعدمية والعبثية، لهي مدارس تحمل صوتًا واحدًا، ألا وهو صوت الإنسان.. ولهذا الصوت في جوهره صدى واحد، وإن تباينت أصداؤه؛ لأنَّ كلَ صدى فيها يقوم مقام العقل، إذ يدرك الحياة من جانب ويكشف منها عن جزء.

(40). من الغريب أنَّ الإنسان لم يختار مجيئه إلى هذا العالم، أي وجوده المحض، وما زال الفلاسفة يناقشون مسألة حرية الإرادة ويتشبثون بطرح النقاش، أليس هذا النقاش بإدراج حقيقة عجز الإنسان عن اختيار وجوده نقاشًا سخيفًّا؟!

الباب الرابع: مقالات في الفكر وأحواله

الفصل الأول: مقالات فكرية وفلسفية

المقال الأول: السجين

وُجِدَ الإنسان مفروشًا في طيّاتِ سبيله الكثير من القدرات والمهارات العقلية، والتي بها يتسنى أن يكونَ مختلفًا عن سائر الكائنات الحية؛ إذ إنَّهُ وُهِبَ من العطايا عقلاً متأملاً مُفكِّرًا مُدققًا ناقدًا فاحصًا، فبالعقل يكشفُ عن طبيعةِ الحقائق ويبرهن لإثبات صحتها، ويختار من الأدلةِ ما يتسقُ مع المنطق والتَجرِبة، بالعقلِ يدركُ حقيقة الأساطير وما تحمله من دلالات رمزية، ويكشفُ عَمَّ لا يمكن فهمه بغيرها، بالعقل يُشكِّلُ الإنسان فلسفاتٍ حول بعض الأفكار، التي لا تتطلب منه غير العصف الذهني والعمق الفكري، بالعقلِ يقاتلُ الإنسانُ الطبيعة في معركةٍ لا تنتهي؛ حتى أودى ذلك إلى ملاحظة ظواهرها ومراقبتها، والتنبؤ والتحكم في بعضها، والسعي الجاد إلى القضاءِ على قسوتِها، بالعقل يبني الإنسان حضارات شتى مستخدمًا الوسائلَ العقلية كلها في سبيل تعزيز صلابتها ومنع انهيارها.. وللعقل في هذا المحل دلالة هي أقرب إلى قياسات الوعي، والتي تعد أصعب معضلة فلسفية وعلمية، بيد أنها تمثل الحجر الأساس في بناء الإدراك وبناء الإدراك عنه.

وإذا سلكنا من التأمل دروبًا في المخ البشري كي نتخير أفضل ما فيه، لوجدنا القدرة على التحليل وقوة الذاكرة يمثلانِ قدرتينِ فريدتينِ، على الرغم من قيمةِ الذاكرةِ العليا، فإنَّ القدرة على التحليل والنقد أهم ولا أعظم؛ لأَنَّ الإنسان وحده ينفرد بها، فكل الكائنات الحيوانية وغيرها تمتلك القدرة على تخزين المعلومات واسترجاعها بغض النظر عن مدى الذاكرة واستيعابها، فأنماط التعلُّمِ التي تتكئ على الذاكرة وترتبط بها ارتباطًا وثيقًا يقوم بها الإنسان والحيوان على حد سواء، كالذي يُبنى على تقليد القدوة من والِدَيْنِ ومُعلِّمين، وذلك الذي يقوم على تعزيز السلوك أو تجنبه تَبعًا لما يلحقه من عواقب، بِيد إَنَّ موضع الذاكرة في المخ البشري معروفٌ عند علماء الأحياء، والذي يقع في الفص الصدغي حيثُ استقبال المعلومات، ثم تخزينها وَفقًا لمدخلات كل حاسَّة. أمَّا مهارة التحليل والنقد فلا يكتسبُها غيرُ العنصر الإنساني؛ إذ أنَّها لا تنفصلُ أبدًا عن اتساق المعلومات، وإقامة العلائق بين بعضها بعضًا، فكُلَّما بذل الإنسان جهدًا عقليًا سعيًا إلى الفهم الدقيق العميق لأيّ موضوع يتناوله في حياته، كان أقدر على أن يتعلمه، وينقده ويحلل براهينه، ويسلُكَ إلى بلوغ أصوله مسلكًا عظيمًا.. إضافةً إلى ذلك، لا يُقاس التحليل عند الإنسان بأداة علمية حديثة، بل لا يُعلَمُ له من المخ نصيبٌ ماديّ تشريحي دقيق، أو هكذا أعلم؛ فما استطاع علماء الأحياء حصره أَنَّ الفص الأمامي أو الجبهي موطن العمليات الإدراكية العظمى في الإنسان كالعاطفة واللغة وحل المشكلات والذاكرة ذات المدى البعيد.

إنَّ لدور التحليل في تفكير الناقد أثرًا بالغًا لا يكمن في طرح الأسئلة التي يغفلها كثير من الناس فحسب، بل يتجنبون التفكير فيها والإجابة عنها أحيانًا.. ذلك الفهم العميق الذي هو مسعى كل عقل ناقد، والذي يحيد عن المألوف والسائد من شتى المجتمعات الإنسانية مهما امتدَّ إلى الآفاق معاييرها، ذلك الفهم يؤول إلى التعمق الفكري، والإبحار في سبل التأمل؛ فالناقد يقدم أطروحات اجتماعية ودينية وعلمية.. مثل ذلك الخروج على الأفكار السائدة يمهد لصاحبه من شقاء الرفض طرقًا؛ حفاظًا على العقل الجمعي الممثل في العادات الفكرية والاجتماعية والدينية والعلمية. وتتباين درجات ذلك النوع من الرفض بقدر انفتاح العقول؛ كي تتلقى أفكارًا وتساؤلات من آخرين لهم عقول تسودهم، ولا عليهم يسود غيرها، فالناقد يُزلزل القيم التي في عقول الناس ترسخت، واعتادوا عليها وصاغوها في حيواتهم بأشكال مختلفة، فلا فحصوها ولا خطوا إلى تحليلها قيد أُنملة. والناس في حيواتهم يعيشون على هذا النحو؛ لأَنَّهم متوهمون بأَنَّ أفكارهم نسقية منهجية، في حين أَنَّهم لم يفكروا قَطُّ في تفنيدها.. فما افترق عن العقل الجمعي الناقد إلَّا رافضًا هذه الطريقة، فهو يتبنى سياسة الطفل المتسائل عن أشياء كثيرة لم يكن ليُجيبه عنها أبواه إلا بما ورثاه من أبويهما، ثم يسأل آخرون الأسئلة نفسها، ويحدثُ معهم كما حدث مع الأول، حتى تمتد تلك الإجابات المختصرة إلى سائر المجتمع لتعبر عن عقله الجمعي، غير أَنَّ الناقد يعيش طيلة حياته باحثًا، سالكًا إلى التفاعل مع أسئلته جميعها من العمق والتحليل أنفاقًا، فاهمًا ما يستتر خلفَ كل سؤال من عِللٍ.

ولأنَّ كثيرًا من العقول لا تستطيع السيرَ في تلك الطريق الوعرة، فلا تكاد تنصت إلى ما يطرحه كل ناقد، لكن تضرب به عرضَ الحائط.

إنَّ المجتمعات الإنسانية بشتى ثقافاتها وما ترتكز عليه مِنْ قيم فكرية، تحاولُ أن تغرسَ في عقول أبنائها موروثاتها؛ فيحاول الوالِدان أن يغرسا أفكارِهما في عقول أبنائهما، ثم يصير الابنُ أبًا فيفعل نفس الفعلة.. وقَدْ يكونُ مِنْ الإنصافِ قولي: إنَّ قبلَ أن ينقلَ أفكارَهُ بغض النظر عن صنفها ومدى صحتها إلى غيره، يوهمهُ مجتمعُه بأنَّها هُويتُه التي لا يحقُ لَهُ الانفِلاقَ عنها؛ لتصبحَ هُويةُ الإنسانِ ما عليه عائلتُهُ ومجتمعُهُ.. ما يُثيرُ حَفيظَتي انخراطُ الكثيرين في ذلك الوهم الذي لَمْ يستطيعوا تمحيصَهُ وتفنيدَهُ، بل يدافعوا عنهُ حتى الموت؛ فقط لأَنَّ هذا ما وجدوا عليه آباءهم فاستساغوه.. ونتيجة هذا كلِه ازدحام عالم البشر بأُناسٍ يهيجون ويصارعون ويناصرون ويعادون ويحارِبون بكل وسائل الحرب؛ دفاعًا عن قيم لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فيها اختيار حقيقي جاد؛ فأخبِرْني صديقي الإنسان: كيفَ تفسرُ الحرب بينَ جيشيْنِ من بلدين متباينيْنِ على أساس قومي لَمْ يختَرْهُ أفرادِ الجيشيْنِ كِليهما؟ بل كيف تقولُ في مَنْ يفضلُ عِرق على عِرق أو لون بَشَرَة على آخر أو جنس لأَنَّهُ ينتمي إليه فقط؟ أواه! فهَلُمَّ أولئكَ الذينَ يؤثرون دينًا محددًا على غيرِه؛ ليتَني أرى في كل أفرادِهم مَن يحيط علمًا ببراهين صحة دينه وبطلان سواه.

وإذا رغبْنا في الخروجِ من بوتقة الأفكار عابرينَ إلى الجسدِ، فلا تَجِدَنَّ في الأمرِ سوى ما يدعو إلى السخرية مِنْ هذيان الإنسان؛

فإنَّهُ يفتَخِرُ أيَّما افتخار بسجنٍ سَجانُه لَحمٌ وعَظمٌ وحواس وأجهزة.. والإنسانُ في هذا الصَدد متغطرسٌ لا حدَ لتعجرفه؛ إذ لَمْ يكتفِ بما وجدَه مِنْ أغلالٍ لا يستطيع الاستغناء عنها، بل كَبَلَّ نفسَهُ بصنفٍ معينة من الملابس لمقابلة الأقارب، وأخرى لا يستطيع الهرولة بِها في الشارع. جَعَلَ الإنسانُ مِنْ جمالِ نفسِه خُصوصًا المرأة ما يلتصقُ بالجمال الظاهري الجسدي من خلال مسابقات الجمال ووضع مساحيقِ الزينة التي لا تزيدُ مِنْ الجمال غير قبح لزيفِها وكَذِبِها وخِداعِها، إنَّ الأمثلةَ يا سيدي تمتَدُّ إلى ما لا حصرَ لَها، غير أنَّني لا أرى في عناية البشرِ بأجسادهم غيرَ النظرة السطحية، والتي لا تؤدي إلى فَهم الإنسان نفسه بعمق.

هُنا يقولُ دعاة الحرية: إنَّكَ ترفُضُ أَنَّ تُنتهَكَ حُرُماتُ عقلُ الإنسان عن طريق إكسابِه هوية لَم يشاركْ في تكوينِها، أو لا يشرَعُ في تشكيلِها بنفسِه عقليًا وجسديًا، لذا نحنُ مؤمنونَ بالحُرية، وَدعْني يا سيدي أَنْ أُخبركَ واضحًا: إنَّ الحرية وَهمٌ؛ فلو كانَ الإنسانُ حرًا لكانَ لَهُ رغبة في وجودِه في هذه الأرض.. عن أيّ حرية يدعو أولئكَ والإنسانُ عاجِزٌ عن اختيارِ أبويه وعائلتِه؟! عَنْ أيّ حُرية يناضل من أجلها أولئك ووجدانُ الإنسانِ قَدْ شَكَلَّتْهُ ثقافة مجتمعِه؟! كيفَ الحرية وهو لَمْ يختَار جسدَهُ أولَّ مَرة؟!

إنَّني وإنْ بدأتُ هذه الكَلِماتِ بالدفاعِ عَنْ قُدراتِ الإنسانِ، فإنَّني أختتمها بإقرارِها سِجنًا؛ فالمهارات العقلية الإدراكية العُليا عندَ الإنسان لا تعدو كونُها سِجنًا لا يستطيعُ الخروج مِنْه، لذا المنتقل من

تغير إدراكي إلى آخر لا يكونُ إلّا كالذي يعيشُ في سجنٍ واسع يهرول إلى نقطة جديدة اكتشف مكانَها لا أكثر، لَكِنَّني أرى العقل بقوانينه المنطقية خيرُ سجونِ الإنسان؛ لأَنَّ المنطقَ يتحكم في العاطفة ويحدد مدارَها ويُقيمها، أما العاطفة فلا.. وعلى صعيد آخر، البدنُ شر سجونِ الإنسانِ؛ فإِنَّ له شهواتٍ ليس لها لخير السجونِ مِنْ مبرر.

المقال الثاني: ليس هذا الإنسان

"أثر المظهر في الإدراك الذهني للإنسان"

لَمَّا أن عُلِمَ بأَنَّ الإنسان كائنٌ معقدة سلوكه تحفزها دوافع أكثر تعقيدًا، إذ تحمل بين طيّاتها عوامل ثقافية تميزها وتجمع بينها دوافع إنسانية في عالم الإنسان، لَمَّا أن كان ذلك معلومًا، حاول الإنسان أن يقترب من الآخر؛ ليفهمه فهمًا أكثر عمقًا، متجنبًا ما يحيط الظاهر الخارجي من مُبهَم، غير إنَّ الإنسان ما زال في كثير من أحايينه يقع في تقييم أخيه وَفقًا لما يجهله من خفايا، بحيث يمعن النظر فيما هو منه ظاهر، في هذا المقال القصير جدًا، سأسلط الضوء على أحد أهم العوامل التي تؤثر في استقبال الآخر إدراكيًا وَفقًا لما عند الإنسان من مخزون ثقافي يزج به في هذا التقييم الظاهري، والذي لا يشكل فهمًا حقيقيًا للإنسان، ألا وهو عامل المظهر بما يحويه من ملابس وشكل خارجي.. إضافة إلى ذلك، سأضرب أمثلة أكثر واقعية من حياتنا الاجتماعية التي تتكئ على المخزون الثقافي المصري والعربي؛ تيسيرًا لعرض الفكرة متدرجًا نحو مفاهيم اجتماعية إنسانية أكثر تعقيدًا، وأثرها في الإدراك الثقافي التلقائي للإنسان.

بالنظر إلى الثقافة المصرية والعربية، يمكن القول بأَنَّ ثمة أفكارًا يُتوقَعُ أن يُعبَّرُ عنها الملبس والشكل الظاهريين بطرق متباينة حسب كل توجه فكري؛ فغِطاء الرأس للمرأة يعبر عن التزامها الديني بالزي الشرعي الذي شرعه الإسلام وما يلزم عنه من قيمة العفاف، غير أَنَّ نفس الزي قَدْ يعبر عن قمع للمرأة بالنسبة إلى آخرين.. قياسًا على

ذلك، اللحية تمثل رمزًا دينيًا ظاهريًا أو إجراميًا إرهابيًا عند آخرين، زيّ الراقصة يمثل عريًا وخلاعة للبعض ورمزًا للفن عند آخرين... إلخ، وأنا في الواقع لستُ في صدد مناقشة كل هذه الصنوف من الملابس والظاهر من الإنسان وتقييم جوهرها على حِدة؛ فلا يعنيني الملتحي أو الحليق، أو المغطية رأسها أو الكاشفة، أو اللابس سلسلة فضية من الشباب أو الرافض لها، كما أَنَّني لستُ في صدد تقييم زيّ الراقصة، لكني في صدد مناقشة الرسائل الكلية التي يتلقاها الإنسان عن الإنسان من ثقافة واحدة تلزمه بها مقاييسها؛ كي أحاول تفنيد تلك الرسائل الإدراكية التي تحمل في طيّاتها عمقًا من المخزون الإدراكي التلقائي.. كَلَّا! إنَّها تحمل في ثناياها نظمًا فكرية إدراكية كاملة.

إنَّ من المعروف والملحوظ ممارستُهُ لدى عامة الناس ورود انطباعات في أذهانهم، تتشكل على إثر المظهر الخارجي للإنسان، وخطر ذلك يمثله الفهم الوحدوي الذي يعبر عنه كل توجه ثقافي؛ فنجدُ هيبة الشيخ نابعة بشكل أساسه من زيّه، بل نجد أنَّ ذلك الزيّ له أهمية كبرى في نفوس الناس إلى حدٍ أَنَّهُ أصبح من شخصية الشيخ.. كَلَّا! إنَّ ذلك الزيّ يُشكل صورة ذهنية كاملة تلقائية عن الخلفية الثقافية للابسه؛ فيمكن وصفُهُ باعتباره منتميًا إلى الأزهر أو مشيخته، وتؤول المعضلة الكبرى في هذا الصدد إلى هذا التساؤل: هل حقًا ذلك الزيّ يحمل في طيّاته مبررًا واضحًا للمعاني التي التقطها الذهن تلقائيًا؟! هذا ولا أناقش مشروعية اللبس أو عدم مشروعيته والاتفاق الجمعي الضمني على أن يكون زيّ رجل الدين المسلم، لكن المشكلة تتمثل في الاتكاء والاستناد إلى الظاهر لفهم خلفية ثقافية

بأكملها مبررها الوحيد الاتفاق الضمني السطحي، فلو ظهر رجل الدين في غير ذلك المظهر، فسيشكل صدمة لدى الكثيرين؛ فقط لأَنَّ السمة الظاهرية لا تقوم بدورها الانطباعي في الذهن، إلَّا إذا تم التعرف على الشيخ في صورة أخرى مُذ رؤيته باعتباره حالة فردية تشذ عن أقرانه. إضافة إلى هذا التنميط نفسه، فقد يُنكَر على الشيخ إذا ما ارتدى ما يخالف السائد من أقرانه؛ ليصبح الملبس نفسه مُعبرًا عن جوهر شخصية الإنسان، وهذه هي السطحية في فهم الإنسان.. ونتيجة لذلك، يمكن انتحال سمة الشيخ نفسه بطريقة لا واعية في نفوس الناس؛ فيمكن لمُغتَصِب أن ينال لقب شيخ من ضحيته، فقط لأَنَّهُ صاحب نفس الزيّ المُتعارَف عليه اجتماعيًا، أو يتلقى أحد الناس نصيحة من صاحب نفس الزيّ باعتباره شيخًا وهو في الأصل ليسَ كذلك، وهلمَّ جرًا.. إذن: زيّ الشيخ عامة لا يعبر عن جوهره إلَّا بالاحتكام إلى العادة والنمط السائد؛ إذ يمكن الاستغناء عنه مع إدراك جوهر شخصيته، في الوقت الذي من الممكن أن تُنتَحَل أعماق شخصيته إذا ما أمعن الإنسان النظر في الظاهر دون الالتفات إلى العمق الإنساني، بالقياس: تنطبق هذه الحال الإدراكية تمامًا على أي إنسان يرتدي ملبسًا بطريقة معينة، أو في ملامحه ما يمثل قيمة ثقافية في عيون العامة من أهل تلك الثقافة.

وإن احتكمنا إلى الحِس الإنساني العام، فسنجد أَنَّهُ يحملُ في ثناياه تنميطًا كارثيًا في سبيل فهم جوهر الإنسان بدءًا من معنى الحداثة في الملبس، مرورًا بتحديد حالة الإنسان المالية بالنظر إلى ظاهره، وما بين ذلك من تنميطات أكثر تعقيدًا سواء أكانت

اجتماعية أو نوعية أو دينية.. إلخ، وأنا أعتقدُ بأَنَّ مآلَ كل تلك التنميطات العامة، بالإضافة إلى السطحية في فهم الآخر إلى وجود سبب واحد في رأس المتلقي يمثل دافعًا للآخر؛ ما يجعله ينتهج ذلك التنميط.. فمَنْ يعتقد أنَّ الحداثة في الملبس والتحضر لازمهما زيّ وشكل معين فلا بُدَّ أن يدرك أهمية ذلك الملبس الشائع باعتباره عادة اعتاد عليها الناس، وقيمتها تنتهي بانتهاء العصر وما ستتفق عليه الإنسانية لاحقًا في هذا الصدد، ولا يلزم منطقيًا عن مخالفة الزيّ الشائع تخلف المخالف وانحدار مستوى عقله، إنَّما يلزم عنها وجود دوافع أخرى، تختلف حسب كل مخالف، تدفعه دفعًا إلى الاختلاف.. وقد أضربُ في سبيل ذلك مثال المرأة التي تأبى فكرة وضع المساحيق لغير زوجها، ودافعها في ذلك ديني بحت، في حين يأبى قليلٌ نساء البشر إجراء عمليات التجميل ووضع المساحيق بالكلية كما طالما أدعو شخصيًا، ومبرّرهن في ذلك فلسفي ذات صلة بفلسفة الجمال.. كَلَّا! فإنَّني أريد ضرب مثالاً خياليًا قد يكون متطرفًا في ذاته وهو: الرجل الذي يرحل طالبًا يد امرأة للزواج، مرتديًا ما لا يَصِحُ الظهور به من ملابس داخلية، منتعلاً ما صُنِعَ خصيصًا لدخول الخلاء؛ ليؤكد لها على أَنَّ جزءًا كبيرًا من شخصية الإنسان يُدرَك من ظاهره دون جوهره، وبالتالي يتأتى التقييم إمَّا بالتبجيل أو الإساءة. وهذا رجل أخر يمتلك أموالاً طائلة، يرتدي الوضيع من الثياب، يُدرَكُ منها فقره المدقع، في حين أَنَّهُ رجل زاهد في الحياة يرضى بالقليل من نعيمها، وهلمَّ جرًا..

إنَّ جملة القول تكمن في محاولة الاقتراب من جوهر الإنسان ودوافعه التي لا يلزم التعبير عنها من خلال ظاهره بالضرورة، والذي فقط ينم عن نمط اجتماعي ثقافي أو إنساني عامة.

المقال الثالث: إشكاليات الخطاب الأيدولوجي في الوسط الفكري العربي الحديث والمعاصر.

يقولون بأَنَّ التفكير المجرد وإعمال العقل نشاطٌ محض إنساني؛ إذ يربو في حالة صديقُنا الإنسان بالقياس إلى سائر الكائنات الحية الأخرى، وعلى الرغم من عدم موثوقيتي من هذا الزعم الذي يتطلب دليلاً موضوعيًّا يبرهن به المدعي على اقتحام العوالم الإدراكية للكائنات الأخرى، فإنَّني أقرُ حتمية التفكير وأهمية المفكرين في حياة الإنسانية، وكل إنسان لا شك مُفكر يمتلك قدرًا معينًا من إعمال العقل، لكنني أعني بالمفكر هنا ذلك الإنسان الذي يمتلك رؤية وتصورًا كاملاً أو ناقصًا للتفاعل مع مشكلات مجتمعه؛ إذ ينبغي بهذا التعريف على المفكر أَلَّا يكونَ جزءًا من قطيع المجتمع أو المجموعة النفسية له، بل يحاول النظر الموضوعي إلى بيئته وما تئن به من معضلات وأزمات. في هذا الصدد، عادة ما نكونُ أمام أناس مغتربين عن مجتمعهم فكريًّا؛ بحيثُ أنَّكَ تجدُ الواحد منهم يرى المجتمع من خارجه، غير منكمش وسجين في كوب فكره وسلوكيات أهله، لا ينثني كما ينثنون، ولا يعلو كما يعلون، ولا يفكر داخل كأس فكرية مماثلة لهم. لذا، هذا الخروج على العقل الجمعي هو بالضرورة مُكلف على الصعيد العقلي والنفسي لأهله؛ لأَنَّ عادة ما يُواجَهُ آلُ التفكير بالرفض من قِبَل المجموعة النفسية لمجتمعهم، وبذلك يتعرض تُراثُهم الفكري بما في ذلك سلوكياتهم إلى التشويه والنبذ والمعارضة الغليظة، في هذا المقال سأسلط الضوء على أهم ما وقع فيه بعض المفكرين العرب من أخطاء نجم عنها تشويه لمعنى المفكر

ودوره في حياة أهله، كما أنَّها لم تثمر بثمرات اجتماعية وددتُ لو طُرِحَتْ بطريقة مناسبة لحال المجتمع، بدءًا من التعبير الأيدولوجي للمفكر، مرورًا بالخطاب الفكري النخبوي المكثف، وانتهاءً بإشكالية التعارض بين عقل المجتمع الجمعي وعقل المفكر الفردي وما بينهما من تغيير منشود للتلاقي.

لقدْ أصرَّ عدد ضخم من آل التفكير على أن يبسطوا أيديهم، مخاطبين المجتمع بطريقة أيدولوجية صارمة واضحة، سواء ذلك في كتبهم المنشورة أو إبّان محاوراتهم ونقاشاتهم الإعلامية والصحفية، وأعني ب"الخطاب الأيدولوجي" الخطاب الذي يعبر عن انتماء الإنسان من حيثُ المواقف الوجودية الكلية تجاه الأسئلة الكبرى المُقلقة في حياة الإنسان، كأن يكتب أحدٌ كتابًا كاملاً أو سلسلة من الكتب فقط للدفاع عن أو التهكم على دين من الأديان.. ويتمثل الخطر في هذا الصدد في الدعوة إلى أفكار منهجية معينة؛ ما يساهم في عزوف المفكر عن الموضوعية الفكرية، فليسَ من دور المفكر عندي حل إشكاليات الوجود الإنساني على الإطلاق في صورة اجتماعية، وهذه الأخطاء المنهجية نجدها واضحة، على سبيل المثال: عند شخصيتيْنِ فكريتيْنِ متضادتيْن في المنهج الوجودي، أعني الدكتور والفيلسوف الكبير عبد الرحمن بدوي والدكتور سيد القمني، وذلك عند كتب د. عبد الرحمن بدوي كتابيه "دفاعي عن محمد، صلّ الله عليه وسلم، ضد المنتقصين من قدره" و "دفاع عن القرآن ضد منتقديه" إلى جانب كتاب "رب الزمان" وكتاب "الحزب الهاشمي" لسيد القمني.. إنَّ المشكلة الكبرى في تقديري الشخصي في

هذه الكتب أنَّها كتب تحمل في طيّاتها انحيازات فكرية؛ فلم يؤلفها الأستاذان إلَّا ليضعا آراءهم المحض يقينية وشخصية، أحدهما في الدفاع والتوقير، والأخر في النقد والنبذ لموضوع واحد، ألا وهو الإسلام.. ولو استطاع الكاتبان تبنّي الوقوف على الحياد والموضوعية في عرض مناهجهما الفكرية، لكان ذلك أوقع لدور المفكر في حياة العلم والمجتمع على حد سواء، في هذا الصدد أؤكد وأكرر: حرامٌ على الادعاءات الشخصية للمفكر سواء بالإيجاب أو بالسلب تجاه الدين أن تظهر في كتبه وأعماله؛ لأَنَّ ذلك مِن الذي يجعله منتميًّا إلى فئة معينة من البشر، وهذا أقرب إلى الهدم منه إلى البناء.

والناظرُ في أمور الفكر والثقافة والمتفحص أحوالها، يجدُ أَنَّ المكتبة العربية تزخر بعدد لا بأس به من المشروعات الفكرية الجادة، ففي إصلاح التعليم يتصدر الأستاذ الدكتور طه حسين مشهدًا لامعًا في بناء رؤيته في كتابه الصادر في أواخر الثلاثينيات "مستقبل الثقافة في مصر"، والمتأمل أحوال فحص العقل العربي وإصلاحه يجد الدكتور زكي نجيب محمود والدكتور طارق حجي والدكتور محمد عابد الجابري ثلاثية رائعة في تحليل العقل العربي، لكن كتبهم وما بها بعيد كل البعد عن المجتمع من حيث الاطلاع عليها وفهمها، فضلاً عن تنفيذها على أرض واقعنا المعاش.. والسبب المباشر في هذا عجز المجتمع عن التلاقي مع أعمال هؤلاء المفكرين، بالإضافة إلى عزوف المفكرين أنفسهم عن التلاقي مع المجتمع في صورة مباشرة واضحة؛ ما يجعلهم يكتبون وينشدون التغيير في الكتب، بالإضافة إلى الندوات الثقافية الخاصة.. وقد يكون السبب المباشر في ذلك

عدم استجابة العقل الجمعي للمفكرين وأطروحاتهم، مثل سائر المجتمعات الإنسانية لما عرضناه آنفًا من انفرادهم بالطرح.

وجملة القول إنَّ الثقافة العربية تحتاج أول ما تحتاج إلى العناية بالمفكرين، وإدراك أثرهم في حياتهم وأن بالفعل تفوق عقولهم عقلهم الجمعي، وإن قُلتُ بأَنني أقتنعُ بأَنَّ تطبيق هذا أمر يسير، لكنتُ من المثاليين الذين لا يعرفون عن واقع مجتمعهم شيئًا. لكن حسبي التذكير ولفت الانتباه إلى هذا؛ عسى أن ينصلح الحال فكريًّا من ناحية عرض أطروحات المفكرين أنفسهم، ثم استجابة مجتمعاتهم لها أو التوقف عن محاربتها، على أدنى تقدير.

المقال الرابع: تحرير عقل الطفل

يُولَدُ الإنسانُ صفحةً ناصعة البياض، فلا هو بالملاك الذي لا يخطئ قطُ ولا بالشيطان الذي يعتري خلايا ذاته خطايا وذنوب وجرائم، في هذا الجو الذي يعيشُ فيه الطفلُ مستقبلاً الحياة لا مُفرنقعًا عنها، يحشو عقلَهُ مَنْ حولَهُ بأفكار متعددة متباينة تَبعًا للثقافة التي فيها يحيا؛ فيعيش حياته متبنيًا أفكارًا ما كان بالغًا إيّاها بغير وجوده في منطقة جغرافية معينة. فلو أَنَّ طفلاً يمكث في الأراضي السعودية، لتباينت عاداته وتقاليده ودينه الذي يعتقد في صحته عن ذاك الذي يربض في أطراف العالم كأستراليا مثلاً. ما يثيرُ حفيظتي تحولُ العقل الإنساني لا سيَّما عقل الطفل، إلى ماكينة تتغذى في المقام الأول على وقود إرث الثقافة الجغرافية ولا أكثر.. في هذا الصدد، يُقيَّدُ عقل الطفل أيَّما تقييد؛ لتكون حياتُه بما تحمله من أفكار في يد سواه من الناس، فالأسرة تشكل جزءًا والمدرسة تشكلُ آخر، والكتب التي يقرأها وَفقًا لأفكاره إذا كان يقرأ تُغذي نفس الجانب العقلي.

إِنَّ أثر هذه الظاهرة الإنسانية خطيرٌ بالغٌ من الخطورة أقصاه؛ إذ إِنَّ ذلك يحجبُ بالضرورة عن الطفل نور عقله وسهام بصيرته وقدرته على الإبداع والتغيير والتمرد. تلك الظاهرة تمثل حجر عثرة أمام الطفل إذا ما فكَّر فيما لا يفكر فيه سواه من أبناء مجتمعه الصغير، وذلك للرفض الذي يلحقه ويرافقه إذا ما نحا هذا النحو الجَلِل. والخطر العظيم يكمن في شيوع الإجابات المختصرة التي يتلقاها

الطفل في حياته البُدائية، والتي بالتأكيد تعبر عن عقل المجتمع الجمعي، أو إن شئت قُل: العقل الجمعي لمنطقة جغرافية محددة، الأمر الذي يكبت البحث عند الطفل خصوصًا والإنسان عمومًا.

إنَّ التعامل مع الثقافة الحاضنة للإنسان، ومحاولة تعليمها بشتى الطرق للأجيال الناشئة باعتباره أمرًا مُسلّمًا به لا يضيفُ شيئًا إلى المهارات العقلية التي يمتلكها الطفل، فالطفل يتلقى ما في بيئته فحسب دون تفحيص وتدقيق وتوثق من صحتها، وإذا فكَّر في تفحيصها قُتِّلَ رفضًا من مجتمعه.. تخيّل معي يا صديقي طفلاً يسأل معلمه: لماذا حال المرأة منكوبة في الدول العربية؟ أو سألت مسيحية أو يهودية كاهنًا: لماذا كانت المرأة متجرعة كل الغصص الدنيوية التي تصيبها من حيض وآلام وضع... إلخ بسبب خطأ آدم طبقًا لما جاء في سفر التكوين؟ أو آخر شيخًا يسأل: لماذا الهداية والضلال مُوكّلان إلى الله ومع ذلك نُحاسَب على ما نصنع في الدنيا وَفقًا للقرآن الكريم؟ أو طفلاً يسأل أبويه: مِن أين جئتُ أنا؟ هذه الأسئلة كما ذكرتُ آنفًا عادة ما تُقابل بالرفض أو بالسخرية أو بالإجابات المختصرة أو الخاطئة؛ مما يعمق تقيد عقل الطفل.

الحل الأوحد والأكمل والأشمل -في تقديري- من أجل حل تلك المشكلة التي تجلب الضرر أكثر مما تنفع أن نرسخ مبدأ الشك في أنفسنا أولاً، ثم نغرسه في أطفالنا تدريجيا: آباء ومعلمين ورجال دين وساسة وكتبة. لا بدَّ أن ينضج عقل الطفل ويتحرر من كل القيود التي تُحيطه والتي تُلزمه ما لا يلزم بأيّة حال من الأحوال، ينبغي

أن يعم الشك الأسرة ومؤسسات المجتمع المدني في تدريس الثقافة والأخلاق والدين والعلوم المختلفة. إذا فشل المجتمع في تحقيق ذلك، فسينقسم الأطفال إلى شطرين: أحدهما يُقنَع بالإجابات التي يُزوده بها مجتمعه ومَن به يحيطون، والأخر يتمسك بالبحث وحيدًا عن أسئلته المسكوت عن الإجابة عنها، تلك دعوة إلى إعمال العقل إعمالاً نقديًا خالصًا لا يحوي سوى الأدلة والبراهين دون تحيّز فكري لأيّ طرف من أطراف الجدل. لا أكتب هذا من قبيل الفلسفة، وإنَّما أكتبه رغبة في التعبير عن مساهمة المجتمع في تضييق العقول في ريعانة شبابها، أعني كل المجتمعات الإنسانية مهما امْتَدَّ إلى الآفاق معاييرها.

المقال الخامس: تراثنا الخطوة الأولى

باستقراء أحوال الأمم، من اللازم على كل أمة تريد أن تنهض التفتيش في تراثها القديم؛ كي يكون في مقدورها استيعابه، إذ يمثل ذلك خطوة هامة في استيعاب التراث الحضاري للأمم المتقدمة في كل وقت، والحاصل أَنَّ بالفعل أخذَت الحضارة اليونانية تراث المصريين وطوّرته فكانت حضارة الإغريق، ثم تلقّت العرب تراث اليونانيين وطوّرته فكانت الحضارة العربية الإسلامية، ثم عَمِلَ الغربيون على تطوير تراث العرب بعد تلقّيه واستيعابه، فكانت الحضارة الغربية الحديثة.

ولعمركَ، هذا الأمر شاق إلى أبعد حد، إذ يتطلب مشتغلين بتحقيق مخطوطات التراث العربي إذا أردنا البدء الجاد، ما يضع أعينَ المفكرين العرب الجادين بعدئذٍ على الطريق لقراءة وتحليل واستيعاب العقل العربي التراثي بكل محتوياته ومضامينه، وذلك بوجود أكبر عدد ممكن من التراث المنشور لا المخطوط، ومن ثَم تتأهب الأمة العربية جمعاء لعقد مقاربات دقيقة بين حِقَب العقل العربي على اختلافها وتشابهها؛ حيثُ الإعانة على استيعاب التراث نفسه، بما في كلياته من حضارة وما يشتمل على عصير العقل العربي وقت تقدمه وانحداره، ومن ثم الفهم الأكثر وعيًّا بكليات هذا العقل ومنتوجاته.

يقول الأستاذ الدكتور يوسف زيدان، وهو رجل فلسفة في الأصل انخرط في الاشتغال بالأدب وتحقيق التراث العربي المخطوط، بأَنَّ التراث العربي المنشور لا تتخطى نسبته 5% بالقياس إلى المخطوط..

وفي تقديري تلك أزمة كُبرى؛ لأَنَّ شغل الفلاسفة العرب والمفكرين الجادين على تحليل العقلية العربية التراثية، محاولين فهم الواقع الحالي ومجرياته، من أمثال الدكتور حنفي والدكتور الجابري والدكتور زكي نجيب محمود وغيرهم، لمجهودات فكرية يُحمَدون عليها، غير إنَّ كشف المزيد من المخطوط من تراثنا العربي قد يؤدي إلى ظهور معطيات أخرى تغيّر من وجه آرائهم، أو بمعنى أدق ما قد يُعين المفكرين العرب الجادين على إنتاج رؤى فكرية أكثر تعبيرًا عن جزئيات ودقائق العقل العربي الإسلامي.. بِناءً على ذلك، السعي إلى إنتاج أكبر عدد ممكن من المشتغلين بتحقيق تراثنا العربي الإسلامي أحسبه أولوية منهجية في الطريق نحو التقدم، إذا رغبت العرب جديًّا في أن تلحق بركب الحضارة الإنسانية.

والإشارة إلى هذه الخطوة المنهجية ضرورة قصوى لأمرين متضادين، أوّلهما: التوكيد على أَنَّها مركزية جدًا في إنتاج الرؤى الفكرية الفلسفية تجاه العقل العربي، ثانيهما: التحسر على ما يمر به العالم العربي من فوضى في هذا الصدد؛ فللمتحسرين أن يتحسروا وللعقلاء أن يُجنوا حينما يسمعوا بعبث العابثين في التراث العربي في وقتنا الحالي، لك أن تتصور خطورة الطعن المُكثَف في شخصيات التُراث الكِرام من أمثال ابن تيمية، وذلك باتكاء زاعمي التنوير مثل إسلام البحيري على "الفتاوى الكُبرى" الذي حققه صوريًّا رجل مجهول منذ ستين سنة تقريبًا بمراجعات غير منهجية في التحقيق. للعاقل أن يُجَن بوجود احتكام إلى قراءة رجل له باع في التراث العربي عن طريق نص ضعيف الحجية، وعدم التشدق بتراث الرجل الواسع

الذي يربو على ثلاثمائة مؤلَف، وكل ذلك دائر في دائرة الكسل المنهجي في قراءة الرجل، وتسرع غاشم في تفسير جماعات من المجرمين الغوغائيين.

إنَّني أرى بُدًا من الكشف عن تراث حضارتنا التي انقضت بمنهجية واضحة، يُستخرَج من خلالها المفخرة والمسخرة على حد سواء، يُستخرَج عن طريقها العقل العربي نفسه بما احتوى على كينونته من مساعات وخيبات، والأخيرة هي الأبين على رؤية المستقبل والتخطيط له، إذا رغبت العرب جديًّا في اللحاق بركب الحضارة الإنسانية.

المقال السادس: حول سياق العقل العربي

إصلاح المجتمعات الإنسانية يبدأ أول ما ينبغي أن يبدأ بالنظر في الحالة الفكرية الكلية للعقل الجمعي لكل مجتمع على حِدة، مع مراعاة واحترام وتقدير السياقات الإنسانية المختلفة التي ساهمت في تشكيل ذلك العقل.

أكثر الإشكاليات التي يُعاني منها العقل العربي الجمعي منذ فترة طويلة، يظهر لها تفاقمات وأعراض جانبية عميقة الأثر، هي إشكالية تتعلق بوحدوية النظر، ولعل الأزمة هذه ساعد في تكوينها التفاعل مع طبيعة الدين، واعتبار طبيعة الدين أمرًا ساعد في نشوء أزمة فكرية لا يعني بالضرورة نبذ الدين نفسه، بل ذلك وصف لمدارات التفسير البشري للنص الإلهي. قد تكون لغتي صادمة بعض الشيء، غير إني أرى من الصعب الإشارة إلى الإسلام باعتباره إلهيًا بشكل مطلق.. ولا أعي من "الإلهي" ذلك الشق المعرفي المصدري، بل بالأحرى رؤى وتفاسير التركيب النصي للإسلام نفسه بما نتج عنه من اختلاف جوهري بين المسلمين، فنحن إذا أردنا أن نشير إلى الإسلام فالدقة والموضوعية تُحتم السؤال: ما المقصود من الإسلام أصلاً؟ أيّ رؤية وتفسير نقصده؟ في باب العقيدة والتي تمثل الركن الأعلى والأهم في الدين، هل نقصد أهل الحديث أم الأشاعرة أم الماتوردية أم المعتزلة أم ربما نقصد مدارس أخرى؟ وفي باب الفقه هل نقصد إجمالاً أهل السنة أم الشيعة؟ وإذا كان المقصود أحدهما، فأيّ مذهب فقهي سني أو مرجع شيعي يمكن الاعتماد عليه؟ ومن

باب التعامل مع الآخر هل نقصد عقيدة الولاء والبراء التي يمتاز بها أهل الحديث، أم نقصد نظرة المتكلمين في الأمر أم ربما نلتمس الصوفية؟ ومن باب تفاعل العقل مع مصادر الإسلام، هل نقصد إسلام تقديم العقل على النقل بالكلية كما عند المعتزلة، أم نقصد التوفيق بين المصدرين كما عند الأشاعرة، أم ربما نقصد تقديمه في أمور وتعطيله في أخرى؟

تتمثل خطورة هذه الفكرة في تأثيرها العظيم على كبرى عقليات التراث العربي الإسلامي؛ إذ كان كلٌ يدافع عن فهمه للإسلام من كل تلك الأبواب في وجوه أفهام أخرى لنفس النصوص عادةً، وعندما أقول "كبرى عقليات التراث العربي الإسلامي" فمن الصعب أن يطعن في مناهجهم شخص موضوعي أبدًا؛ فجميعهم على قدر وفير من التمكن من اللغة، وأحسبهم جميعًا نزهوا الإله في باب العقيدة، وما بغض أحدهم الدين قط.. ومن الآثار العامة الكارثية عدم تحمل كل فهم من الأفهام الإقرار للآخر بالصحة كليّة، ما أدى إلى وجود نبذ متبادل بينهم بدرجة تعظم أحيانًا، وفي سياق أخر تضمحل وتحقر.. ظهر ذلك النبذ في بعض النعوت التي تحمل معاني مميزة لكل منها من أمثال: التبدعة (فيُقال فئة مبتدعة)، والزندقة (فيُقال كان فلان زنديقًا)، والضلال والتضليل (فيُقال ضال مُضل)، والفساد والإفساد (فيُقال فاسد مُفسد)، وكل تلك النعوت لا تخرج المسلم عن إسلامه، غير أَنَّ التكفير كان بين بعض كبار العقول الإسلامية على أساس سنّي شيعي، مع أَنَّهُ كان مقصورًا على تكفير السنّة لأئمة الشيعة الروافض دون العوام، وليس كالذي يحدث حاليًا من غوغائية

التكفير بين الطرفين.. وحتى نستوعب هذا السياق الإنساني بصدر رحب وعقل متفحص، فليس من الإنصاف لوم ظهور ذلك النوع من النبذ بينهم وأظن السبب واضحًا، وهو أنَّنا لا نشير إلى اختلاف حول التعاطي مع نصوص من التراث الإنساني، بل نشير إلى تباين في التعاطي مع نصوص يُعتقد بألوهية مصدريتها، لذا كانت الصرامة بينهم من باب البحث عن الحق الإلهي المطلق. وربما يتعقد الأمر بفلسفة الوحي في الإسلام، حيث إنَّ النص القرآني هو النص المباشر الذي تلقّاه النبي عن جبريل، ما يوحي بمقصودية كل حرف وإن كان في تفصيل هذا الكلام خلاف.

وقد يسأل سائل: وما علاقة هذا بالسياق العربي الحالي؟ بالنظر إلى أَنَّ الدين أكثر المنظومات الكليّة تحكمًا في الضمير العربي، فالفكرة التي أشّرت إليها أو ربما فصلت جانبًا منها، غير مأخوذة في الاعتبار عند المتحدثين في الشأن الديني بالإضافة إلى كثير من المفكرين العرب الذين قرأت لهم إلى حين كتابة هذه الكلمات، وقُلت المفكرين العرب، لا المثقفين العرب، عن قصد واعٍ باختيار المفردة الدقيقة؛ مما أدى إلى تعميق الضيق العقلي وجموده في الضمير العربي نفسه. وبمعزل عن عوام الناس، لا عجب أَن تجد مَنْ يُحسَبون على الثقافة لا يتخيلون واقعًا أَنَّ المنظومة الدينية لها توجهات مختلفة من الداخل تتضارب في دقائقها، والكل عنده تأصيلاته وجهوده التي لا ينبغي أن يُقفَل بالفهم عليها أو أن تُستبعَد من السياق، تخيّل أَنَّ كثيرًا من المثقفين العرب حاليًا يُكرسون أعمارهم في سبيل الاستماتة في الدفاع عن توجه معين من الدين على حساب كل

التوجهات الأخرى، بل إنَّ العقول الأكاديمية في المجمل أصبحت أشبه بالماكينات التي تحفظ دون أن تفهم إلا ما ندر.. إنَّ المصيبة - في تقديري- أن تكون النخبة غير قادرة على استيعاب أعماق السياق الديني، فيُصوَّر لهم سهولة النظر الوحدوي للدين، حتى وإن كان أكثرهم يعلم أَنَّ الواقع غير ذلك.. شخصيًا، تعرضتُ غير مرة إلى مناقشات فلسفية من باب إسلامي مع أساتذة جامعة من أمثال مناقشة حدوث أو قدم العالم. عادةً ما أجد تأييد المتكلمين القائلين بالحدوث ونبذ ابن رشد مثلاً القائل بالقِدَم وعدم مناقشة تأصيلاته أصلاً، وذلك على الرغم من وجود التصورين المؤيديْن من النص القرآني نفسه عندهم. وفي سياق آخر أجد تأييد قِدَم مادة العالم القائل به ابن تيمية على حساب تجاهل وعدم مناقشة تأصيلات المتكلمين للحدوث، وذلك على الرغم من وجود التصورين المؤيدين من النص القرآني نفسه عندهم.. العجيب أَنَّ الكل مسلم، والكل ملتزم بالنص، غير أَنَّ الأفهام نفسها مختلفة، السؤال الذي ربما يكون مُخزيًا بالنسبة إليّ: ماذا تُرِكَ للعوام في هذا الصدد؟ أنا أتحدث جديًا بركون كثيف نحو الإحباط العميق!

وإِنَّكَ لتجد عوام الناس في ثنايا النظرة الواحدة التي عادةً ما يرسخ لها غلبة التصور الديني لتصور معين، سواء أكان في باب العقيدة أو الفقه، حيارى إذا ما ظهر أحد يشذ عما أَلِفوه، وربما يرغب الراغب في اختبار ما أزعم وفق حال المجتمع العربي الحالي عمومًا والمصري خصوصًا، عن طريق إعلام الناس في الشارع أو ربما في التلفاز أَنَّ القضاء والقدر وهم، وعذاب القبر كِذبة والمسيخ الدجال من

الفلكلور الديني.. أعتقد أنَّ الإجراء القانوني المناسب في هذه الحالة ووفق معايير مجتمعنا الفاضل، لا يخرج عن أمور معينة: إما قضية ازدراء الأديان، أو اتهام بالكفر من قِبَل كثير من رجال الدين، أو ربما حثّ على قتل القائل.. على أيّة حال، إذا بلغ من المجرب مبلغ النيابة مثلاً، فربما يراسلني وسوف أرشح له عددًا من الكتب في تفصيل الأمر يقترح قراءتها على الذي يحقق معه ما ازدرى عن طريقه الدين، علّه يكتشف ويندهش حين علمه بأَنَّ المعتزلة المسلمين ازدروا الدين منذ دهر بعيد، لكن حسب الراغب في التجربة أن يستفز عقل المحقق في قضية من القضايا الثلاثة سريعًا، فيسأله: كيف يؤيد الله الكاذب

(المسيخ الدجال) بالمعجزة؟

هذا السياق التاريخي التراثي للبنية الدينية، وعلاقته بالنظر الوحدوي لأهم العوامل الثقافية المتحكمة في الضمير العربي، لأمر له أثره البليغ في بِنية العقل العربي نفسه؛ فلا تتعجب أبدًا، أرجوك لا تتعجب عندما يخرج عليكَ مَن يُزعَم بأَنَّهم مفكرون تنويريون عند فريق، ومحاربون للدين عند فريق آخر، بأَنَّ من المتوقَع أن يكونوا مفكرين ومحاربين في آنٍ واحد؛ فهم مفكرون عند مَنْ يندهش بإظهارهم أطروحات قديمة في التراث العربي الإسلامي دون علم المندهشين بوجودها، ومحاربون عند مَنْ لا يتخيل وجودها في سياق الدين أصلاً. لا أقول بأَنَّ هذه قاعدة مستمرة منتظمة لدى المنعوتين

بالمفكرين في الإعلام، لكن يقع كثير من مدارات الحراك الفكري النقدي الحالي على هذا النحو.

رأيي الشخصي وإن كان متشائمًا، أنّه إذا استمر الحراك الثقافي العربي بنفس الطريقة هذه التي تئن بالانغلاق، فسوف يستمر النظر الوحدوي للدين خاصة، والاستعداد للنظر الوحدوي عامة، خصيصة فكرية عربية ملتصقة بالعقل العربي، والماضي يصير مستقبلاً والحاضر يصير ما بعد ذاك المستقبل بغير تطور.. إضافة إلى ذلك، لن يُنتظَر من المثقف العربي كما هو الحال إلا أن يخلع تعصبه من فكرة أو نمط فكري معين، ليتعصب إلى فكرة أو نمط فكري غيره؛ فيدخل بذلك أحد مسارح السرك الفكري، أما عن رجال الدين الوعاظ وعوام الناس، فأولئك حقًا يستحقون الشفقة حيثُ يهدرون أوقاتهم وطاقاتهم الذهنية والشعورية في كثير من الأمور ليست إلّا أشبه ببناية شاهقة متعددة الطوابق، يشكّون في أنَّها طابق واحد، ويتيقّنون من صحة ظنّهم بتوكيده الآخرين.

المقال السابع: سؤال العلمانية والشريعة الإسلامية

وأُسألُ عادة إذا ما كنتُ إسلاميًّا أم علمانيًّا..

والسؤال هذا يحمل في طيّاته مغالطة منطقية وهي: مغالطة "الأبيض والأسود" أو "الإحراج الزائف" وهي مغالطة يقوم في ثناياها المُغالِطُ ببث إحدى فكراته، معتبرًا إيّاها الصحيحة والأخرى خاطئة، أو إن شئتَ فقُل: مُعتبرًا إيّاها الاختيار الأبيض النقي والأخرى الأسود، فإذا كانَ السائل إسلاميًّا فهو يجعل من كونه إسلاميًّا اختيارًا مضادًا للعلمانية، دون أن يقع منه اختيارًا ثالثًا أو رابعًا أو خامسًا باعتبارها نقطة رمادية. وإذا كان السائل علمانيًّا، فهو يجعل مِن علمانيته اختيارًا أبيض مضادًا لإسلامية الطرف الآخر، دون أن يجعل من اختياراته ثالثًا أو رابعًا أو خامسًا يمثل نقطة رمادية، إذن: فالمغالطة تجعلك بين اختيارين أحدهما أبيض والأخر أسود، مع تجاهل متعمد أو غير متعمد للاختيارات الأخرى المتاحة على أرض الواقع، وهي مغالطة ساذجة في عمقها؛ إذ أنَّها تشبه القائل: هل أنت فلسطيني أم صهيوني؟ ويكأنَّ كل الاختيارات اندثرت عن هوية الشخص عدا أنه فلسطيني أو صهيوني، ويكأَنَّ الصهيونية أيضًا منطقيًّا معاكسة للفلسطينية؛ فالسؤال يحاول أن يجعل من إحداها مضادًا للأخر بطريقة ساذجة.

أما عن كوني إسلاميًّا أو علمانيًّا، أو بطريقة أخرى: أيّ الأنظمة السياسية أؤيد؟ بكل وضوح: أنا أؤيد النظام الذي يرتضيه كل مجتمع إنساني على حِدة وفقًا لخصوصيته الثقافية؛ فكما أقول دائمًا: إذا اتفق

العقل الجمعي على تمشيط شعره بملعقة الطعام، لاحترمت خصوصيته في ذلك ولا أؤاخذه أبدًا.. خُذ ما قُلت آنفًا وضَعه في سياق اجتماعي يوافق العقل الاجتماعي لمجتمعنا؛ لتتشكل لدى المجتمع الرؤى السياسية في تقديري الشخصي.. فقط أمرًا واحدًا عنه أتساءل: ما معنى "الإسلام هو الحل" أو "الشريعة الإسلامية" أو "العلمانية العربية"؟ إنَّ المعضلة الحقيقية -في تقديري- تتمثل في غموض الرؤية نفسها عند الداعين إلى تطبيق الشريعة الإسلامية أو تطبيق العلمانية؛ فإنَّني لا أعلم منهجًا واحدًا موضوعًا في تطبيق الشريعة الإسلامية كي أُقيمه، ولا أعلم في المقابل منهجًا موضوعًا واحدًا في تطبيق العلمانية، كل ما أراه شعارات يطلقها الإسلاميون ومنها: "الإسلام هو الحل أو تطبيق الشريعة الإسلامية أو الحاكمية".

وعلى صعيد أخر فإنَّكَ تجد العلمانيين العرب يتشدقون بشعارات أخرى من أمثال: "المواطنة هي الحل" أو "الحرية والديمقراطية" وهكذا.

والواقع في تقديري أنَّ الإسلاميين يطلقون شعارات والعلمانيين كذلك؛ فلا راعى الإسلاميون معطيات العصر ووضعوا منهجًا مفهومًا واضحًا، ولا وضع لنا العلمانيون منهجًا يُعتد به ويمكن فحصه. أقول: إنَّ الإسلاميين والعلمانيين في العالم العربي مُقلدة، فالأولون يأخذون النص المقدس دون وضعه في نسق اجتماعي مفهوم، والآخرون يريدون تطبيق العلمانية كما رأوها في نسق اجتماعي غربي، ولا يريدون موائمة ذلك مع المجتمع العربي، حيث

مراعاة ظروف نشأة العلمانية نفسها.. وعليه: لا أعرف منهجًا واضحًا من الداعين إلى تطبيق الشريعة أو العلمانية كي أعرب عن إعجابي به أو كليهما، لكنني وضعتُ القاعدة: العقل الجمعي هو الذي يجب الاحتكام إليه.. فهذه دعوة إلى المتصدرين لعالم الفكر والتغيير أن يضعوا منهجًا يعربون فيه عن صلاحية ما يدعون إليه في نسق اجتماعي واقعي مُعايش، سواء أكان ذلك من دعاة الشريعة أو العلمانية أو أيّ نظام حكم أخر.

المقال الثامن: الكارثة المنكوبة

تكمن أخطر مشكلة فكرية في العالم العربي في ضياع قيمة التفكير حقيقةً، والإغراق في السطحية عند رسم الدعاوي الفكرية، والإيغال في التنازع السطحي بين أطراف التضاد الفكري.

في إطار الشجار الأكثر شيوعًا في العالم العربي بين الداعين إلى العلمانية والداعين إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، يجوز أن نسأل مثلاً العلمانيين أكثر من سؤال:

بعد إتمام قراءاتكم المستفيضة والتمعن فيها، هل عندكم من نموذج مُحكَم تسعون إلى تطبيقه في العالم العربي؛ بحيثُ يكون حلقة واسطة تجمع بين فكرة غربية المنشأ، مختلفة السياق، ذات قدرة على تحقيق أكبر قدر من الإصلاح السياسي والاجتماعي في المنطقة؟ الواقع عندي أَنَّ هذا السؤال عند أكثر العلمانيين العرب لا إجابة له، أو على أكبر تقدير منقوص الرؤية. فإنَّكَ إذا تتبعتَ كِبار العلمانية في المنطقة، فسوف تجد أناسًا يبنون فكرتهم على نقد تطبيق الإسلام في السياسة بين ربوع هذه المنطقة.. هذا فضلاً عن أَنَّكَ إذا نظرتَ في أحوال أكثر العلمانيين العرب، فسوف تجدهم يخلطون بين التأصيلات الفلسفية للعلمانية وبين ما يدعون إليه من تطبيق واقعي اجتماعي، مما يدفعني دفعًا إلى الارتياب في فهمهم الفكرة تفصيلاً وتأصيلاً!

واذهب بعدها إلى أولئك الذين يرغبون في تطبيق شريعة الإسلام في باب السياسة وإقحامها بالدولة تطبيقًا، وسلْهم واضحًا: ما النموذج الذي تعتقدون في أَنَّهُ يقف من الشرع موقف ما ترغبون،

فما وقفتُ على كتاب واحد في هذا الباب ينهض برؤية تحثُّ على تطبيق الشرع الإسلامي ذلك التطبيق الذي يرجونه أولئك، وسلْهم أيضًا: ما الذي ينبغي تغييره في أوضاع المنطقة تطبيقًا للشرع، لتجد بعدها إجابات عامة جدًا من قبيل: تعديل بعض القوانين وإدراج أخرى، بالإضافة إلى ضبط السلطة السياسية المجتمع بالشرع الشريف.

وفي ثنايا هذه المهزلة الفكرية، ثمّة تشويه عظيم لفكرة العلمانية نفسها والشرع الإسلامي من قِبَل العلمانيين والإسلاميين؛ لتجدَ نفسك أمام طائفة من العلمانيين يقرنون العلمانية بنبذ الحِجاب مثلاً، والآخرين يقرنون العلمانية بالخلاعة والانفلات وغير ذلك من الإلحاد أحيانًا، وما بين ذلك كله يتلقى عوام الناس من الطرفين أفكارًا تشويهية في هذا الصدد؛ ما يجعل العصبية السبيل الوحيد لعقل العاميين، وكما قُلتُ سابقًا: كل ذلك يُطرَحُ من قِبَل أُناس يتم نعتهم ب"المفكرين" ما بين مفكرين إسلاميين وعلمانيين يتأرجحون.

وإذا أردتَ أن تنظر في شأن التنوير.. نقد التراث العربي الإسلامي.. النسوية.. إلخ، لوجدتَ الأفكار المطروحة كلها لا منهجية، وأحيانًا مُشَوِّهة للتأصيلات الفلسفية لها، ولوجدتَ متصدري المشهد يعرضون ما لا يعون دقائقه وتفاصيله، وذلك استقراءً. ولكم قُلتُ، وأكثرتُ في القول بأَنَّ علينا أن نُراجع أغلب مَن ننعتهم ب"المفكرين" أو "التنويريين" لفحص المناهج الفكرية التي ينطلقون منها، ولا ينبغي تناسي تأثر عوام الناس بالبناء الفكري المُشوه هذا، وتجهيلهم والإيغال في تجهيلهم من الجوانب كافة.

المقال التاسع: بين الفلسفة والدين (التقاء أم افتراق)

إنَّها لمن المشتركات بين البشر جميعهم، بغض النظر عن اختلافهم العقلي والثقافي والعرقي واللغوي والجنسي، أن تقفز في نفوسهم حاجة ماسّة إلى التفاعل مع الأسئلة الوجودية الكبرى: مِنْ أين جئنا؟ وما الغاية من وجودنا؟ وما مصيرنا؟ بات الضمير الإنساني منذ زمن بعيد منشغلاً بهذه الأسئلة عظيم الانشغال إلى حد أن عَجَّلَ أطفال البشر بطرح السؤال الأول من الثلاثة؛ باحثين عن الإجابة في نفوس والديهم.. تلك مقدمة أراها صالحة لهذا الموضوع المَهيب، ومهابته تنبع من اختراقه نفوس عالم الإنسان كله، تلك مقدمة من الضروري أن تكون شعورية لا جفاء فيها ولا جدل؛ فالأمر جِد جَلِل، ولا يوفي الأمر قدره قط مقال قصير، إنَّ الموضوع الذي بين أيدينا أيها القارئ لهو أرهق المسائل قاطبة للضمير الإنساني؛ فقد فتك بكبرى عقليات الإنسانية أول ما أفتك، وبحث في الشأن نفسه كثير من عالم الناس، ولا يزال موضوعًا لا يُقطَع فيه برؤية واحدة. وإنَّني لعلى استحياء أحاول أن أعبر عن بعض المغالطات المنهجية حين النظر إلى الفلسفة والدين في المنطقة العربية، وذلك موضوع له سياقه الدقيق، والذي هو أقرب إلى كشف المغلوط حول الفلسفة في سياق ثقافي حيث ترعرعت ونشأت، فضلاً عن مناقشة المسائل الوجودية نفسها أو المعتقدات الدينية من الداخل.

وإيمانًا مني بنُبل القراء، أرجو أن يتعهد كل جوهر ينبض بمعالم الإنسانية أن يستشعر عِظَم الأمر؛ غارقًا في استيعاب الحالة الإنسانية نفسها بغض النظر عن الاعتقادات المختلفة في هذا الشأن.

الفلسفة مجال من أهم المجالات الإنسانية التي لها في التجربة الإنسانية أثر بليغ على مدار ألفين ونصف ألف من الأعوام؛ ذلك لأَنَّ بحوث الفلسفة تؤول إلى طرح الأسئلة الأساسية بين البشر، وهي في سياقها الكلي القديم أربعة مباحث: الوجود والمعرفة والقيم والمنطق.. تلك المباحث الرئيسة قد تفرع عنها الكثير مما تؤول إليه دراسة الفلسفة، وذلك عبر تاريخها الطويل.

إذا أردنا الاصطلاح على تعريف موضوعي للدين، فقد يصلح تعريفي لهذا الغرض: مجموعة من النصوص التي تحوي أفكارًا وشعائر ومعتقدات، من شأنها أن تُكسب الإنسان فهمًا لأسئلته الوجودية، والنصوص تمثل تواصل الإله مع البشر عبر وسيط.. لا تصلح كل معطيات هذا التعريف 13 دينًا بمثابة الديانات الحية حاليًّا، فضلاً عن 4200 دينًا في الإنسانية وتاريخها. لكن بما أَنَّ السياق الذي أعنيه عربي، فما تقدم يمثل تعريفًا موضوعيًّا للإسلام باعتباره الدين الأكثر شيوعًا في المنطقة العربية، وثاني أكثر الديانات اتباعً في العالم بأسره.

يلتقي الدين مع الفلسفة، أو الفلسفة مع الدين في نقطتين هامتين جدًا، أَلا وهما: فلسفة الدين في الفلسفة، بالإضافة إلى علم الكلام في الإسلام وعلم اللاهوت في المسيحية. فلسفة الدين هو فرع دقيق جدًا من فروع الدراسات الفلسفية، وهو يشتمل على الميتافيزيقا

ونظرية المعرفة واللغة والفلسفة الأخلاقية وغيرها في الدين، وأكبر أسئلته: هل يوجد إله؟ أما علم الكلام الإسلامي وعلم اللاهوت المسيحي، فهما يختصان بالشق العقدي الدفاعي لكل دين منهما.

أخطر إشكالية في السياق العربي الحالي في الجانب المُشار إليه هو التنميط الجمعي الضمني للفلسفة نفسها؛ بحيث يتم اختزالها في فرع من فروعها من جانب وتوحيد الرؤى المختلفة من الفلاسفة في هذا الشأن من جانب أخر، الخطير في ذلك التنميط أَنَّهُ ناتج عن تنميط آخر، وهو عدم احترام قيمة الفيلسوف عامة لما حوله من سوء فهم منهجي أصلاً، وفي تقديري الشخصي هذا التنميط السابق تاريخي تراثي في الثقافة العربية الإسلامية؛ بحيث أنَّ آراء فرقة أهل الحديث "السلفيين" تجاه الفلسفة والمنطق تمثل نوعًا من نبذ التفكير العقلاني في غير قيد ديني، مما يُعَمِّق اقتران الفلسفة، والتي هي مُختَزَلة إلى فرع واحد، بما يُضاد الدين بالضرورة، ولعلك تلحظ في اللغة اليومية الدلالات المعنوية للفلسفة؛ بحيثُ أنَّها لا تُذكَر ولا يُرجى من قائلها سوى التفكير الغريب الشاذ "هتتفلسف ولا إيه؟"، وعلى الرغم من تحريم أهل الحديث الفلسفة والمنطق، أستطيع استيعاب الدوافع النفسية الشعورية وراء هذا الموقف السلبي؛ فذلك مآله بشكل رئيسي إلى ألوهية المصدر الديني مما يكسبه الفوقية، بالقياس إلى الفلسفة التي هي إنسانية الطابع. بالإضافة إلى ذلك، أولوية الحفاظ على آخرة الناس وإقصائهم عن فتن الدين.

حرص كبار أئمة أهل الحديث على أن يحتضنوا النصوص المقدسة للإسلام من الداخل، لكن تغافلوا عن موضوعية رسالة الإسلام وحجيته باعتباره زعمًا بالنسبة إلى الذين ما اختبروا مصدرية نصوصه.. حتى ابن تيمية، وهو رجل مهم في تراثنا العربي الإسلامي، عندما تناول قضية درء تعارض العقل والنقل، تناول القضية من داخل السياق النصي الإسلامي.

لكن المسألة التي تستحق الاهتمام حقًا: ما الأداة التي يختبر بها الإنسان وجود الإله؟ وما الأداة التي يختبر بها الزعم بأَنَّهُ تواصل مع البشر؟ وما الأداة التي يختبر بها زعم تواصل الإله مع البشر عن طريق النبوة؟ وما الأداة التي يختبر بها نبوة النبي محمد تحديدًا؟ هنا، لو اعتمد المسلمون على إجابات أئمة أهل الحديث، لتحول الدين الإسلامي كله إلى ادعاءات لا يمكن قبولها على غير نحو شخصي ليس لازمًا لأحد؛ ذلك لأَنَّ أدلتهم في كليات الدين تتكئ على الشعور تارة، وعلى النصوص من الداخل أخرى، ما يجعل المرء أمام شعور حدسي نسبي يُستَخدَم دليلاً موضوعيًّا في مسائل كبرى، ومغالطة منطقية تحت اسم "الاستدلال الدائري". هنا يُقر المسلمون جميعهم عدا تلك الفرقة بأهمية الفلسفة والمنطق في السياق الديني.

وفي تقديري، يمكن تقسيم الناس حسب إدراكهم للدين إلى ثلاثة صنوف:

أولًا: عوام الناس، وهم القاعدة العريضة من البشر، وعادة يكون موقفهم من الدين وراثيًّا كليًّا وجزئيًّا؛ بحيثُ لا يثبت المسلم على

الإسلام فحسب بل على سُنّيته مثلاً، والمسيحي على كاثولوكيته مثلاً.. يؤسفني القول بأَنَّ استدلالات عوام الناس على موقفهم من الدين تتمحور حول الحدس أو العوار الواضح في الاستدلال؛ كأن يبرهن أحدهم على ألوهية المصدر للقرآن لشعوره بالطمأنينة حين سماعه، أو أن يستدل أخر بالإعجاز العلمي مع أَنَّ أدنى مستويات المنطق تؤهل المرء ليسأل: كيف يتم الاستدلال على صحة منهج لغوي الأسلوب ألوهي المصدر مطلق الحق بمنهج أخر دقيق التجربة بشري المصدر ونسبي الحق؟! على الطرف الأخر من الموقف تجاه الدين، هناك عوام لا دينيون بدرجات مختلفة حسب سياقات مجتمعاتهم الثقافية، والملاحدة الإيجابيون منهم يتحدثون في معضلة الشر/المعاناة بغير دقة منهجية، عادة انتقال عوام الناس من دين إلى أخر، أو من اللادين إلى الدين، أو من الدين إلى اللادين قليل جدًا، واستدلالاتهم على تغيير قناعاتهم أيضًا تقف من الشعور أو السطحية المنهجية موقف الإقناع عندهم، كأن ينتقل لاديني إلى الدين على إثر تأثره بأخلاق أصدقائه المتدينين، أو انتقال مسلم إلى اللادين على إثر قتل داعش أخًا من إخوته.

ثانيًا: الفقهاء ويتمثل دورهم في الاشتغال بالعلوم الشرعية التي تمثل مناهج التعاطي مع النصوص من جانب، واستنباط الأحكام الفقهية، هناك شخصيتان مهمتان في الفقه الأولى تشبه العوام: وهي الشخصية الوعظية التي تستند إلى النص للإشارة إلى الأمور الوعظية العامة في الدين، ثانيًا: شخصية فقهية مُجددة، عادة ما يكون لها أثر كبير في إثراء أو وضع البوادر الأولى لعلم شرعي معين، الشخصيات

الفقهية الكبيرة في التراث الإسلامي شخصيات عادة ما تتمتع برحابة كبيرة لاتصالهم بعلم أصول الفقه، والذي شارك في كثير منه عقليات إسلامية كلامية.

علماء الكلام/المتكلمون: هم أرحب النماذج الإسلامية في التراث الإسلامي، ودورهم المشترك بينهم جميعهم يتمثل في عرض البضاعة الفكرية والتأصيلات المنهجية للدين، بدءًا من أدلة وجود الإله، مرورًا بضرورة التواصل مع البشر ودلائل نبوة النبي، وانتهاءً ببعض الأمور الأخرى المتعلقة بالعقيدة مثل: موقف كل مدرسة كلامية من حرية الإرادة.. صفات الإله.. تفسير معضلة الشر.. القيمة الكلية للدين.. دلالة المعجزات الحسية.. إلخ، لم يشارك أحد من أهل الحديث ببناء عقلي جاف، غير أَنَّ ابن تيمية له إسهامات فلسفية هامة لو أخذ بها المتشدقون به من المعاصرين، لنضجت عقولهم وامتلأت قليلاً بدلاً من الحشو الذي هم عليه.

ولأنَّ السياق العربي الحالي ليس بالعافية المرجوّة من حيث حالة التقدم الحضاري، فمن الصعب أن يسترد الضمير الإسلامي الجمعي قدرته على التفلسف في السياق الديني، لقد استخدم المتكلمون قديمًا المنطق الأرسطي الصوري، ونحن حاليًا في عصر امتلأ بأنظمة كثيرة من المنطق الرياضي، وفي الشارِع العربي وإعلامه مَن يدعو إلى توقف العقل عن التفكير في مسائل الدين الكلية إلى هذه اللحظة، وأولئك المساكين يحسبون ذلك انتصارًا للدين!

إنَّ الفرق الوحيد بين فلسفة الدين ، وبين علم الكلام الإسلامي هو عدم الالتزام بالنص المقدس؛ وذلك لأَنَّ من الطبيعي أن فلسفة الدين ليست مدرسة عقدية.. والقائل بأن الفلاسفة في هذا الشأن ضرر للدين كما يزعم الزاعمون، عليهم إدراك جهود إيمانويل كانط في فلسفة الدين، والرجل علامة كبرى في تاريخ الفلسفة وكان متدينًا، وربما يرغب الراغبون في مراجعة فلسفة ديكارت وليبنز كذلك.. المشكلة الكُبرى في هذا الصدد أَنَّ السياق العربي الحالي يطلق إطلاقات حول الفلسفة والفلاسفة، ويكأَنَّ المناهج العقلية للإنسان لا توصله إلى طريق سديد بالضرورة وبالإجماع، وربما يكرر التاريخ نفسه إذ كان ذلك الاعتقاد شائعًا في أوروبا منذ خمسة قرون على حياة ديكارت نفسه.

ولا يفهمَنَّ من كلماتي السابقة اتفاق الفلاسفة فيما بينهم على شيء، بل ليس هناك أكثر من الفلاسفة تناحرًا وجدلاً واختلافا.. غير أَنَّ إعزاء الدفاع عن الدين إلى العوام أو الفقهاء لا يفيد كثيرًا، أما إذا بحث الفيلسوف في المسألة وبلغ فكره تبنيه أحد الأديان، يكتسب الدين نفسه رؤى أكثر عمقًا لاستيعاب مضامينه بشكل عقلاني منهجي، ولعمرك دعوات تجديد الخطاب الديني غير مُجدية بغير استيعاب أنَّ القضية ذات علاقة بأنماط الناس أنفسهم.

وفي الأخير، لا خوف على الفلسفة أن تذوب وتنتهي وتندثر على إثر استخفاف العقل العربي الجمعي بأهميتها، وإنَّما الخوف علينا نحن العرب أن نندثر قريباً، لغيابنا من السياق الفلسفي العالمي الحديث والمعاصر، وإدراك الفرق بين ما كان عليه فلاسفة العرب منذ نحو ثمانية قرون وما شهدته الفلسفة من عظيم ازدهار بدءًا من عصر ديكارت، مرورًا بعصر الأنوار، وانتهاءً بالقرن العشرين إلى الآن.

المقال العاشر: بين التبعية والاستقلال حيرة عميقة

(كُتِبَ في الثاني والعشرين من أغسطس من عام 2022)

منذ نحو ست سنوات، بدأت أنظر إلى الإنسان باعتباره كائنًا سخيفًا جدًا، وأبرز صنوف السخف عنده أن تجدَ معظم المنتمين إلى الجنس البشري لا يفكرون إلَّا في نطاق ضيق عادةً ما ترسمه لهم ثقافات مجتمعاتهم، وربما كان أهم ما يلفت انتباهي في هذا الشأن المسائل الفكرية الكبرى التي تندرج تحت باب المناهج الكلية في هذا العالم؛ فكنت لا أبالي كثيرًا بالوجوه المختلفة للثقافات الإنسانية التي تندرج تحت باب الحدس"intuition"

بدرجة معينة، لكنني وقفت من المناهج الفكرية الكبرى موقف الاندهاش بعض الشيء، وكنتُ أتساءل: لماذا البيئات الثقافية التي تبث المنهج العلمي وتحث عليه تنتج عادةً ألعابًا بشرية تردد هذا المضمون؟! ولماذا البيئات الثقافية التي تُعلي من المنهج الديني على المنهج العلمي تُنتج ألعابًا بشرية أخرى تردد هذا المضمون؟! لماذا البيئات الثقافية التي تشجع المناهج اللادينية على حساب المناهج الدينية تنتج عادة ألعابًا بشرية تردد هذا المضمون؟! وكنت حرفيًّا أنظر إلى معظم البشر باعتبارهم مجرد ألعابًا بشرية؛ فإذا أراد المُريد أن يختبر لعبة الإنسان، فليتمكن من توأم من البشر وليضعهما في ثقافتين مختلفتين من هذا العالم، ليرى التباين الواضح في المناهج الفكرية الكلية التي يتبناها كلاهما عند تقدم عمره، وليس من العجب عندها أن يكون المنهج الكلي موافقًا للثقافة الجمعية بدرجة كبيرة.

لكنني ربما بعد عام واحد، اكتشفتُ أَنَّ تفريقي نفسه بين قيمة المناهج الفكرية الكلية والاختلافات الحدسية بين البشر ليس له من مبرر موضوعي؛ لأَنَّ عادة ما تغرس كل ثقافة بشرية في أناسيها النظر إلى كلا الصنفين من المناهج نوعًا من الحقيقة الضمنية بينهم، وكان دليلي ساعتها على عدم التفريق بين صنفي الثقافة في عين ناس كل ثقافة والنظر إليهما باعتبارهما حقيقة هو اصطلاح البشر أنفسهم على مفاهيم معينة من شأنها أن تعزز التماسك الكلي بين صنفي المناهج مثل الهوية والذي حسب ما وعيت ساعتها، يشمل عناصر عدة من حياة الإنسان كاللغة والدين والعادات والأعراف، وهو مفهوم لا يمكن فصله بسهولة عن الماضي والحاضر والمستقبل.. بناءً على ذلك، أدركت من الخطأ نظري إلى المسألة وتحليلي لها من منطلق فردي لا جماعي، بالإضافة إلى ذلك، أدركتُ ضرورة التفريق نفسه بين مستويات الإدراكات البشرية تجاه أمثال تلك المسائل؛ فأقصيت كل ما هو حدسي غير لازم لأحد من القضية، لكنني أبقيتُ على ضرورة الاستدلال المنهجي من قِبَل الإنسان الفرد، لا سيما في حالة زعمه موضوعية ما يتبنى. أما في حالة عدم زعمه موضوعية ما يتبنى، فما يتبنى يدخل في دائرة الحدس الذي لا يعنيني، ومع ذلك فالتساؤل والتعجب من بِنية الإنسان ما زال مشروعًا للطرح عندي.

ربما منذ عامين فحسب إلى هذه اللحظة، أدركتُ أَنَّ دور الثقافة الجمعية للإنسان في حياته الفكرية يجعلني أُقر أنني أغلظتُ في النظر إلى الإنسان بوصفي إيّاه لعبة ثقافته، لكنني أكسبته نظرة أخرى هي عندي أكثر عمومية في استيعاب البشر، ألا وهي أَنَّ الإنسان مسكين

ثقافته قد يبدو لفظي مماثلاً للأول بعض الشيء، غير أنَّ التداخلات المُعقدة في تكوين الإنسان غرس في نفسي شيئًا من الرحمة تجاهه والشفقة عليه.. نعم، كان انطلاقي القديم يُعلي من شأن استخدام المناهج العقلية المجردة، ما جعلني أرى التأثيرات الثقافية في الإنسان نقمة ينبغي ذمها، لكنني وعيت أَنَّ المعضلة الكبرى تتجسد في صراع الإنسان القديم الحديث والمستمر بين ثلاثة أمور عظيمة: نزوعه نحو معرفة الحقيقة.. حاجته إلى عدم التقلب بين طيّات هذا النزوع.. ضرورة انتمائه إلى جماعة.

في تقديري الشخصي، تُمثل الصراعات السابقة أفضل ما أستطيع تصوّره في الفترة الحاضرة؛ وذلك لأَنَّ كل مسألة من مسائل الإنسان تندرج تحت هذه الصراعات بدرجات متفاوتة مُشكّلة الدور الثقافي للإنسان؛ لأَنَّ ثقافته عادةً ما تصور له هذه الصراعات على نحو إشباعي أصلاً، ما يجعل هذه الصراعات تتبدل من الكل إلى الجزء، وكلٌ على حسب مستوى إدراكه وفهمه.. حاليًا، أرنو إلى أن أعرف تأصيلات المؤيد للمنهج العلمي في وجود ثقافة تؤيده بالفعل، ما يعزز استقلاله الفكري وعزوفه عن أن يكون مسكين ثقافته حيث تُلقنه بما تشاء، لكنني إذا لم أجد عنده تأصيلات ومبررات ورؤى فسأُقر له بأَنَّ تأييده المنهج العلمي أفضل موقف يوفر له منهجًا كليًّا يسعى بين طيّاته، وأَنَّ تأييده إيّاه يوفر له حالة من التخفيف من الصراعات الثلاثة؛ كي يستطيع أن يعيش حياته بسعيه إلى جزئيات تمثل أدنى مشقة له من عدم تأييده المنهج العلمي.. أما الذي يتبنى منهجًا دينيًّا، بل يتبنى دينًا بعينه بإقصاء آخر، أو يتبنى إقصاء الأديان كلها دون

التزام أحدها، فأرنو إلى أن أسمع تأصيلاته لما يتبنى لا سيما إذا سهلت له ثقافته هذا التبني. لكنني إذا لم أجد عنده ما يدخل في باب المبررات الموضوعية، فسأُقر له بسهولة أَنَّ تبنّيه موقفه أفضل موقف يوفر له منهجًا كليًّا يمكن أن يخفف من حدة الصراعات الثلاثة؛ ليسعى بعدها في حياته إلى إدراك الجزئيات. وبهذه النظرة الاستيعابية إلى حد ما أستطيع أن أضع تصورًا واضحًا يفسر قيمة الاختلاف المنهجي بين ثقافات البشر، تحديدًا المناهج الفكرية الكلية.

أدركت أيضًا أَنَّ كبرى عقليات الإنسانية يدخلون في هذا الباب، غير إنَّهم عادة ما يتصور بعضهم منهجًا كليًّا بشكل مستقل، في حين يتأثرون بثقافاتهم في جزئيات حياتهم. ولربما يُفسر هذا تعقد المسألة بحيث تُشكل الصراعات هذه قوة تفوق التباين الإدراكي بين البشر أنفسهم، كما أَنَّها تفوق الصراعات الأدنى منها حِدة بدءًا من البغض، ومرورًا بالتمييز بين البشر، وانتهاءً بالحروب ونحوها.

وفي هذه المرحلة من حياتي، لا أعد حقًا أبالي بقيمة الاختلاف القائم على التلقين على حساب الاستدلال الموضوعي، لا أعد أهتم بفحص العِلل التي تجعل عددًا كبيرًا من البشر متعجرفين وضيّقي الأفق؛ لكنني ما زلت أدعو إلى التفكير المستقل بغض النظر عن منهجه ونتيجته والتأثيرات المساهمة في تشكيله؛ فإذا تبنّى الإنسان منهجًا كليًّا من المناهج المطروحة في عالم الإنسان في سياق ثقافته التي تشجعه عليه أو لا تشجعه عليه، فالأهم من هذا كله أن يفكر الإنسان جادًا في التفكير، لا بدافع تقليل حِدة الصراعات الثلاثة

فحسب بطريقة غير واعية، وما أستطيع فعله في هذا الشأن أن أدعو الإنسان إلى التفكير المستقل، وله مني أن أعذره إذا ما رأيت معظم البشر لا يستطيعون فعل ذلك إلّا في سياقات ثقافاتهم؛ إذ تتفاوت مستويات إدراكات البشر عامة، وبالتالي تباين عظيم في الأولويات ما من شأنها أن تُشبع عندهم شيئًا مُحددًا. وأظن هذه النظرة في تناول هذه المسألة تتطور في المستقبل القريب أو البعيد، غير إنَّ من المحتمل أن يكون الرأي الجديد أرحب عمقًا وأقدر على أن يفسر حالة الإنسان الفكرية من تصوري الحاضر..

الفصل الثاني: مقالات ذاتية

المقال الأول: من محاورات الذات

(المثابرة الفكرية ذات الطابع الفلسفي مهمة كما سائر صنوف المثابرة)

بين زرع وحصاد.. بين فشل ونجاح.. بين ضعف وقوة.. بين إرهاق وراحة.. بين تعاسة وسعادة.. بين لذة وألم.. بين ابتسامة ودمعة.. بين تخبط وانضباط.. تدور الحياة بين أزمة ومجاوزة.. بين محنة ومنحة.. بين متتضادات كثيرة قائمة على الإدراك المثنوي عند صديقنا الإنسان، ولم أقف على عِلة واضحة عند الإنسان تجعله يمدح العنصر المضاد على الأخر مثل: تقديمه اللذة على الألم، غير الشعور بالجانب الأكثر نورانية بالقياس إلى غيره؛ إذ يبدو أَنَّ صديقَنا الإنسان يخاف من المجهول خوفه من الموت، ولِمَ لا؟ ألم يكن خوف صديقنا من الموت دافعه الاحتياط إلى ما يعلمه والعزوف عن مجهولاته؟!

ولأَنَّني أعلمكِ جيدًا أيتها النفس، ينبغي عليَّ إيقاظُ ما في مجرداتك من شظايا، إيقاظُ ما يحويكِ من حكايا، إيقاظُ ما تتكئينَ عليه من عزة، إيقاظُ ما تدركينه عن تعمق في النظر، إيقاظ كليات ما تستندين عليه في استكمال الحياة، إيقاظ ما يجب عليكِ وجوبًا وضعه نصب كل سائل يفرزه عقلُكِ المَقيت، إيقاظ كل لحظة صدق اشتملت عليها أجزاؤكِ، عليكِ أن تُنصتِ إلى ما أنطق به وأنتِ صامتة، عليكِ أن تنتبهي إلى دقائق ما أُشير إليه، عليكِ أن

تضعي على فمكِ البكم قليلاً لأَنَّني لا أرغب في الاستماع إليكِ، ويجب هنا أن يتم قمعُكِ قليلاً أو كثيرًا في سبيل إصلاحك.. إنَّني لا أودُ أن أخاطبَ جوارحكِ الشاردة أو جسدك البالي أو شعورك الأهوج، بل فقط عقلكِ أبغي فلتستمعي به، ولتنتبهي به، ولتضعي على ما دونَهُ الخرص والعجز.. ولستُ ذا عُدة لاحتواء صيحاتِك ورغباتك في طلب الرحمة والشفقة؛ ذلك لأَنَّكِ لا تستحقين إعادة نظري فيما تطرحين كل مرة، بل لا يَصِح لَكِ أن تطرحيه تارة أخرى، هذا وقتٌ مجبورة فيه على أن تستمعي فحسب، أن تستمعي وتنفذي كل الذي أوجهكِ إيّاه عن رضا بغير سخط ولا اعتراض.. وإذا كنتِ لا تستطيعين الاستجابة لهذا، فسوف أجعلُ منكِ ألعوبة أمام نفسك؛ فتصبحي على ما أبيْتِ من النادمين.. نعم، إنَّهُ خَيارٌ واحد ولا مجال لثرثرتك التي لم أعد قادرًا على التفاعل معها، وسعالاتك التي من شأنها أن تخنقني في باب من أبواب الريح أمقته وأمقتكِ معه، إنَّ عليكِ وجوبًا أن تنضبطي بما أفرضه، وإلّا الويل أصبه عليكِ حتى النخاع.

أنتِ تنظرينَ إلى التخبط العقلي المنهجي باعتباره أزمة تجر وراءها الويلات والآلام؛ لوجود ما يحويه هذا التخبط من شك منهجي، وشغف إلى فهم الفاهمة البشرية وحدودها، وانصهار ذلك وتداخله مع كل ادعاء من شتى الصنوف، وفي هذا الصدد عليكِ أن تعي بأَنَّ هذه الأزمة ليس عمرها خمسة أعوام فحسب بل سوف تمتد عمرًا من الدهر.. عليكِ أن تعي بأَنَّ الإشكاليات الفلسفية لا يمكن حلها بتلك السهولة التي تحسبينها، بل تلك مسيرة من الدهر عليها أن تدوم، ولا تتأثر بما يحد العملية الفكرية من ألم، ولا الشعور من

اضطراب.. الصغيرة.. عليكِ إلزامًا أن تُلقي بالهموم العاطفية في صندوق من القمامة متعفن، وألَّا تتأثري عظيمًا بالألم العقلي الذي منبعه وجود الإشكاليات عندكِ، بل امضي في الحياة واستمري في التفكير، والبحث عن إرهاصات في هذا الشأن؛ حتى تبنّي فكرًا منهجيًّا مُعتبرًا من شأنه أن يسد باب كل هذا عليكِ، لكن تيقّني بأَنَّ هذا يتطلب وقتًا طويلاً، ولا مجال لإغفال ذلك على حساب ما تعانيه من ألم.. اسكني أيتها النفس واهدأي، ولتُقيمي الموقف قيمته؛ فليسَ ذلك من الأمر اليسير أبدًا.

أنتِ تعلمين جيدًا كم عبثَتْ هذه الحياة بالباحثين عن حاصل ما عانوه من أرق البحث من مدارات عدة؛ فأفنوا أعمارهم في ذلك غاية الإفناء حتى بلغوا مبلغًا من بناء منهجي لما عندهم من إشكالات متباينة، ألَم تعلمي ظنون الغزالي في المعارف الإنسانية وقصته في هذا الإطار؟! ألَمْ تعلمي ما عاناه الفيلسوف الأكبر إيمانويل كانط إبّان تفكيره المجرد قبل تدوين "نقد العقل المحض"؟! ألَمْ تعلمي بأَنَّ البحث عن الحقيقة عمومًا مما لا يصح ذكره بغير التخبط؟! هو وجوب عليكِ أفرضه أن تفرقي بين الإشكالات المجردة عندَكِ وبين الوقت المُستغرَق في تحصيل فكر مُرضي لَكِ على النحو العقلي البحت! اِلتمسي لنفسكِ الرحمة قليلاً، واضربي بالفصل عنوانًا كبيرًا بين حصر إشكالات التفكير وبين إنتاج فكر تجاه دقائقها!

وإِنَّني شخصيًّا أُشفِقُ عليكِ في كثير وأحيانًا أرى التحسر على حالكِ والبكاء لها بابًا من أبواب الرحمة! غير أَني أحسَبُكِ قادرة على

المُضي قُدُمًا نحو الأمام! انفضي عن نفسَكِ باب جسدك الذي سُجِنتِ فيه هذا رغمًا عنكِ، انفُضي عنكِ ضعفَهُ وإصابتَهُ بالهوان على الدوام تقريبًا! لا تجعلي منه عَقَبة في طريقِك؛ لأَنَّكِ كما تعلمين من أيسر صنوف الألم وإن طغى وتجبر.. نعم، أعرفُ أَنَّ كثيرًا من المُحبِطاتِ عظيمة في هذه الحياة، غير إنَّ من الصعب ضربها في مقتل على الدوام، فليَكُنْ عندَكِ نظرة واسعة لما يحويه سجنكِ، تمامًا كما تنظرين إلى العقل ومداراته.

إنَّ جملة القول التي ينبغي اختتام بها محاورتي معكِ أن حاولي أن تعي الحياة وما فيها بعين أكثر واقعية، وانفُضي عن نفسك قليلاً ما كان بالنظر المجرد المعقول واقعًا، اقبلي الألم العقلي برحابة كما تقبلين الجسدي، واجعلي من الاثنين محطات لتجاوز الحياة نفسها.. إنَّكِ كما تستمتعين بالألم الجسدي، عليكِ أن تستمتعي بالألم العقلي لأَنَّ كلاهما داخلٌ في إطار المرور على طريق واضح عندَكِ معالمه؛ فلا تضيعي الوقت في غير المضي فيه، ولا أظنُ ذلك من اليسير أبدًا لكنَّكِ تستطيعين امتلاك زمام أمره.

المقال الثاني: رسالة إلى الشيخين (استيعاذ بالكبيريْنِ الحبيبيْنِ)

لقد وقفتُ، وأنا ابنُ مطلع العقد الثالث من الحياة على عدد لا بأس به من كبار الإنسانية وعظمائها من شتى الثقافات؛ إذ حرصتُ على اقتطاف بعض ما تركوه من رحيقٍ ومسك وزهور، ولا أستطيع إطلاق الزعومات المتباينة من أمثال الإحاطة الكاملة المستوفاة المستفيضة لفكر كبير الفلاسفة إيمانويل كانط على سبيل المثال، لكنني أزعم أنَّ أهم ما يجلب الضيق على نفسي وجود ما قد يُعيقني عن القراءة لأحد عظماء الإنسانية، سواء أتمثلت تلك الإعاقة في مرض أو ضيق عقل أو لغة أو عدم امتلاك الآليات الإدراكية العقلية اللازمة لفهم المقروء.. وفي هذا الصدد، أود أن أكتب عن أعظم شخصيتين عربيتين من آل العمى، والفاصل بينهما ألف عام تقريبًا ألا وهما: شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء الأستاذ العملاق الكبير أبو العلاء المعرّي بالإضافة إلى عميد الأدب العربي الأستاذ الدكتور طه حسين؛ تعبيرًا عن الضيق الذي ينتاب نفسي، وتساؤلاً مشروعًا عن أحوالهما إبّان حياتهما لما لقياه من مصاعب ومتاعب.

إليكَ سيدي الأستاذ الدكتور طه حسين، أقول: أنا أعرف معرفة عميقة بالمهمة الكبرى التي سعيْتم إلى إتمامها في هذه الحياة؛ فلقد ألممتم بالتراث العربي أدبًا وثقافة، والتراث اليوناني القديم باعتباره درج الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة، كما ألممتم بعدد لا بأس به من جهود كبار المؤثرين من المفكرين في التاريخ الأوربي الحديث. وهذه العبقرية في التحصيل نادرة لا شك، والأندر أن تتجلى في

اهتمامات أكاديمية تبرز من خلال تقديم الشخصيات العبقرية من خلال الرسائل الأكاديمية؛ إذ نجدُ على سبيل المثال أول شخصية حرصتم على تقديمها هي شخصية المعرّي في أول رسالة دكتوراه قدمتموها إلى الجامعة المصرية حينئذٍ، ثم لا عجب أن تقدموا في السربون رسالة دكتوراه عن ابن خلدون.. تراثكم الفكري على وجه الخصوص، يحمل بين طيّاته حرصًا على إحياء التراث العربي من جهة، والمقاربة بين الأترثة الإنسانية من جهة أخرى.. هنا أتعجب من عقليتكم الفذّة في خِضم ما عانيتموه في حياتكم، والتي يمكن إجمالها في شيوع ظلامين: ظلام أعينكم وظلام الجهل من حولكم.. فالأول حجب عنكم أمورًا يسعد بها البشر الحاليون حتى من أولي العمى، والثاني ضرب بينكم وبين عقول مَن حولكم سدًا منيعًا للوعي والفهم والإدراك! كيف الخوض في معارك حياتكم الأدبي منها والثقافي، والتي يتجلى فيها صوتكم عاليًا لا يخاف أحدًا ولا شيئًا؟! أزمة الشعر الجاهلي.. الفصل بين الدين والعلم.. محاولة الإسهام في إيصال التعليم من خلال مشروع مجانية التعليم ورفع شعار "التعليم كالماء والهواء" وغير ذلك لم يمنعكم عن التجاوز والاستيعاب والانتقال من حال إلى أخرى.

وإِنَّكَ إذا نظرتَ في أبي العلاء، لوجدتَ فيه الجبل الأشم؛ فهو رجل وقف على عرش العلم مذ أن بلغ العشرين من عمره.. ويُقال إِنَّ حافظتَهُ عظيمة؛ فلم يكد يسمع النص حتى يحفظه ولا ينساه بعد ذلك أبدًا، ولقد كانَ صديقنا أبو العلاء قابضًا على شيئيْنِ في تقديري: معجم اللغة العربية، حيث إنَّهُ لا تسقط من حافظته كلمة تنتمي

إلى لغة العرب، ونفسه حيثُ عزل نفسه عن عالم الناس بعد أن ماتت أمه، ليصبح بذلك رهين المحبسين: رهين العمى ورهين البيت..

لستُ أنا مَنْ يحيطُ بهذيْنِ الجبليْنِ استيفاءً مهما امتلكتُ من أدوات ووسائل، لكنني رغبتُ في الكتابة عنهما؛ علَّني أحصل بذلك على عزاء منهما، عزاء يشفي صدر إنسان ملتهب عقليًّا ونفسيًّا، عزاء يحاول به صديقنا الكاتب الاستقواء بهما بعد أن أثخنت فيه الحياة حروبًا من شتى الصنوف، وهو ما زال صامدًا قائمًا مثابرًا في سبيل النهوض والتحصيل وإتمام المهمة.

المقال الثالث: حول الغربة والرحابة (انعكاسات اجتماعية أرهقت ذاتي)

منذ زمن بعيد، مررتُ بتصورات مختلفة حول العلاقة بيني وبين العالم، والعالم هنا مقصور على الجانب البشري منه؛ إذ وددتُ لو عرفتُ ما الذي يجعلني أُساء الفهم من الأصعدة معظمها. أظن في مرحلة تتوسط أواسط الإعدادية ووسطها، أيّ ما يعادل النصف الأول من الصف الثاني الإعدادي، بدأتُ أنظر إلى نفسي ويكأنني أحمل في ذاتي مشكلة لا أعرف عنها ولا تعرف عني شيئًا، وأخذتُ أفكر في هذا المحل عما يمكن أن أطوره في نفسي؛ كي أتعامل مع الناس بشيء أكثر فاعلية وبطريقة أقوى على الفهم، وأجدر أن تلتقط الدوائر العميقة في النفوس الإنسانية.

كانت تلك الفترة ارتيابًا في نفسي، وكان الارتياب نابعًا من الناس أنفسهم؛ حيثُ إنَّهم وصفوني ب"الغريب" وأخذتُ ساعتها أنطوي وأنعزل، وأكره أن أجد في الناس شيئًا يحملني على التفاعل الاجتماعي غير الضروري معهم.. لم تكُن تلك الفترة فترة استكشافية انطلاقها تحليل سلوك الناس، وإنما انطلاقها تحليل الذات الغريبة بينهم. ومما لا يمكن تجاهل ذكره أنَّ الوقت قد ساهم في تطور هذا الشعور عظيم التطور، بِيد إنَّ الشعور عينه قد أخذ مسارات مختلفة إذا ما تم تدقيقه والتمعن في جوانبه المختلفة، وإذا رغبنا في إجماله، فإن علينا ذكر ثلاث فترات أولاها المذكورة آنفًا، والثانية مرحلة الصف الثالث الثانوي، والأخيرة هي فترة الجامعة إلى هذا الوقت الراهن.

ولأَنَّ هذا المقال ليس من غايته بسط شيء من الحياة الشخصية على نحو تفصيلي، فحسب الإشارة إلى أَنَّ المرحلة الأولى كانت تنطلق من الخارج إلى الداخل، بحيث تم تقييم الذات وفق ما تم تقييمها من قِبَل الناس فعلاً.. أما المرحلة الثانية، فهي مرحلة تأمل وتأنٍ، أي توقف عن فهم الذات بالقياس إلى الناس.. أما الثالثة، فامتلأت بالتطور في هذا المحل، غير إنَّها عمت شيئًا من فهم الذات لتنطلق بعدها من الداخل إلى الخارج.. في أحضان هذه الكلمات الآتية، سيكون الضوء مسلطًا على أهم ما خلصت إليه في هذا المحل، لا سيما التطور الأخير من تعاطٍ مع مفهوم "الرحابة".

في تقديري، من أعقد مسائل الكائن الإنساني أَنَّهُ كائن سجين في المقام الأول، وإشكالية سجنه الكلية أَنَّها تشتمل على جوانب عديدة، منها البيولوجي المحض، ومنها الثقافي اللاجنسي، ومنها الوعوي الفهموي المحض، ومنها الشعوري المحض، والغريب أَنَّ من الصعب فصل كل تلك الجوانب عن بعضها أصلاً.. وفي هذا الصدد، النظر إلى الإنسان لا يكون نظرًا متفحصًا إلا إذا استطاع الناظر الخروج من أبواب معينة من تلك السجون، لا سيما جوانب الاختلافات الثقافية. لكن مشكلة الإنسان أيضًا أنه كائن يميل إلى البحث عن المشابهين له، أولئك الذين يمتلكون الزمام القيمي الكلي لما يعرفه ويألفه، إذن: عند الإنسان مشكلتان كليتان إحداهما القولبة التي يُقولب داخلها، خصوصًا تلك التي من بواعثها الثقافة، والثانية هي ميله وانحيازه إلى مَن يماثله في هذا المحل الكلي، وأرجو أن يكون فهمي مغمورًا بالخطأ.. والثقافة معناها كل ما يورثه الإنسان لاجنسيًّا

من لغةٍ ودينٍ وعادات وتقاليد وأعراف ونمط للفنون ونحو ذلك، لم أكن لأعمم المشكلتين المُشار إليهما إلّا بعد قراءة مستفيضة خرجتُ منها بالمعاني تلك، ورجوتُ ساعتها أن أقوى على تغيير هذا الواقع المُخزي، لكنني اكتشفتُ أن القضية في نفسي، إذ فيها ما يجعلني أتقوى على تلك الجوانب كلها بالتجريد.. نعم، التجريد هو سبب شعوري بالغربة في المراحل كلها. إنَّ قصة ملاحظة الانحياز البشري تجاه مختلف الجوانب الإنسانية أخذت في نفسي تتشكل وفق مراحل متداخلة، وما بلغتها في شكله الحاضر دفعة واحدة قطُ، لكن بالاتساع التدريجي لمداركي العقلية، انتهيتُ إلى قناعة أَنَّ الرحابة العقلية والشعورية سويًا يمثلان شقّين أساسيْن لفهم الإنسان.

عادةً ما يُشار إلى "الرحابة" بمعنى أخر ألا وهو الانفتاح، لكنني لا أجد في نفسي حرجًا من التمييز بين المعنيين إذا كان الانفتاح مقصورًا على دلالة التقبل؛ ذلك لأَنَّ الرحابة تتجاوز هذا المعنى إلى حد تقييم التقبل نفسه ومحاولة تجريده، والنظر إليه بعدسة الفحص والتحليل الموضوعيين.. لذا، أدنى صنوف الرحابة العقلية في هذا المحل هو التقبل، وأعلاها شأنًا وانضباطًا الضبط المنهجي الحاسم، أي علوم الحكمة من منطق وفلسفة.

أما عن الرحابة الشعورية، فانطلاقها إدراكي في المقام الأول؛ بحيث يتم تحييد الشعور حين إدراك قيمة ثقافية مختلفة، أو قيمة كلية لا يمكن فهمها من جانب السجون الإنسانية، وتصور وجود ما يدعو إلى وجودها من عِلة أو عدة عِلل.. أما المستوى الأعلى من الرحابة

الشعورية تتمثل في الصوفية، والشعور الصوفي هو ذلك الشعور الذي ينظر إلى العالم ويحتضنه حتى وقت الجور والأذى ونحوهما، والصوفية نزعة إنسانية راقية ليس من تجليّاتها الارتباط بدين فحسب أبدًا. في ثنايا هذين الإطارين الدقيقين صغتُ فهمًا تحليليًّا للإنسان، آخذًا في الحسبان صرامة في المنهج المتبع ذاته، غير إنني عالجتُ الموقف من جانبي، في حين لم يتم معالجته من جانب الناس أنفسهم.

وإِنَّهُ لمِن العجب هنا أن يكون الجهد المبذول فرديًّا محض ذاتية، ويكأنه طرفان لا يمكن أن يدخل في سياق الجهد الطرف الأخر أبدًا، إنَّ الموضوع مآله إلى ما آليته إليه في البداية الأولى، السجون البشرية أعني؛ فإن استطاع نفر أو مجموعة نفر أن يخرجوا خارج السياقات البشرية وسجونها وفق ما يمتلكون من قدرات، فتلك في الأصل ميزة تُحمد، غير أَنَّ ندرة شيوع المذكور يجعله غريبًا. ذلك بالضبط ما وعيته أن مهما بذل الإنسان الفرد الواعي من جهود في فهم الجنس البشري، فستظل تلك الجهود فردية.. لا يمكن إدماج طرف ثانٍ في دواخلها، اكتشفتُ أَنَّ استيعاب المثقف للإنسان ككينون ماهوي لا يمكن أن يخرج عن دائرة الذاتية، مهما أقحمنا من منطق ومهما بلغنا من تصوف نزعوي نحتفظ به في نفوسنا.

وجملة القول أَنَّ ألم الغربة بين الجنس البشري في نفسي ما كان ينبغي أن يتطلب مني لومًا لذاتي، بل هو في الأصل حالة يحياها كل فرد يتمتع بشيء من التجرد العقلي إلى جانب عظيم الفضول

المحموم في الذات. أظن الذي يجب على أعماق نفسي استشعاره منذ البداية الشفقة على حال الإنسان من جوانب عدة، والمُضي قدمًا نحو فهمه من جانبي.. حتى نظري إلى ضرورة وجود صنفي الرحابة سويًّا، أي العقلي والشعوري، كان لزومًا أن ينضبط بتلك المعاني إذ كنتُ أعد الرحابة العقلية دون الشعورية غِلظة، والرحابة الشعورية دون العقلية سذاجة والواقع الذي أرجحه أنَّ أكثر البشرية خارج تلك المعادلة أصلاً.

الفهرس

إهداء 5
تمهيد: 7
مقدمة المؤلِف: 10
الباب الأول: مدخل إلى العالم 15
الفصل الأول: اعترافات (80 اعترافًا): 15
الفصل الثاني: إشارات بطعم الدعابة (50 إشارة) 48
الفصل الثالث: إشارات بطعم الأدب (30 إشارة) 56
الباب الثاني: مَن أنتَ أيها الإنسان؟ 69
الفصل الأول: إشارات في درب الاجتماع البشري (65 إشارة) 69
الفصل الثاني: نقود في الدرب الاجتماعي (25 نقدًا) 88
الفصل الثالث: ضمير الإنسان الجمعي (100 إشارة) 109
الباب الثالث: عالم الإنسان وعلومه 147
الفصل الأول: طريق المعرفة والوعي (70 إشارة) 147
الفصل الثاني: الفكر والفلسفة (70 إشارة) 164
الفصل الثالث: الحياة الإنسانية (40 إشارة) 180
الباب الرابع: مقالات في الفكر وأحواله 190
الفصل الأول: مقالات فكرية وفلسفية 190
الفصل الثاني: مقالات ذاتية 235

حروف تائهة

(في الإنسان والفكر والحياة)

مجموعة من الكتابات المكثفة التي تمثل عصارة فكر الكاتب، والتي يحاول عن طريقها الفهم العميق للحالة الإنسانية من جوانب شتى: فكري واجتماعي وثقافي ونفسي .. ألخ، وذلك بطرح أفكار حول النقد الاجتماعي والبشري وإصلاحه، والعلاقات الاجتماعية، والضمير الجمعي للإنسان، والوعي والمعرفة ومشكلاتهما، والفكر والفلسفة، والوجود الإنساني وغيرها.

نبذة عن الكاتب

محمود إسماعيل حلمي هو طالب فلسفة في الجامعة الأمريكية في القاهرة (AUC)، وهو الحاصل على المركز الأول على جمهورية مصر العربية في دراسة الثانوية العامة لفئة المكفوفين وضعاف البصر لعام 2019. يمثل هذا الكتاب كتابه الأول، حيث يضع عصارة فكره بين أيدي القراء.

أماني العيسوي

نبض القمة